

الأشياء الأخرى

بَيْتٌ

الطَّبْعُ وَالنَّطْبَعُ



تَأَلِيفُ

أَبِي حَبْرَةَ اللَّهِ فَنَيْصَلُ بْنُ حَبْرَةَ قَائِدِ الْوَجَائِدِ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُرِيدَةٌ

دار الأمان

الإسكندرية

دار القلم

الإسكندرية

الأخلاق

بَيْت

الطبع والنطبع

طبعة جديدة منقحة ومزودة

هذه الطبعة الإلكترونية
أوضح من التي قبلها تنصح بالنسخ منها.

تأليف

أبي جعفر الفصيح بن محمد بن أبي إسري

دار الأمانة
للطبع والنشر والتوزيع
شركة ت. ٥٤٥٧٦٩

دار الفقه
يتميز الكتاب بالشرح والتعليق الذي يري
ناظره: ٥٤٥٧٦٩ ت: ١١٢٠٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب : الأخلاق بين الطبع والتطبع
إعداد فضيلة الشيخ : فيصل بن عبده قائد الحاشدي

رقم الإيداع : ٢٠١٥/١٣٤٦٦

نوع الطباعة : ٢ لون

عدد الصفحات : ٣٥٢

القياس : ٢٤x١٧

تجهيزات فنية : مكتب دار الإيمان

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ. يسري حسن

محافظة
جنتية
البحرين

٢٠١٦

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية .
تليفاكس، ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية .
تليفاكس، ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢



dar_aleman@hotmail.com

مُقَدِّمَةٌ



إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ تَعَشَّقُهَا الْقُلُوبُ، وَتَهْفُو إِلَيْهَا النُّفُوسُ، فَهِيَ
صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالصَّالِحِينَ، بِهَا تُنَالُ الدَّرَجَاتُ، وَتُرْفَعُ
الْمَقَامَاتُ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا - ﷺ - لِيُتِمَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَصَالِحَهَا،
فَكَانَ يَدْعُو النَّاسَ بِلِسَانِ مَقَالِهِ، وَيَدْعُوهُمْ - أَيْضًا - بِأَخْلَاقِهِ، وَكَرِيمِ فِعَالِهِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

خُلِقَ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْسُدُهُ عَلَى ٥٥٥ كَرَمِ الطَّبَاعِ، وَزِينَةِ الْأَوْصَافِ
ضَمِنَتْ لَهُ الدُّنْيَا الثَّنَاءَ، فَكُلَّمَا ٥٥٥ ذَكَرُوهُ جَادَ النَّاسُ بِالِاتِّحَافِ^(١)

فَمَنْ رُزِقَ الْأَخْلَاقَ تَرَأَسَ وَسَادَ، وَأَحَبَّهُ الْعِبَادُ، وَفُتِحَتْ لَهُ الْقُلُوبُ؛ لِأَنَّهُ
صَاحِبُ أَخْلَاقٍ.

قَالَ شَاعِرُ النَّيْلِ حَافِظُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ:

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً^(٢) مَحْمُودَةً ٥٥٥ فَقَدْ اصْطَفَاكَ مَقَسَمُ الْأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ، وَذَا ٥٥٥ عِلْمٌ، وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

(١) الإتحاف: الإهداء.

(٢) الخليفة: الخلق، والجمع خلائق.

وَالْمَالُ إِنْ لَمْ تُدْخِرْهُ مُحَاصِنًا ۝ ۝ بِالْعِلْمِ، كَانَ نَهَايَةَ الْإِمْلَاقِ ^(١)
 وَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلُ ^(٢) ۝ ۝ تَعْلِيهِ، كَانَ مَطِيئَةَ الْإِخْفَاقِ
 لَا تَحْسِبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ۝ ۝ مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ ^(٣) بِخِلَاقِ ^(٤) ^(٥)

ولما لمكارم الأخلاق من مكانة عظيمة، ومنزلة عالية من الدين - بل هي الدين كله -؛ فقد حاولت في هذه الصفحات الآتية أن أسلط الضوء على مكارم الأخلاق في ضوء الكتاب والسنة، مسترشداً بفهم سلفنا الصالح، ومن تبعهم بإحسان، مذكراً نفسي أولاً، وإخواني المسلمين ثانياً بهذه العبادة المباركة في الدنيا والآخرة.

وكتابي هذا من الكتاب والسنة مقتبس، وفيه لمن رام الأخلاق نعمة الملتمس، ولكن أتحدث عنه، فهو أولى بالحديث عن نفسه.

وأسأل الله أن يحسن أخلاقنا، ويوفقنا لمكارم الأخلاق في أقوالنا، وأفعالنا، ونياتنا، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

وصلى الله وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وسلّم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

كُتِبَ

أبو عبد الله

فيصل بن عميرة وابن الحاشري

(١) الإملاق: الفقر، يُقال: أملتق الرجل: إذا افتقر.

(٢) الشمائيل: الأخلاق، مفردتها شمال - بالكسر -.

(٣) ربه: صاحبه، والجمع أرباب.

(٤) بخلاق - بفتح الخاء - : أي بنصيب من الخير والصلاح ومكارم الأخلاق.

(٥) «جواهر الأدب» (ص ٤٩٥).

تصريف الأَخلاق

الأخلاق: السَّجَايا والطُّباع.

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ:

«الْخُلُقُ - بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا - : الدِّينُ، وَالطَّبَعُ، وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّهُ صُورَةُ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنَةُ، وَهِيَ نَفْسُهُ وَأَوْصَافُهُ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ:

«وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤). وَالْجَمْعُ أَخْلَاقٌ، لَا تُكْسَرُ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَالْخُلُقُ: السَّجِيَّةُ»^(٢).

وَقَالَ - أَيْضًا -:

«الْخُلُقُ - بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا - : هُوَ الدِّينُ، وَالطَّبَعُ، وَالسَّجِيَّةُ»^(٤).

وَقَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ:

«اعْلَمْ أَنَّ الْأَخْلَاقَ جَمْعُ خُلُقٍ بِضَمِّ الْحَاءِ وَاللَّامِ، وَيَجُوزُ إِسْكَانُهَا (خُلُق).

(١) «النهاية» (٧٠ / ٢).

(٢) لا تُكْسَرُ: أي لا تُجْمَعُ جَمْعَ تَكْسِيرٍ.

(٣) «لسان العرب» (١٠ / ٨٦-٨٧).

(٤) المرجع السابق.

قَالَ الرَّاعِبُ:

الْخُلُقُ وَالْخُلُقُ - بِالْفَتْحِ وَبِالضَّمِّ - فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَالشَّرْبِ وَالشُّرْبِ،
وَلَكِنْ خُصَّ الْخُلُقُ الَّذِي بِالْفَتْحِ بِالْهَيْئَاتِ وَالصُّورِ الْمُدْرَكَةِ بِالْبَصْرِ، وَخُصَّ الَّذِي
بِالضَّمِّ بِالْقَوَى وَالسَّجَايَا الْمُدْرَكَةِ بِالْبَصِيرَةِ^(١).

وَقَالَ الْجَاحِظُ:

«الْخُلُقُ: هُوَ حَالُ النَّفْسِ، بِهَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ أفعالَهُ بِلا رَوِيَّةٍ، وَلَا اخْتِيَارٍ،
وَالْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا، وَفِي بَعْضِهِمْ لَا يَكُونُ إِلَّا
بِالرِّيَاضَةِ وَالْاجْتِهَادِ»^(٢).



(١) شرح المواهب اللدنية، (٤/٢٤٣).

(٢) تهذيب الأخلاق، (ص ١٢).

الأخلاق بين الطَّبَعِ والتَّطَبُّعِ



اختلف العلماء في حقيقة الأخلاق، فذهب بعضهم إلى أنها طبائع، جبل الإنسان على التحلي بها، وذهب آخرون إلى أنها اكتساب، يكتسبها الإنسان بالممارسة، والدربة، والمرونة.

والصواب أن منها ما هو طبع، يتفضل الله - عز وجل - على بعض خلقه، فيجلبهم عليها، ويطبعمهم بها من غير كسب منهم، ولا جهد، ومن لم يؤته فهو مكلف بمجاهدة نفسه، وحملها على مكارم الأخلاق، فإن النفس قابلة لذلك.

قال أبو ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبة إذا رغبت لها ◻◻◻ وإذا ترد إلى قليل تقنع^(١)

ومما يدل على أن الأخلاق الفاضلة تكون طبعاً، وتكون تطبعاً - قول النبي ﷺ - لأشج عبد القيس: «إن فيك لخلقين، يحبهما الله: الحلم، والأناة». قال: «يا رسول الله، هما خلقان تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟». قال: «بل جبلك الله عليهما». قال: «الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»^(٢).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - يرحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة تكون طبعاً، وتكون تطبعاً، ولكن

(١) «عيون الأخبار» (٢/٥٨٨).

(٢) رواه أبو داود (٥٢٢٥)، وأحمد (٢٠٦/٤)، وأخرج شطره الأول مسلم (١٧)، والترمذي (٢٠١١).

عن ابن عباس.

الطَّبْع - بِلاشك - أَحْسَنُ مِنَ التَّطْبِيعِ؛ لِأَنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ إِذَا كَانَ طَبِيعِيًّا صَارَ سَجِيَّةً لِلإِنْسَانِ، وَطَبِيعَةً لَهُ، لَا يَحْتَاجُ فِي مُمَارَسَتِهِ إِلَى تَكْلُفٍ، وَلَا يَحْتَاجُ فِي اسْتِدْعَائِهِ إِلَى عَنَاءٍ وَمَشَقَّةٍ، وَلَكِنْ هَذَا فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ حُرِمَ هَذَا - أَيَّ مَنْ حُرِمَ الخُلُقَ عَنِ سَبِيلِ الطَّبْعِ - فَإِنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَنَالَهُ عَنِ سَبِيلِ التَّطْبِيعِ، وَذَلِكَ بِالْمُرُونَةِ وَالْمُبَارَسَةِ^(١).

وقال . أيضا .:

«وَهَذَا مَسْأَلَةٌ: وَهِيَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، رَجُلٌ جُبِلَ عَلَى خُلُقٍ حَمِيدٍ، وَرَجُلٌ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهِ، فَأَيُّهُمَا أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنَ الْآخِرِ؟»

وَنَقُولُ جَوَابًا عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: إِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي جُبِلَ عَلَى الخُلُقِ الحَسَنِ أَكْمَلُ مِنْ حَيْثُ تَخَلَّقَهُ بِذَلِكَ، أَوْ مِنْ حَيْثُ وَجُودِ هَذَا الخُلُقِ الحَسَنِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ وَلَا إِلَى مَشَقَّةٍ فِي اسْتِدْعَائِهِ، وَلَا يَفُوتُهُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ وَالْمَوَاطِنِ، إِذْ أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ فِيهِ سَجِيَّةٌ وَطَبْعٌ، فَفِي أَيِّ وَقْتٍ تَلْقَاهُ تَجِدَهُ حَسَنَ الخُلُقِ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ تَلْقَاهُ تَجِدَهُ حَسَنَ الخُلُقِ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ تَلْقَاهُ تَجِدَهُ حَسَنَ الخُلُقِ، فَهُوَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَكْمَلُ بِلا شَكٍّ.

وَأَمَّا الْآخَرُ الَّذِي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ، وَيُرَوِّضُهَا عَلَى حُسْنِ الخُلُقِ - فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يُؤَجِّرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ مُجَاهِدَةً نَفْسَهُ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ كَمَالِ الخُلُقِ أَنْقَصُ بِكَثِيرٍ مِنَ الرَّجُلِ الْأَوَّلِ.

فَإِذَا رُزِقَ الإِنْسَانُ الخُلُقَيْنِ جَمِيعًا طَبْعًا وَتَطْبِيعًا، كَانَ ذَلِكَ أَكْمَلَ^(٢).

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص ١٣).

(٢) المرجع السابق (ص ١٤).

أهمية الأُخلاقِ

١. أنها امتثالٌ لأمرِ الله - سبحانه وتعالى - .
٢. أنها طاعةٌ لرسولِ الله - ﷺ - .
٣. أنها سببٌ لمحبةِ الله - سبحانه وتعالى - .
٤. أنها سببٌ لمحبةِ رسولِ الله - ﷺ - .
٥. أنها أعظمُ سببٍ لدخولِ الجنةِ بعدَ تقوىِ الله - تعالى - .
٦. أن كمالَ الدينِ . بعدَ التَّوْحِيدِ . في حُسْنِ الخُلُقِ .
٧. أنها أثقلُ شيءٍ في الميزانِ .
٨. أنها عبادةٌ عظيمةٌ .
٩. حصولُ الخَيْرِيَّةِ .
١٠. أنها مِن خَيْرِ أعمالِ العبادِ .
١١. أنها سببٌ لتعميرِ الدِّيارِ ، وزيادةِ الأعمارِ .
١٢. أنها مِن أَعْمَالِ أَهْلِ الجنةِ .
١٣. أنها سَبَبٌ في تَأْيِيدِ اللهِ وَنَصْرِهِ .

أهمية الأَخلاقِ



١. أنها امتثالٌ لأمرِ الله - سبحانه وتعالى - :-

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٩٩).

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : «أمر الله نبيّه - ﷺ - أن يأخذ العفو من

أخلاقِ الناس»^(١).

٢. أنها طاعةٌ لرسولِ الله - ﷺ - :-

عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَمُعَاذٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - : «وخالقِ الناسَ

بِخُلُقِ حَسَنٍ»^(٢).

٣. أنها سببٌ لمحبةِ الله - سبحانه وتعالى - :-

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - : «أحبُّ عبادِ

اللهِ إلى اللهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٣).

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، و (٤٦٤٤).

(٢) رواه أحمد (١٣٥/٥-١٥٨)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧/١).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٤٧١)، والحاكم في «المستدرک» (٤/٣٩٩-٤٠١)، وصححه الألباني في

«صحيح الجامع» (١٧٩/١)، و«الصحيحه» (٤٣٣).

٤. أنها سبب لمحبة رسول الله - ﷺ - :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَحْسَنِكُمْ اخْلَاقًا»^(١).

٥. أنها اعظم سبب لدخول الجنة بعد تقوى الله - تعالى - :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٢).

٦. أن كمال الدين - بعد التوحيد - في حسن الخلق:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٣).

وَيَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - : «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين»^(٤).

٧. أنها أثقل شيء في الميزان:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»^(٥).

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٢٢٠١)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢/٢١٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٤٢)، وحسن إسناده الشيخ سليم الهلالي في كتابه «مكارم الأخلاق» (ص ٥٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٢٣٠ و١٢٣٢)، و«الصحيح» (٢٨٤).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٤).

(٥) رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) و (٢٠٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٥٧٢١)، و«الصحيح» (٨٧٦).

٨. أَنَّهَا عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ:

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خَلْقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(١).

٩. حَصُولُ الْخَيْرِيَّةِ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنِكُمْ أَخْلَاقًا»^(٢).

١٠. أَنَّهَا مِنْ خَيْرِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ:

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ؟ قَالَ: «خَلْقٌ حَسَنٌ»^(٣).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ، هُمَا اخْفُ عَلَى الظُّهْرِ، وَاثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟». قَالَ: «بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخَلْقِ، وَطَوْلِ الصَّمْتِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا عَمِلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا»^(٤).

١١. أَنَّهَا سَبَبٌ لِتَعْمِيرِ الدِّيَارِ، وَزِيَادَةِ الْأَعْمَارِ:

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «صِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخَلْقِ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ - يَعْمُرُنَ الدِّيَارَ، وَيَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ»^(٥).

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٦٢٠)، و«الصَّحِيحَةُ» (٧٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩) و (٣٧٥٩) و (٦٠٢٩) و (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وأحمد في «المسند» (٤/٢٧٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)،

وهو صحيح الإسناد.

(٤) رواه البرزالي في «كشف الأستار» (٤/٢٢٠) عن أنس، وأبو الشيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدرداء، وحسنه

الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٤٠٤٨)، وهو في «الصَّحِيحَةُ» (١٩٣٨).

(٥) رواه أحمد (١٥٩/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٣٧٦٧)، و«الصَّحِيحَةُ» (٥١٩).

١٢. أنها من أعمال أهل الجنة:

عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «أَنَا زَعِيمٌ^(١) ببيتِ فِي رَيْضِ^(٢) الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ^(٣)، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَببيتِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَببيتِ فِي أعلى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»^(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ». وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُّ، وَالْفَرْجُ»^(٥).

١٣. أنها سبب في تاييد الله ونصره:

وَصَفَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عِنْدَمَا أَخْبَرَهَا بِنُزُولِ الْوَحْيِ، وَيَقُولُ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي». فَقَالَتْ: «كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ، لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا - ثُمَّ ذَكَرْتُ سَبَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهَا - وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَتَتَّصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ^(٦)، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ^(٧)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ^(٨)، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(٩).

(١) زعيم: ضامن، وكفيل، والجمع زعماء.

(٢) رَيْضُ الْجَنَّةِ - بفتحين -: أذناها. وَرَيْضُ الْمَدِينَةِ: ما حَوْلَهَا، وَالْجَمْعُ: أَرْبَاضٌ، وَرَبُوضٌ.

(٣) الْمِرَاءُ: أصله من مريت الناقة: إذا استخرجت ما في ضرعها، وهو المنازعة في القول والعمل بقصد الباطل، فإذا كان بقصد الحق فهو جدال.

(٤) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٤٦٤)، و«الصحيح» (٢٧٣).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) الْكُلُّ - بالفتح - : الْعِيَالُ. وَتَحْمِلُ الْكُلَّ: أي عن صاحب العيلة والفاقة، فتعطيه ما يريحه من ثقل مؤنة عياله.

(٧) تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ: تُبَادِرُ إِلَى إعطاء الفقير، فتكسب حسنة قبل غيرك. سُمِّيَ الْفَقِيرُ مَعْدُومًا؛ لِأَنَّ حَيَاتِهِ نَاقِصَةٌ، فَوَجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ.

(٨) تَقْرِي الضَّيْفَ: تُكْرِمُهُ فِي تَقْدِيمِ قِرَاءِهِ، وَإِحْسَانِ مَاوَاهُ.

(٩) رواه البخاري (٣)، و (٤٩٥٣)، و (٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠).

قَالَ النَّوَوِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«قَالَ الْعُلَمَاءُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: مَعْنَى كَلَامِ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّكَ لَا يُصِيبُكَ مَكْرُوهٌ؛ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ، وَذَكَرْتَ ضُرُوبًا^(١) مِنْ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَخِصَالَ الْخَيْرِ سَبَبُ السَّلَامَةِ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ»^(٢).

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدَ ■■■ نَظَرَ إِلَهِ لَهَا، فَبَدَّلَ حَالَهَا
بَلْ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ ■■■ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهَلَالَهَا
ووصفَ ابنُ الدَّغْنَةِ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ بِمِثْلِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -
رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى بَلَغَ
بَرْكَ الْغِمَادِ، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ - وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ - فَقَالَ: أَيْنَ تَرِيدُ يَا أبا بَكْرٍ؟
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَرِيدُ أَنْ أُسِيحَ فِي الْأَرْضِ^(٣)، وَأَعْبُدَ رَبِّي.

قال ابنُ الدَّغْنَةِ: إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي
الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؛ فَأَنَا لَكَ جَارٌ^(٤)؛ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَدِكَ. فَرَجَعَ^(٥).
قال الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَفِي مُوَافَقَةٍ وَصَفَ ابْنُ الدَّغْنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةُ النَّبِيِّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ، وَاتِّصَافِهِ بِالصِّفَاتِ الْبَالِغَةِ فِي أَنْوَاعِ
الْكَمَالِ»^(٦).

(١) ضُرُوبًا: جَمْعُ ضَرْبٍ - بِالْفَتْحِ - وَهُوَ الصَّنْفُ وَالنَّوْعُ، وَيُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَى أَضْرَبٍ، وَأَضْرَابٍ.

(٢) «شرح مسلم» (٢/٢٠٢).

(٣) سَاحَ فِي الْأَرْضِ يَسِيحُ سِيحًا وَسِيوحًا وَسِيَاحَةً وَسِيحَانًا: أَي ذَهَبَ.

(٤) جَارٌ: أَي مُجِيرٌ، أَمْنَعُ مَنْ يُؤْذِيكَ.

(٥) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٦) «الفتح» (٧/٦٤٠).

وقال - ايضاً .:

«وَمَنْ أَعْظَمُ مَنَاقِبِهِ»^(١) - أَي أَبِي بَكْرٍ - رضي عنه - أَنَّ ابْنَ الدَّغَنَةِ سَيِّدَ الْقَارَةِ
وَصَفَّهُ بِنَظِيرِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةَ النَّبِيِّ عليه السلام - لَمَّا بُعِثَ، فَتَوَارَدًا عَلَى نَعْتِ
وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَاطَأَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي مَدْحِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام -
مُنْذُ نَشَأَ كَانَتْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ»^(٢).

أبو بكر والشدة الجميل بك ابتكر ◻◻◻ وذكراك قد طافت على البدو والحضر
همام^(٣) كان الشمس أصغت لفضله ◻◻◻ وحننت له الجوزا^(٤) وشيعه القمر
تفرّد بالعلواء عن كل فاضل ◻◻◻ مناقبه زانت ربيعة^(٥) او مضر^(٦)



(١) المناقب: جمع منقبة - بوزن المتربة - وهي الفضيلة.

(٢) «الإصابة» (١٠٤/٤).

(٣) الهمام: السيد الشجاع، أو الملك العظيم الهمة.

(٤) الجوزاء: برج في السماء.

(٥) ربيعة: قبيلة عربية، كانت مع قبيلة مضر من أقوى القبائل في الجاهلية، رحلت من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية، ثم إلى شمال بلاد الفرات.

(٦) مضر: قبيلة عربية، كانت ديارهم فيما بين النهرين على الفرات، كان رسول الله عليه السلام - منها من بني النضر بن كنانة.

أسباب اكتساب مكارم الأخلاق

١. الإخلاصُ.
٢. العِلْمُ.
٣. العقيدةُ الصحيحةُ.
٤. - النَّظَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ - تعالى -.
٥. التَّأْسِي بِالنَّبِيِّ - ﷺ -.
٦. الدُّعَاءُ.
٧. العَمَلُ الصَّالِحُ.
٨. الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ.
٩. المحاسبةُ.
١٠. المجاهدةُ.
١١. الاستفادةُ مِنَ الْآخِرِينَ.
١٢. عُلُوُّ الِهْمَةِ.
١٣. النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ سُوءِ الْخُلُقِ.

أسباب اكتساب مكارم الأخلاق

الإخلاص



إِنَّ لِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ فَهُوَ يَمُدُّ قَلْبَ صَاحِبِهِ بِقُوَّةٍ، تَجْعَلُهُ يَنْهَضُ لِلْمَكَارِمِ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، غَيْرَ مُتَنَظِّرٍ مِنْ أَحَدٍ جِزَاءً وَلَا شُكُورًا، يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْحِلْمِ، وَالْعَفْوِ، وَمَعَالِي الْأَخْلَاقِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَطَلْبًا لِرِضَاةِ اللَّهِ، وَالْفَوْزِ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ.

وَمَنْ تَكُنْ الْعَلِيَاءُ هِمَّةً نَفْسِهِ ۝۝۝ فَكُلُّ الذِّي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحِبِّبٌ^(١)

فَهُوَ إِنْ أَعْطَى فَعَطَاؤُهُ لِلَّهِ، وَإِنْ مَنَعَ فَمَنَعُهُ لِلَّهِ، وَإِنْ أَحَبَّ فَحُبُّهُ لِلَّهِ، وَإِنْ أَبْغَضَ فَبُغْضُهُ لِلَّهِ، وَإِنْ صَبَرَ فَصَبْرُهُ لِلَّهِ، وَإِنْ غَضِبَ فَغَضَبُهُ لِلَّهِ، وَهَكَذَا فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ - فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٢).

(١) «جواهر الأدب» (ص ٥٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١) بإسناد حسن، وله شاهد عند الترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٤٤٠/٣) من حديث معاذ الجهني بزيادة: «وأنكح لله»، وقد صححه الالباني في «صحيح الجامع» (٢/٥٩٦٥)، و«الصحيح» (٣٨٠).

قال الإمام أبو طاهر السلفي:

واعلم بأن الأجر ليس بحاصلٍ ◻◻◻ إلا إذا كانت له صفتان
 لا بد من إخلاصه ونقاؤه ◻◻◻ وخلوه من سائر الأدران^(١)
 وكذا متابعة الرسول فحكمها ◻◻◻ نص بحكم نبينا العبدان



(١) الأدران: جمع درن - بفتحين - وهو الوسخ، وبأبه فرح.

العِلْمُ



العِلْمُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الْأَخْلَاقِ، فَهُوَ يُثْمِرُ التَّدِينِ الصَّحِيحَ، فَكَمِّ مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَقْرَؤُهَا، فَتَرَقُّ قَلْبَكَ لِلَّهِ، وَالْإِحْسَانَ، وَالرَّحْمَةَ، وَالْحَنَانَ!، وَكَمِّ مِنْ حَدِيثٍ تَتَخَلَّقُ بِهِ مَعَ النَّاسِ، يَجْلِبُ لَكَ مَحَبَّةَ اللَّهِ، ثُمَّ مَحَبَّةَ النَّاسِ، فَتَعِيشُ سَعِيدًا!.

قَالَ عَبْدُهُ مُحَمَّدُ الْعِمَادُ:

الْجَهْلُ جِسْرٌ لِلْمَذْمَةِ وَالْخَنَا ۝ ۝ وَالْعِلْمُ جِسْرٌ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
فَتَعَلَّمِ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ؛ فَإِنَّهُ ۝ ۝ يُنَجِّيكَ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ إِخْفَاقٍ

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«كُلُّ مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَدْحٍ لِلْعَبْدِ فَهُوَ مِنْ ثَمَرَةِ الْعِلْمِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَمٍّ لِلْعَبْدِ فَهُوَ مِنْ ثَمَرَةِ الْجَهْلِ».

وَقَالَ - أَيْضًا -:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعِلْمِ إِلَّا الْقُرْبُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالِاتِّحَاقُ بِعَالَمِ الْمَلَائِكَةِ، وَصُحْبَةُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى - لَكَفَى بِهِ شَرَفًا وَفَضْلًا، فَكَيْفَ وَعِزُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْوُوطٌ^(١) بِهِ، مَشْرُوطٌ بِحُصُولِهِ؟!»^(٢).

لَيْسَ الْأَصْمُ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ ۝ ۝ لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
فَاجْعَلْ صَدِيقَكَ عِلْمًا تَسْتَقِيمُ بِهِ ۝ ۝ فَإِنَّهُ النُّورُ لَا يَنَائِي بِهِ خَطَرُ

(١) مَنْوُوطٌ: مُعَلَّقٌ.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/١٠٨).

وَالْعِلْمُ الْمَقْصُودُ هُنَا هُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، فَاجْلُ الْعُلُومِ - كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ يَرْحَمُهُ اللَّهُ - : « مَا قَرَّبَكَ مِنْ خَالِقِكَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، وَمَا أَعَانَكَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى رِضَاةٍ ^(١) .

وقال - ايضاً - في بيان ما للعلم من اهمية في الأخلاق :

«مَنْفَعَةُ الْعِلْمِ فِي اسْتِعْمَالِ الْفَضَائِلِ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ حُسْنَ الْفَضَائِلِ، فَيَأْتِيهَا - وَكَوْنُ فِي النَّدْرَةِ - وَيُعَلِّمُ قُبْحَ الرَّذَائِلِ، فَيَجْتَنِبُهَا - وَكَوْنُ فِي النَّدْرَةِ -، وَيُسْمَعُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ، فَيَرْعَبُ فِي مِثْلِهِ، وَالثَّنَاءَ الرَّدِيءَ، فَيَنْفِرُ مِنْهُ، فَعَلَى هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِلْمِ حِصَّةٌ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَلِلْجَهْلِ حِصَّةٌ فِي كُلِّ رَذِيلَةٍ.

وَلَا يَأْتِي الْفَضَائِلَ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْعِلْمَ إِلَّا صَافِي الطَّبَعِ جِدًّا، فَاضِلَ التَّرْكِيبِ، وَهَذِهِ مَنَزِلَةٌ خُصَّ بِهَا النَّبِيُّونَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَّمَهُمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ، دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمُوهُ مِنَ النَّاسِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ غِمَارِ الْعَامَّةِ ^(٢) مَنْ يَجْرِي مِنَ الْاِعْتِدَالِ، وَحَمِيدِ الْأَخْلَاقِ إِلَى مَا لَا يَتَقَدَّمُهُ فِيهِ حَكِيمٌ عَالِمٌ رَائِضٌ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ جِدًّا، وَرَأَيْتُ مِمَّنْ طَالَعَ الْعُلُومَ، وَعَرَفَ عَهْدَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -، وَوَصَايَا الْحُكَمَاءِ، وَهُوَ لَا يَتَقَدَّمُهُ فِي خُبِّ السَّيْرَةِ، وَفَسَادِ الْعِلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ - شَرَارُ الْخَلْقِ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا مَوَاهِبٌ، وَحَرِمَانٌ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - ^(٣) .

(١) «الأخلاق والسير» (مس ٨٩).

(٢) غيمار: جمع غمير - بالفتح - وهو الكثير. وغميار العامة: جماعتهم ولنفيهم.

(٣) «الأخلاق والسير» (مس ٩٢ - ٩٣).

وَأخيراً قَالَ إبراهيمُ الألبيريُّ - يَحْتُ وَوَلَدَهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ -:

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا ٥ ٥ لَعَمْرُكَ، فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْنَا
 وَبَيْنَهُمَا - بِنَصِّ الْوَحْيِ - بَوْنٌ^(١) ٥ ٥ سَتَعَلَّمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْنَا^(٢)
 لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِيَاءَ^(٣) مَالٍ ٥ ٥ لَأَنْتَ لِيَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْنَا
 لَئِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا^(٤) ٥ ٥ لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْنَا
 وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوِّمَاتٍ^(٥) ٥ ٥ لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْنَا
 وَمِنْهُمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي^(٦) ٥ ٥ فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكْمِ افْتَضَضْنَا
 وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الْإِقْتَارُ^(٧) شَيْئًا ٥ ٥ إِذَا مَا أَنْتَ رَبُّكَ قَدْ عَرَفْنَا^(٨)



- (١) بَوْنٌ : فَرَقٌ وَتَفَاوُتٌ فِي الْفَضْلِ وَالْمَرْيَةِ .
 (٢) يريد قوله - تعالى - : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (سورة طه : ١١٤) .
 (٣) اللِّوَاءُ : الْعِلْمُ وَالرَّأْيَةُ ، وَجَمَعَهُ الْوَيْبَةُ .
 (٤) الْحَشَايَا : جَمْعُ حَشِيَّةٍ ، وَهِيَ الْفِرَاسُ الْمَحْشُورُ .
 (٥) الْجِيَادُ : جَمْعُ جَوَادٍ ، وَهُوَ الْفَرَسُ . وَالْجِيَادُ الْمُسَوِّمَاتُ : أَيِ الْمُعَلَّمَاتِ ، يُقَالُ : سَوَّمَ الْفَرَسَ ، إِذَا أَعْلَمَهُ بِسُومَةٍ ، وَالسُّومَةُ : السُّمَّةُ وَالْعَلَامَةُ .
 (٦) الْغَوَانِي : جَمْعُ غَانِيَةٍ ، وَهِيَ الْمَرَاةُ الْجَمِيلَةُ ، سُمِّيَتْ غَانِيَةً لِاسْتِغْنَائِهَا بِحَسَنِهَا وَجَمَالِهَا عَنِ الْحَلِيِّ وَنَحْوِهِ .
 (٧) الْإِقْتَارُ : الْفَقْرُ وَضَيْقُ الْمَعِيشَةِ ، يُقَالُ : أَقْتَرَ الرَّجُلُ : أَيِ افْتَقَرَ .
 (٨) «عشرون قصيدة في الزُّهْدِ» (ص ٤٨) .

العقيدة الصحيحة



العقيدة الصحيحة هي أصل الأخلاق ومصدرها، فإذا ثبتت واستقرت أثمرت الأخلاق الطيبة.

فالاعتقاد الصحيح يحمل على محاسن الأخلاق، والاعتقاد الفاسد يحمل على مساوي الأخلاق، فإذا اعتقد الشخص أن هناك جنة ونارا، عمل لما يكون سببا لدخوله الجنة، وترك ما يكون سببا لدخوله النار، ألا ترى أن الصحابة -رضي عنهم- كانوا قبل البعثة كسائر كثير من العرب ممن يتصفون بالشدة، والقسوة، والغلظة، ولما دخلوا في الإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم - رقت طباعهم، وحسنت أخلاقهم، بل إنهم أصبحوا مثالا في مكارم الأخلاق.

جزاهم الله عن دين الرسول فما ◻◻◻ أحلى مآثرهم في سائف الحقب^(١)

لولا لطائف صنع الله ما ثبتت ◻◻◻ تلك المكارم في لحم، ولا عصب

فالعقيدة الصحيحة هي الأساس التي انطلق منها الرسل -صلوات الله عليهم- لإصلاح سلوك الناس، وتقويم أخلاقهم، فالتغيير لا بد أن يكون - أولا وقبل كل شيء - تغييراً عقدياً، مبنياً على الاعتقاد الصحيح في الله -سبحانه وتعالى-، وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وأثارها في الكون والحياة.

(١) الحقب: جمع حقب، وهي مدة مبهمه طويلة من الزمن.

تأمل في نبات الأرض، وانظر ٥٥٥ إلى آثار ما صنع المليك^(١)
 عيون من لجين^(٢) شاخصات ٥٥٥ بأحداق^(٣) هي الذهب السبيك^(٤)
 على قضب الزبرجد شاهدات ٥٥٥ بأن الله ليس له شريك
 فالإصلاح مبدؤه من القلب، وكذلك الفساد، ثم يتسع ليشمل إرادات
 الإنسان وأفعاله.

عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «الآ
 وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا
 وهي القلب»^(٥).

قال الغزالي - يرحمه الله -:

«آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر،
 والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس
 الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر^(٦) هي التي تشرق على الظواهر، فتزينها
 وتجليها، وتبدل المحاسن بمكارهها ومساويها، ومن لم يخشع قلبه، لم تخشع
 جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة^(٧). الأنوار الإلهية، لم يفيض على ظاهره
 جمال الآداب النبوية»^(٨).

(٢) اللجين: الفضة.

(١) المليك: المالك.

(٣) احداق: جمع حدقة، وهي سواد العين الأعظم، وتجمع - أيضاً - على حدق، وحداق.

(٤) السبيك: المذاب.

(٥) رواه البخاري^(٥٢)، ومسلم^(١٥٩٩).

(٦) السرائر: القلوب، مفردا سريرة.

(٧) المشكاة: فجوة في الجدار، لا تصل فتحته إلى الطرف الثاني منه، شبه الصدر بها.

(٨) «الإحياء» (٣٥٧/٢).

وَدَعْنِي - أَخِي - أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَهُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَهُوَ يُورِثُ كُلَّ خَلْقٍ حَمِيدٍ، وَيَبْعَثُ الطَّمَأِينَةَ، وَالرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ، فَلَا يَقْلَقُ بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ كَاتِنٌ لَا مَحَالَةَ.

يَقُولُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي ذَلِكَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿﴾ (سورة الحديد: ٢٢-٢٣).

فَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ.

عَنْ صُهَيْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنْ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

وَشَأْنُ الْبَشَرِ الصُّعُودُ وَالنُّزُولُ.

عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ السُّنْبُلَةِ، تَمِيلُ أَحْيَانًا، وَتَقُومُ أَحْيَانًا» (٢).

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ - أَيْضًا - أَنْ يَقُولَ الْمَرْءُ الْحَقَّ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَيُنْكِرُ الْمُنْكَرَ، وَيُقِرُّ الْمَعْرُوفَ، فَيُحِبُّهُ اللَّهُ، ثُمَّ يُحِبُّهُ النَّاسُ؛ لِأَنَّهُ اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ قَوْلُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (سورة التوبة: ٥١).

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه أبو يعلى، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٤٥/٢)، و«الصَّحِيحَةُ» (٢٢٨٨).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « لَا يَمْنَعُنْ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ،
أَوْ شَهِدَهُ، أَوْ سَمِعَهُ. »^(١)

وَإِذَا عَلِمَ الْمَرْءُ أَنَّ الْأَرْزَاقَ مُقَدَّرَةٌ^(٢)، فَلَا يَحْمِلُهُ اسْتِبْطَاءُ رِزْقِهِ أَنْ يَطْلُبَهُ
بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، بَلْ لَا يَطْلُبُهُ إِلَّا مِنْ حَلَالٍ، فَلَا يَظْلِمُ، وَلَا يَسْرِقُ، وَلَا يَغْشَى، وَلَا
يَخُونُ، وَلَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، وَلَا يَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ
فِي رُوعِي^(٣) أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ،
وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ
اللَّهَ - تَعَالَى - لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. »^(٤)

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ إِسْمَاعِيلُ الْقُرَيْ - مِنْ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ - فِي قَصِيدَةٍ
لَهُ وَعَظِيَّةٍ بَلِيغَةٍ، فَقَالَ - وَأَجَادَ - :

تَقُولُ مَعَ الْعِصْيَانِ: رَبِّي غَافِرٌ ◻◻◻ صَدَقْتَ، وَلَكِنْ غَافِرٌ بِالشَّيْئَةِ
وَرَبُّكَ رِزَاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ ◻◻◻ فَلِمَ لَمْ تُصَدِّقْ فِيهِمَا بِالسُّوِيَّةِ؟
فإِنَّكَ تَرْجُو الْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ ◻◻◻ وَلَسْتَ بِرَاجِي الرِّزْقِ إِلَّا بِحِيلَةٍ!
عَلَى أَنَّهُ بِالرِّزْقِ كَفَلَ نَفْسَهُ ◻◻◻ لِكُلِّ، وَلَمْ يَكْفُلْ لِكُلِّ بَجَنَّةٍ^(٥)

(١) «السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (١٦٨).

(٢) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٢٦٦٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ لِأُمَّ
حَبِيْبَةَ: «لَقَدْ سَأَلَتِ اللَّهُ لِأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنْ
حِلِّهِ». وَمَعْنَى حَلِّهِ: أَي نَزْوَلِهِ.

(٣) الرُّوعُ - بَضْمُ الرَّاءِ - : الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ.

(٤) رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١/٢٠٨٥).

(٥) «إِبْتَارُ الْحَقِّ عَلَى الْخَلْقِ» (ص ٢٥٨).

وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ خَزَائِنَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدَيْهِ^(١)، تَوَاضَعَ لِلَّهِ، وَلَمْ يَسْتَكْبِرْ عَلَى الْخَلْقِ،
وَلَمْ يُنْزِلْ حَاجَتَهُ بِهِمْ، وَلَمْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَحْسُدِ النَّاسَ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ.

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَقْنَعْ بِعَيْشِهِ، فَإِنَّهُ ۝ ۝ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - مِنَ الْفَقْرِ مُوقِرًا^(٢)

إِذَا كَانَ فَضْلُ النَّاسِ يُغْنِيكَ بَيْنَهُمْ ۝ ۝ فَأَنْتَ بِفَضْلِ اللَّهِ أَغْنَى وَأَيْسَرَ^(٣)

وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الذُّنُوبَ مُقَدَّرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ^(٤)، وَكَذَلِكَ الْإِبْتِلَاءُ - لَمْ يُعَيِّرِ الَّذِينَ
أَخْطَأُوا خَطَأً غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، وَلَنْ يَشْمَتَ بِمَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ.
قَالَ الْعَلَاءُ بْنُ قَرِصَةَ:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَا سِر ۝ ۝ حَوَادِثُهُ^(٥)، أَنَاخَ بِأَخْرِينَا

فَقُلْ لِلشَّمَامَتَيْنِ بِنَا: أَفِيَقُوا ۝ ۝ سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ^(٦) كَمَا لَقِينَا^(٧)

وَإِذَا أَيْقَنَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا، حَسُنَتْ أَخْلَاقُهَا، وَلَمْ تَسْأَلْ زَوْجَهَا
طَلَاقَ ضَرَّتِهَا^(٨).

(١) قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر: ٢١). وَقَالَ

اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة المنافقون: ٧).

(٢) الْوَقْرُ - بِكسر الواو - : الْحَمْلُ، يُقَالُ: أَوْقَرَتِ النَّخْلَةَ: أَي كَثُرَ حَمْلُهَا.

(٣) «رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ» (ص ١٥١).

(٤) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ (٣٤٠٩) وَ (٤٧٣٦) وَ (٤٧٣٨) وَ (٦٦١٤) وَ (٧٥١٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٥٢)، مِنْ

حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَحْتَجُّ أَدَمَ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا أَدَمُ،

أَنْتَ أَبُوْنَا، أَنْتَ خَيْبَتُنَا، وَأَخْرَجْتُنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ أَدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَأَ لَكَ

بِيَدِهِ، أَتَلُوْمُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟». فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «فَحَجَّ أَدَمُ

مُوسَى، فَحَجَّ أَدَمُ مُوسَى».

(٥) حَوَادِثُ الدَّهْرِ: نَوَازِلُهُ وَمِصَابِيهُ، وَالْمَفْرَدُ حَادِثَةٌ.

(٦) الشَّمَامَاتُ: الْفَرَحُ بِبَيْلَةِ الْعَدُوِّ وَحُزْنُهُ، وَبَابُهُ سَلِمَ.

(٧) «الْأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ» (٤١٢/١).

(٨) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (١٢٤٠) وَ (٢٧٢٣) وَ (٥١٥٢) وَ (٦٦٠١)، وَمُسْلِمٌ (١٤١٣) مِنْ

حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تَسْأَلُ طَلَاقَ أُخْتِهَا؛

لَتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا».

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -:

هُوَ عَلِيٌّ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ ۝ ۝ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مِنْهُيُهَا ۝ ۝ وَلَا قَاصِرُكَ عَنْكَ مَأْمُورُهَا^(١)

وإذا واعد المرء رجلاً، وجلس بانتظاره، فحال بينه وبين الوفاء حائل خارج إرادته، وجاء يشكو عذره إلى أخيه، فمن كان مؤمناً بالقدر فسيرضى، ويسلم أنه ما فاته شيء كتبه الله له، فحينئذ سيقبل عتابه ولوومه، وتثريبه على أخيه، وسيطيب خاطره، ويطمئن قلبه على ما قد فات، وهكذا في سائر أبواب الإيمان^(٢).

هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمَنِي أَوْ قَدْرٌ ۝ ۝ إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدْرُ^(٣)

وإنما ذكرنا هنا مثالا واحداً ليتضح البيان.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ التُّهَامِيُّ - يَرِثِي وَلَدَهُ الصَّغِيرَ -:

بَيْنَا تَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا ۝ ۝ أَلْفَيْتَهُ خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طَبِيعَتُ عَلَى كَدْرٍ، وَأَبَتْ تَرْيِدَهَا ۝ ۝ صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدُّ طِبَاعِهَا ۝ ۝ مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَدْوَةٌ^(٤) نَارِ



(١) «روضه العقلاء» (ص ١٥٨).

(٢) انظر «فقه الأخلاق والمعاملات بين المؤمنين» (١٢/٤).

(٣) «الآداب الشرعية» (١/٣٨٨).

(٤) الجدوة - بتلث الجيم - : الجمرة، والجمع جدوى - بتلث الجيم -.

النَّظَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى -



كِتَابُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَمَعَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ خَيْرَ جَمْعٍ، وَنَظَّمَهَا خَيْرَ نَظْمٍ، مَا فَرَطَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسراء: ٩). وَقَالَ : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصلت: ٤١-٤٢).

فَمَنْ أَرَادَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَلْيَعْتَمِدْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -، وَيُحَاوَلْ جَاهِدًا أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - الْقُرْآنَ، كَمَا وَصَفَتْهُ بِذَلِكَ زَوْجُهُ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: قُلْتُ: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟». قُلْتُ: «بَلَى». قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - كَانَ الْقُرْآنَ». قَالَ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، وَلَا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ»^(١).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ حَزْمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«مَنْ جَهَلَ مَعْرِفَةَ الْفَضَائِلِ، فَلْيَعْتَمِدْ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَرَسُولُهُ ﷺ -؛ فَإِنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى جَمِيعِ الْفَضَائِلِ»^(٢).

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) «الأخلاق والسير» (ص ١٧٦).

وَقَالَ الْإِمَامُ السَّلْفِيُّ صَدِيقُ حَسَنِ خَانَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي سَارَ فِيهَا أَصْحَابُهَا لِاِكْتِسَابِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ:

«وَقَدْ قَضَتِ الشَّرِيعَةُ الْمُصْطَفَوِيَّةُ حَقَّ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، فَلَمْ تَدَعْ لِأَحَدٍ مَقَالًا يَقُولُهُ، وَكَلَامًا يَتَكَلَّمُ بِهِ، فَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يَكْفِيَانِ - لِمَنْ يُرِيدُ إِدْرَاكَ هَذَا الْعِلْمِ، وَالتَّحَلِّيَ بِهِ عَنْ تِلْكَ الْكُتُبِ الْمُسَارِ إِلَيْهَا، فَإِنَّ الصَّبَّاحَ يُغْنِي عَنِ الْمَصْبَاحِ»^(١).

سَمِعْتُكَ - يَا قِرَانَ - وَاللَّيْلُ وَاجِمٌ^(٢) ◻ ◻ ◻ سَرَيْتُ^(٣) تَهْزُ الْكُونَ، سُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى!
فَتَحَنَّنَا بِكَ الدُّنْيَا، فَأَشْرَقَ نُورُهَا ◻ ◻ ◻ فَسَلْ دَوْلَةَ الْأَخْبَارِ يَرْمُوكَ أَوْ بَدْرًا



(١) «أيجاد العلوم» (٣٧/١).

(٢) واجمٌ: هادئٌ صامتٌ، وبأبهُ وعدد.

(٣) سرّيتُ: من السرى، وهو السيرُ ليلاً.

التأسي بالنبي ﷺ



النبي ﷺ - هو الأسوة الحسنة، الذي أمرنا الله بالتأسي به في أقواله، وأفعاله، وأحواله.

قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

فهذه الآية تؤكد اتباع النبي ﷺ - والافتداء به، واعتبار ذلك الأصل الذي يجب للإنسان أن ينطلق منه لتصحيح أخلاقه، وتقويم سلوكه.

وقد امتن الله على عبده وخليفه - ﷺ - بمكارم الأخلاق، وجمع فيه أشد الفاضل بتمامها، وأبعده عن كل نقص، ثم أثنى عليه، ونوه بذكر ما يتحلى به من مكارم الأخلاق.

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤).

ووصفته زوجته خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - بأصول مكارم الأخلاق عندما أخبرها بنزول الوحي عليه، ويقول: «لقد خشيت على نفسي». فقالت: «كلا، أبشر فوالله، لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(١).

(١) تقدم تخريجه.

ووصفته زوجته عائشة بنت الصديق - رضي الله عنها - بأنه كان خلقه القرآن.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: قُلْتُ: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -». .
قَالَتْ: «أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟». قُلْتُ: «بلى». قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ الْقُرْآنَ»^(١).

كَيْفَ تَرَقَى رُقِيكَ الْأَوْلِيَاءُ؟ ■■■ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلْتَهَا سَمَاءُ
إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ ■■■ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَسَاءُ
حَنْ جِذَعُ إِلَيْكَ وَهُوَ جَمَادُ ■■■ فَعَجِيبٌ أَنْ يَجْمُدَ الْأَحْيَاءُ!

فانظر إلى ما وصفته به نساؤه أقرب الناس إليه - ﷺ - من أصول
مكارم الأخلاق، وصفته خديجة وذلك قبل نزول القرآن، ووصفته عائشة بأنه
كان خلقه القرآن، نعم كان خلقه القرآن؛ لأنه يحتوي على جميع الفضائل التي
سار بها رسول الله - ﷺ - خير سيرة، وقام بها خير قيام.

يَا مُدْعِي حُبِّ أَحْمَدَ، لَا تُخَالِفْهُ ■■■ فَالْخُلْفُ يُحْرِمُ فِي دُنْيَا الْمُحِبِّينَا
أَرَاكَ تَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ شَرِيعَتِهِ ■■■ وَتَتْرِكُ الْبَعْضَ تَدْوِينًا وَتَهْوِينَا
خُذْهَا جَمِيعًا فَوْزًا تَفُوزِيهِ ■■■ وَالْأَطْرِيحَا وَأَسْلُكُ سَبِيلِ الشَّيَاطِينَا
فَعَلَيْنَا بِالتَّأْسِي بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَطَاعَتِهِ، وَإِدَامَةِ النَّظَرِ فِي
سِيرَتِهِ - ﷺ -^(٢)؛ لِنَقْتَطِفَ مِنْهَا مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَفِي ذَلِكَ عِزُّ الدُّنْيَا وَشَرَفُ
الْآخِرَةِ.

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) لعلّ أحسن كتاب في السيرة النبوية - من وجهة نظري - هو «راد المعاد في هدي خير العباد» للإمام
ابن قيم الجوزية، وقد طبع مؤخرًا طبعة رائعة في ستة مجلدات بتحقيق شعيب الأرنؤوط، فلو باع
المرء ما يفتنيه من ملبوس، ومركوب، وأثاث، واشترى هذا الكتاب - ما كان ذلك كثيرًا!.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«مَنْ أَرَادَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحِكْمَةَ الدُّنْيَا، وَعَدَلَ السِّيَرَةِ، وَالِاحْتِوَاءَ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ كُلِّهَا، وَاسْتِحْقَاقَ الْفَضَائِلِ بِأَسْرِهِا - فَلْيَقْتَدِ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَكَلَيْسْتَعْمَلْ أَخْلَاقَهُ وَسِيَرَهُ مَا أَمَكَنَهُ، أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَى الْإِتْسَاءِ بِهِ بِمَنِّهِ، آمِينَ»^(١).

إِذَا كَانَ هَذَا الْجَيْلُ اتِّبَاعَ نَهْجِهِ

وَقَدْ حَكَمُوا السَّادَاتِ^(٢) فِي الْبَدُوِّ وَالْحَضَرِ

فَقُلْ: كَيْفَ كَانَ الْمُصْطَفَى وَهُوَ رَمَزُهُمْ

مَعَ نُورِهِ لَا تُذْكَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ



(١) «الأخلاق والسير» (ص ٩١).

(٢) السَّادَاتِ: جمع سَيِّدٍ.

الدُّعَاءُ



الدُّعَاءُ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِنَيْلِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَمَنْ أَرَادَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ فَعَلَيْهِ
بِالدُّعَاءِ، فَهُوَ أَشْرَفُ وَأَكْرَمُ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ - سبحانه - .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ
مِنَ الدُّعَاءِ» (١) .

وَالْمُسْلِمُ دَعْوَتُهُ مُسْتَجَابَةٌ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ - تبارك وتعالى - بالدُّعَاءِ، وَوَعَدَ
بِالإِجَابَةِ .

قَالَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (سورة غافر: ٦٠) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو
اللَّهَ بِدَعْوَةٍ، لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قِطِيعَةٌ رَحِمٍ - إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ
يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، أَوْ يَدْخِرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا» . قالوا:
«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا نُكِّرَ» . قال: «اللَّهُ أَكْثَرُ» (٢) .

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمد (٣٦٢/٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٩٢/٢) .

(٢) رواه أحمد في «المسند»، وصححه الحاكم والذهبي، ووافقهما الألباني، انظر «شرح العقيدة الطحاوية» بتحقيقه (٦٥٦)، وقد رواه الترمذي (٣٦٠٤) من حديث أبي هريرة، إلا أنه قال في الخصلة الثالثة: «وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا» . وهو منكر بهذا اللفظ، قاله الألباني - وقد خرجه في «الضعيفة» (٤٤٨٣) - وذكر تحته ما صح منه كحديث أبي سعيد هذا .

عَمَّ الْإِحْتِجَالُ بِنَبِيِّ الطَّيْرِ وَالطَّنَجِ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةَ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قيل: «يا رسولَ الله، ما الاستعجال؟». قال: «يقول: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(١).

وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنْ رَبَّكُمْ حَبِيئٌ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٢)،^(٣).

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَثِيرَ الضَّرَاعَةِ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ حُسْنَ الْخَلْقِ، فَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الْاِسْتِفْتَاخِ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ، اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٤).

وورد أنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يدعو بهؤلاء: «اللَّهُمَّ، جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالْأَدْوَاءِ»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٧٣٥)، وهو عند البخاري بلفظ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي». والاستحسار: الإعياء والانقطاع عن الشيء، والمراد هنا أنه ينقطع عن الدعاء، ومنه قوله - تعالى -: «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَتَّخِذُونَ» (سورة الأنبياء: ١٩). أي لا يقطعون عنها. وفيه طلب دوام الدعاء، وعدم استبطاء الإجابة، وهذا لا ينافي الدعاء بتعجيل الطلب، فقد صح عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في حديث الاستسقاء قوله: «عَاجِلًا غَيْرَ رَائِبٍ»، صحيح رواه ابن ماجه (١٢٦٩). وقوله: «غير رائب»: أي غير آجل. والاستعجال المنهي عنه هو المذكور في الحديث، وهو قوله: «دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي».

(٢) صيفراً: فارغة.

(٣) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٧٥٧).

(٤) رواه مسلم (٧٧١).

(٥) رواه الترمذي (٣٥٩١)، والحاكم في «المستدرک» (١/٢٣٢)، وابن حبان في «الصحيح» (٢٤٢٢) عن عم زياد بن علاقة قُطْبَةَ بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٢٩٨).

فأكثر - أخي الحبيب - في كلِّ وقتٍ وحينٍ من الدُّعاءِ والضَّرَاعَةِ إلى ربِّكَ أنْ يَهْدِيكَ لأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، وَلَا سِيَّمَا فِي اللَّيْلِ؛ عَلَّكَ أَنْ تُصَادَفَ سَاعَةً الْإِجَابَةِ، وَالتِّي تَتَأَكَّدُ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ وَقَتِ التُّزُولِ الْإِلَهِيِّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً، لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ» (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «يُنزَلُ رَيْنًا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبَ لَهُ؟، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ؟، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» (٢).

قُلْتُ: يَا لَيْلُ، هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ ◻◻◻ عَامِرٌ بِالْحَدِيثِ وَالْأَسْرَارِ؟
قَالَ: لَمْ أَلْقَ فِي حَيَاتِي حَدِيثًا ◻◻◻ كَحَدِيثِ الْأَحْبَابِ فِي الْأَسْحَارِ

وَلِلَّهِ دَرُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْقَائِلُ:

أَتَهَزَأُ بِالِدُّعَاءِ وَتَزْدْرِيهِ ◻◻◻ وَمَا تَدْرِي بِمَا صَنَعَ الدُّعَاءُ؟
سِهَامُ اللَّيْلِ لَا تُخْطِي (٣)، وَلَكِنْ (٤)، لَهَا أَمَدٌ (٤)، وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءٌ (٥)

(١) رواه مسلم (٧٥٧).

(٢) رواه البخاري (١١٤٥) و (٦٣٢١) و (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٣) لا تخطي: لا تُخطئ، فَخُفِّتِ الْهَمْزَةُ تَسْهِلًا.

(٤) الأمد - بفتحين -: الغاية والنهاية، جمعه آماد.

(٥) «ديوان الشافعي» (ص ٢٣).

الْعَمَلُ الصَّالِحُ



الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ، وَالسَّبَبُ الْأَعْظَمُ لَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ، وَالْحُصُولُ عَلَى الْبَرَكَاتِ فِي الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَعْمَارِ، فَالْمُتَدِينُ تَدِينًا صَحِيحًا يَجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَيَجْتَنِبُ مَعَاصِيهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْعِبَادَاتِ وَمِنْهَا الْأَخْلَاقُ، بَلْ إِنَّ الْأَخْلَاقَ أَعْظَمَهَا أَجْرًا، وَأَيْسَرَهَا مِوَنَةً، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (سورة مريم: ٩٦). أَي: مَوَدَّةً فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ عَلَى قَوْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ:

«هَذَا مِنْ نِعْمَةِ عَلَى عِبَادِهِ، الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، أَنْ وَعَدَهُمْ أَنَّهُ يَجْعَلُ لَهُمْ وُدًّا، أَي: مَحَبَّةً وَوَدَادًا فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِي الْقُلُوبِ وُدٌّ، تَيْسَّرَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَالِدَعَوَاتِ، وَالْإِرْشَادِ، وَالْقَبُولِ، وَالْإِمَامَةِ مَا حَصَلَ، وَلِهَذَا وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، نَادَى جَبْرِيلَ: إِنِّي أَحَبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩) و (٦٠٤٠) و (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة.

وَأِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ وُدًّا؛ لِأَنَّهُمْ وُدُّهُ، فَوَدَّعَهُمْ إِلَى أَوْلِيَانِهِ وَأَحْبَابِهِ»^(١).

قَالَ الْأَنْبِيَاءُ:

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبَدِّلُكَ الدَّرَارِي ۝ ۝ وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ، وَإِنْ بَعُدْنَا

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا ۝ ۝ وَتَلْقَى الْبِرْفِيفِيهَا حَيْثُ شِئْنَا

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا^(٢) عَزِيزًا ۝ ۝ وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْنَا^(٣)

فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَبْعَثَانِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَهُمَا النَّظَامُ
الدَّاخِلِيُّ الَّذِي يَقُومُ أَخْلَاقَ الْمَرْءِ وَيُوجِّهُهَا.

وَإِنِّي لَيُثْنِينِي عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا^(٤) ۝ ۝ وَعَنْ شَتَمِ ذِي الْقُرْبَى - خَلَائِقُ أَرْبَعُ:

حَيَاءٌ، وَاسْلَامٌ، وَتَقْوَى، وَطَاعَةٌ ۝ ۝ لِرَبِّي، وَمَثَلِي مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ^(٥)

وَقَدْ تَجَدُّ الْمُتَدِينُ تَدِينًا صَحِيحًا - إِذَا كَانَ عَلَى عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ - لَا يَصْدُرُ مِنْهُ
مَا يَثْلُمُ مَرْوَعَتَهُ، وَيَشِينُ أَخْلَاقَهُ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْمُتَدِينُ إِذَا عَمَلَ
مَا يَحْرِمُ مَرْوَعَتَهُ اتَّجَهَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ، وَاسْتَعْرَبَ النَّاسُ أَنْ يَصْدُرَ ذَلِكَ مِنْهُ، أَمَّا
غَيْرُ الْمُتَدِينِ فَكَمَا قِيلَ: «الشَّيْءُ مِنْ مَعْدِنِهِ لَا يُسْتَعْرَبُ».

وَلِلَّهِ دَرَأِي الْعَتَاهِيَةِ الْقَائِلُ:

لَيْسَ دُنْيَا إِلَّا بَدِينٌ، وَلَيْسَ الدُّ ۝ ۝ بِنِ الْإِمَّاكَارِمِ الْأَخْلَاقِ^(٦)

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٠١).

(٢) مناكب الدنيا: أرجاؤها ونواحيها، والمفرد منكب.

(٣) «عشرون قصيدة في الزهد» (ص ٥٣).

(٤) الخنا: الفحش في النطق.

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(٦) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٩٩).

وقال ابن حزم - يرحمه الله - : « لا مُرُوءَةَ لِمَنْ لَا دِينَ لَهُ »^(١) .

وقال - أيضاً - : « ثِقُ بِالْمُتَدِينِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ دِينِكَ ، وَلَا تَثِقُ بِالْمُسْتَخِفِّ ، وَإِنْ أَظْهَرَ أَنَّهُ عَلَى دِينِكَ »^(٢) .

(١) «الأخلاق والسير» (ص ٨٠) .

(٢) المرجع السابق (ص ١٠٠) . وهنا فائدة تناسب هذا المقام :

سئل ابن عثيمين - يرحمه الله - : «يورد كثير من الناس أن أهل الغرب أحسن أخلاقاً منا في تعاملهم، ويبيعهم، وشرائعهم، بينما تجرد الغش، والكذب، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب متشراً بين صفوفنا - نحن المسلمين -؟!» .

فقال: «هم لا يفعلون ذلك لأنهم كاملو الأخلاق؛ لكن لأنهم أصحاب مادة، ويرون من أكبر الدعاية لتنمية أموالهم أن يُحسنوا المعاملة من أجل أن يجذبوا الأعداد الكبيرة، وإلا فهم كما وصفهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة: ٦) . ولا أظنُّ أحداً أصدق وصفاً من الله - عز وجل - للكافرين، فإنهم شرُّ البرية، وكيف يُرجى خيراً مقصوداً لذاته من قوم وصفهم الله بأنهم شرُّ البرية؟!، لا اعتقد أن ذلك يكون أبداً، لكن ما يوجد فيهم من الصدق، والبيان، والنصح في بعض المعاملات - إنما هو مقصودٌ لغيره عندهم، وهو الحصول على المادة والكسب، وإلا فمن رأى ظلمهم، وغشهم، واستطالتهم على الخلق في مواطن كثيرة - عرف مصداق قوله - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ . وأما بالنسبة لما وقع من كثير من المسلمين من الغش والكذب والحياثة في المعاملات، فإن هؤلاء المسلمين نقصوا من إسلامهم وإيمانهم بقدر ما خالفوا الشريعة فيه من هذه المعاملات» . إلى أن قال: «فلابد أن نبيّن للناس أن من كمال الدين كمال الخلق، كما صحَّ عن النبي ﷺ - أنه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً» . وعلى هذا فكلُّ من كان ناقص الخلق فهو ناقص الدين؛ فكمال الدين بكمال الخلق؛ ولذلك فإن تأثير كمال الخلق على غيره من جلبه إلى الإسلام وإلى الدين - أكبر من تأثير ذي الديانة السيئ الخلق، فإذا وفق من كان قوياً في العبادة إلى كمال الخلق، كان ذلك أحسن وأكمل» . عن كتاب «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص ٥٠-٥٢) باختصار .

وقصد ابن حزم - يرحمه الله - أن هناك أمماً عندها قيم موروثه، تُغذيها بقايا الخير من دينها، دلَّ على ذلك عربُ الجاهلية، كانوا من أحسن الأمم أخلاقاً؛ لأنَّ عندهم بعض مكارم الأخلاق، وهي التي ورثوها من شريعة إبراهيم - عليه السلام -، وكانوا قد ضلُّوا بالكفر عن كثير منها، فبعث الله نبياً محمداً - عليه السلام -؛ ليتمم محاسنها، ويبيِّن ما ضلُّوا عنه، وما قضى به في شرعه، فكان في مُسهلِّ دعوته إلى التوحيد يأمر بمكارم الأخلاق.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - عليه السلام - أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم - وفي رواية: صالح - الأخلاق»^(١).

وقال أبو ذرٍّ لأخيه لما بلغه مبعثُ النبي - عليه السلام -: «اركبْ إلى هذا الوادي، واسمع من قوله». فرجع فقال: «رأيتُهُ يأمر بمكارم الأخلاق»^(٢).

وَإِذَا بَحَثْتَ عَنِ التَّقِيِّ وَجَدْتَهُ ■ ■ ■ رَجُلًا يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفِعَالٍ
وَإِذَا اتَّقَى اللَّهَ أَمْرًا وَأَطَاعَهُ ■ ■ ■ فَيَدَاهُ بَيْنَ مَكَارِمٍ وَمَعَالٍ
وَعَلَى التَّقِيِّ - إِذَا تَرَأَسَخَ فِي التَّقَى - ■ ■ ■ تَاجَانٍ تَاجُ سَكِينَةٍ وَجَمَالٍ
وَإِذَا تَنَاسَبَتِ الرُّجَالُ فَمَا أَرَى ■ ■ ■ نَسَبًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ^(٣)



(١) رواه أحمد في «المسند» (٣١٨/٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم في «المستدرک» (٦١٣٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٤٩/١)، و«الصَّحِيحَةُ» (٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٢٢) و(٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤).

(٣) «روضة العقلاء» (ص ٢٩).

الرَّفَقَةُ الصَّالِحَةُ



الرَّفَقَةُ الصَّالِحَةُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّبْعَ لَصٌّ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَمَنْ كَانَ جَلِيسُهُ صَالِحًا، اسْتَفَادَ مِنْهُ صَالِحًا وَأَخْلَاقًا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ -: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ^(١)، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ^(٢)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ^(٣)، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً^(٤)».

وقوله - ﷺ -: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ^(٥)؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ^(٦)». ومعنى الحديث أن الإنسان في الدين والأخلاق على قدر من يصاحب، فلينظر من يصاحب، فإن صاحب الصالحين صار منهم، وإن صاحب سيئهم صار مثلهم، كما قيل:

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ◻◻◻ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَسِدِي
وَصَاحِبِ أَوْلِي التَّقْوَى تَنَلُ مِنْ تَقَاهُمْ ◻◻◻ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى^(٧)

(١) الكبير - بكسر الكاف - : زق ينفخ فيه الحداد.

(٢) يحذيك : يعطيك بدون بيع.

(٣) تبتاع منه : تشتري منه.

(٤) رواه البخاري (٢١٠١) و (٥٥٣٤)، ومسلم - واللفظ له - (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري.

(٥) «الخليل»: هو الذي أحبك، ونجبه حباً جمًّا، حتى يتخلل حبه جميع البدن، كما قال بشار:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلِّكَ الرُّوحَ مِنِّي ◻◻◻ وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

(٦) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»

(١/٣٥٤٥)، و«الصحيححة» (٩٢٧).

(٧) «الآداب الشرعية» (٤/٢٢٥).

وقديماً قيل: «قل لي: من تصاحب؟، أخيرك من أنت».

وفي ذلك يقول الشاعر:

انت في الناس ثمة — اس — بالذئبي اختت — رت خليا
فاصحب الاخيار تغل — اس — وتغل ذكرا جَمِيلاً^(١)

فَتَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ أَثَرَ الصَّدِيقِ فِي صَدِيقِهِ خَطِيرٌ وَكَبِيرٌ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لِرِزَامًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْتَقِيَ أَصْدِقَاءَهُ، وَأَنْ يَخْتَبِرَ مَعَدَنَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَصَالَتِهِ، فَلَا يُصَاحِبُ إِلَّا قُرْنَاءَ الْخَيْرِ؛ لِأَنََّّهُمْ يُعِينُونَهُ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، وَحِفْظِ الْحُقُوقِ، وَيُبْعَدُونَهُ عَنِ السُّوءِ، وَاقْتِرَافِ الْآثَامِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُمْ يَقُودُونَهُ إِلَى النَّجَاحِ فِي الدُّنْيَا، وَالْفَلَاحِ فِي الْآخِرَى، فَهُوَ - وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُمْ - وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وَصَدَاقَتِهِ لَهُمْ.

فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: 'جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلوات الله عليه وسلم -، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه وسلم -: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٢).

أَمَّا قُرْنَاءُ السُّوءِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ وَبَالًا عَلَيْهِ، وَهَلْ مَنَّعَ أَبَا طَالِبٍ مِنَ التَّلَفُّظِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي بِهَا نَجَاتُهُ وَفَلَاحُهُ - إِلَّا الرُّفْقَةَ السَّيِّئَةَ؟!.

إِنَّ رُفْقَاءَ السُّوءِ يَضْعُونَ رَفِيقَهُمْ - دَائِمًا - عَلَى شَفَا^(٣) جُرْفِ^(٤) هَارٍ، وَسُرْعَانَ مَا يَنْهَارُ بِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ! - فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَقْرَعُ حِينَهَا سِنَّ النَّدَمِ، وَوَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْقَائِلُ: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ

(١) «نفع الطيب» (٦٧/٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٦٨) و (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٣) شفا كل شيء: حرفه وطرفه.

(٤) الجرف - بضم الراء وسكونها - : ما تجرقت السؤل وأكلته من الأرض.

الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٧-٢٩﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

وهناك ستُّ صفاتٍ ذكَّرها أهلُ العِلْمِ، يَنْبَغِي تَوَافُرُهَا فِيمَنْ تُؤَثِّرُ صُحْبَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ:

أولها - أن يكون مؤمناً، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه سمع رسولَ الله - صلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا ياكل طعامك إلا تقي»^(١).

ثانيها - أن يكون من ذوي العقول الرَّاجِحَةِ، فالعقلُ رأسُ المالِ، ولا خيرَ في صحبةِ الأحمقِ. لأنَّ الأحمقَ يُوردُ نفسهُ وغيرهَ موأطنَ الهلاكِ والفسادِ، ويركَبُ رأسَه، ولا ينصاعُ للرأيِ السَّديدِ، ويغضبُ لأنفهِ الأسبابِ، وشرُّ الأصدقاءِ مَنْ تكلفَ لك، وأخرجك إلى اعتذارِ، وألجأك إلى مداراة.

قال الشاعر:

لا تَيَاسَنَّ مِنَ اللَّبِيبِ^(٢) وَإِنْ جَفَا^(٣) واقطع حبالك من حبالِ الأحمقِ

فعداوة من عاقل متجملٍ. أولى وأسلم من صداقة أخرق^(٤)

قال ابن القيم - يرحمه الله - في سياق كلامه عمَّن مخالطته كالداءِ على اختلافِ مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه -:

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٤١/٢).

(٢) اللبیب: العاقل، والجمع الباءُ.

(٣) جفا: هجر.

(٤) «جواهر الأدب» (ص ٧٢٣).

«وَمِنْهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ حُمَى الرُّوحِ، وَهُوَ الثَّقِيلُ الْبَغِيضُ الْعَقْلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيهِدَكَ، وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يُنصِتَ فَيَسْتَفِيدَ مِنْكَ، وَلَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ فَيَضَعُهَا فِي مَنْزِلَتِهَا، بَلْ إِنْ تَكَلَّمَ فَكَلَامُهُ كَالْعَصَا تَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِ السَّامِعِينَ مَعَ إِعْجَابِهِ بِكَلَامِهِ، وَفَرَحِهِ بِهِ، فَهُوَ يُحَدِّثُ مِنْ فِيهِ كَلِّمَا تَحَدَّثَ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ مِسْكٌ يَطِيبُ بِهِ الْمَجْلِسُ، وَإِنْ سَكَتَ فَاتَّقِلُ مِنْ نِصْفِ الرَّحَى^(١) الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُطَاقُ حَمْلُهَا، وَلَا جَرُّهَا عَلَى الْأَرْضِ».

ويذكر عن الشافعي - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ: «مَا جَلَسَ إِلَى جَانِبِي ثَقِيلٌ إِلَّا وَجَدْتُ الْجَانِبَ الَّذِي هُوَ فِيهِ أَنْزَلَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطْبَأُ بِهِ ◻◻◻ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا^(٣)

ثالثها - أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْخُلُقِ، طَيِّبَ السَّمْتِ^(٤)، فَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ، أَوِ الْكَذِبُ، أَوِ الْبُخْلُ، أَوِ الْجُبْنُ، أَوِ اطَّاعَ هَوَاهُ، وَلَمْ يَتَهَذَّبْ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ؛ لِأَنَّ أَخْلَاقَهُ سُرْعَانَ مَا تَنْتَقِلُ إِلَى مَنْ يُصَاحِبُهُ، فَلِلْعَدْوَى قَانُونُهَا الَّذِي يَسْرِي فِي الْأَخْلَاقِ كَمَا يَسْرِي فِي الْأَجْسَامِ.

(١) الرَّحَى: حجر الطَّاحون، جمعها أَرْحَاءٌ، وَرَحَى.

(٢) «التفسير القيم» (ص ٦٢٩).

(٣) «جواهر الأدب» (ص ٧٢٣).

(٤) السَّمْت: الهيئة والمظهر.

قال صالح بن عبد القدوس:

واحذر مؤاخاة الدني؛ فإنه ٥ ٥ ٥ يهدي كما يهدي الصحيح الأجرِبُ
واختر صديقك، واصطف فيه تفاخراً ٥ ٥ ٥ إن القرين إلى المقارن ينسبُ
ودع الكذوب، ولا يكن لك صاحباً ٥ ٥ ٥ إن الكذوب لبئس خلاً^(١) يصحب^(٢)

وقال الشافعي: يرحمه الله .:

صاف الكرام، فخير من صافيته ٥ ٥ ٥ من كان ذا أدب، وكان ظريفاً
واحذر مؤاخاة اللئيم؛ فإنه ٥ ٥ ٥ يبدي القبيح، وينكر المعروف^(٣)

وقال: أيضاً .:

اجعل قرينك من رضيت فعاله ٥ ٥ ٥ واحذر مقارنة اللئيم الشائن
كم من قرين شائن لقرينه^(٤) ٥ ٥ ٥ ومهجن^(٥) منه لكل محاسن^(٦)

رابعها - ألا يكون حريصاً على الدنيا؛ لأنَّ صُحبة الحريص على الدنيا تُورثُ
الحرص؛ لأنَّ الطباعَ مَجْبُولَةٌ على التَّشَبُّه والاقْتِدَاء، فَالطَّبَعُ - كَمَا سَبَقَ - لَصٌّ
يَسْرِقُ مِنَ الطَّبَعِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَسَرِقَتُهُ لِلشَّرِّ أَكْثَرُ وَأَسْرَعُ مِنْ سَرِقَتِهِ لِلخَيْرِ، أَلَا
تَرَى - مِثْلًا - أَنَّ غَيْرَ الْمُدَخِّنِ سُرْعَانَ مَا تَنْتَقِلُ إِلَيْهِ عَدْوَى التَّدخينِ مِنَ الْمُصَابِ بِهَا
إِذَا جَالَسَهُ، وَيَنْدُرُ أَنْ يَقَعَ الْعَكْسُ.

(١) الخِلُّ - بالكسر - : الصديق.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٦٩).

(٣) المرجع السابق (ص ٧١٩).

(٤) شائن: اسم فاعل من شَانَ يَشِينُ، وشائن لقرينه: أي يحطُّ من قدر صاحبه.

(٥) مهجن: مُقْبِح.

(٦) «جواهر الأدب» (ص ٧٢٠).

فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتْرُكَ مُجَالَسَةَ طُلَّابِ الدُّنْيَا، وَيُجَالِسَ الزُّهَّادَ وَالْعُلَمَاءَ، فَيَهْوُلَاءِ مُخَالَطَتَهُمْ - كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - كَالغِذَاءِ .

قَالَ حَكِيمُ لابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ، وَزَاحِمِهِمْ بِرُكْبَتِكَ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَحْيَا بِالْحِكْمَةِ، كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ» .

خَامِسُهَا - أَنْ يَكُونَ عَدْلًا غَيْرَ فَاسِقٍ؛ لِثَلَاثِ يَجْرُكُ إِلَى فِسْقِهِ، فَقَدْ قِيلَ: «وَدَّ صَاحِبُ الْفِسْقِ وَالْمَعْصِيَةِ لَوْ فَسَقَ النَّاسُ جَمِيعًا؛ لِثَلَاثِ يُصْبِحُ نَشَازًا بَيْنَهُمْ» .

وَلِأَنَّ صُحْبَةَ الْفَاسِقِ تُهَوِّنُ أَمْرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى النَّفْسِ، وَتُبْطِلُ نُفْرَةَ الْقَلْبِ عَنْهَا، وَمَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُ^(١)، وَلَا يُوثِقُ بِصِدَاقَتِهِ؛ لِأَنَّهُ يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْأَغْرَاضِ وَالْأَحْوَالِ .

سَادِسُهَا - أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُبْتَدِعٍ؛ لِثَلَاثِ يَلْقِي عَلَيْكَ الشُّبُهَةَ، فَيَتَشَرَّبُهَا قَلْبُكَ، وَالْقُلُوبُ - كَمَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ - ضَعِيفَةٌ، وَالشُّبُهَةُ خَطَافَةٌ .

وَهَذِهِ الصِّفَةُ مِنْ أَهَمِّ الصِّفَاتِ فِي الصَّدِيقِ؛ فَإِنَّ فِي مُخَالَطَةِ الْمُبْتَدِعِ الْهَلْكَ كُلَّهُ .

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - بِرَحْمَةِ اللَّهِ - فِيمَنْ مُخَالَطَتُهُ الْهَلْكَ كُلَّهُ: «وَمُخَالَطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ السُّمِّ، فَإِنَّ اتَّفَقَ لِأَكْلِهِ تَرِيَاقٌ^(٢)، وَإِلَّا فَأَحْسَنَ اللَّهُ فِيهِ الْعِزَاءَ، وَمَا أَكْثَرَ هَذَا الضَّرْبَ فِي النَّاسِ - لَا كَثَرَهُمْ اللَّهُ! - وَهُمْ أَهْلُ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَةِ، الصَّادُونَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، فَيَجْعَلُونَ الْبِدْعَةَ سُنَّةً، وَالسُّنَّةَ بَدْعَةً، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا! .

(١) الغائلة: الشرُّ والدَّاهية، جمعها غَوَائِلُ .

(٢) الترياقُ - بكر التاء - : دواءُ السُّمومِ .

إِنْ جَرَّدَتِ التَّوْحِيدَ بَيْنَهُمْ قَالُوا: تَنَقَّصْتَ جَنَابَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَإِنْ جَرَّدَتِ الْمَتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالُوا: أَهْدَرْتَ الْأَئِمَّةَ الْمُتَبَوِّعِينَ، وَإِنْ وَصَفْتَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ - قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُشَبَّهِينَ، وَإِنْ أَمَرْتَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتَ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمُنْكَرِ - قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُفْتُونِينَ، وَإِنْ اتَّبَعْتَ السُّنَّةَ، وَتَرَكْتَ مَا خَالَفَهَا، قَالُوا: أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ الْمُضِلِّينَ، وَإِنْ انْقَطَعْتَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى -، وَخَلَيْتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيفَةِ الدُّنْيَا - قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُلْبَسِينَ، وَإِنْ تَرَكْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَاتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، فَأَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ التَّمَّاسُ مُرَضَاةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَرَسُولِهِ بِأَغْضَابِهِمْ، وَالْأُ تَشْتَغَلُ بِأَعْتَابِهِمْ، وَلَا بَاسْتِعْتَابِهِمْ، وَلَا تِبَالِي بِذَمِّهِمْ وَلَا بُغْضِهِمْ؛ فَإِنَّهُ عَيْنُ كَمَالِكَ، كَمَا قَالَ:

وَإِذَا أَنْتَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ ◻◻◻ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلٌ

وقال آخر:

وقد زادني حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي ◻◻◻ بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرِيءٍ غَيْرِ طَائِلٍ ^(١) ^(٢)

فَعَلَيْكَ - أَخِي الْحَبِيبِ - أَنْ تَرَاعِيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ السَّتِّ فِيمَنْ تَتَّخِذُهُ صَدِيقًا، وَلَا تَسَاهَلْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

(١) رجل غير طائل: حقيق خسيس.

(٢) «التفسير القيم» (ص ٦٣٠ - ٦٣١).

عَالِ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّرَانِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«لَا تَصْحَبْ إِلَّا أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ تَرْتَفِقُ بِهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاكَ، أَوْ رَجُلٌ تَزِيدُ مَعَهُ، وَتَنْتَفِعُ بِهِ فِي أَمْرِ آخِرَتِكَ، وَالِاسْتِغَالُ بِغَيْرِ هَذَيْنِ حُمٌّ كَبِيرٌ».

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَضِّعِ :

«عَلَى الْعَاقِلِ: الْأَى يُخَادِنُ^(١)، وَلَا يُصَاحِبُ، وَلَا يُجَاوِرَ مِنَ النَّاسِ مَا اسْتَطَاعَ، إِلَّا ذَا فَضْلٍ فِي الْعِلْمِ، وَالِدِّينِ، وَالْأَخْلَاقِ؛ فَيَأْخُذُ عَنْهُ، أَوْ مُوَافِقًا لَهُ عَلَى إِصْلَاحِ ذَلِكَ؛ فَيُؤَيِّدُ مَا عِنْدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلٌ؛ فَإِنَّ الْخِصَالَ الصَّالِحَةَ مِنَ الْبِرِّ^(٢) لَا تَحْيَا، وَلَا تَنَمَّى إِلَّا بِالْمُؤَافِقِينَ وَالْمُؤَيِّدِينَ، وَلَيْسَ لَذِي الْفَضْلِ قَرِيبٌ وَلَا حَمِيمٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِمَّنْ وَافَقَهُ عَلَى صَالِحِ الْخِصَالِ، فَزَادَهُ وَثَبَّتَهُ؛ وَلِذَلِكَ زَعَمَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ أَنَّ صُحْبَةَ بَلِيدٍ نَشَأَ مَعَ الْعُلَمَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ صُحْبَةِ لَيْبٍ نَشَأَ مَعَ الْجُهَّالِ»^(٣).

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«مَنْ طَلَبَ الْفَضَائِلَ لَمْ يُسَآيِرْ إِلَّا أَهْلَهَا، وَلَمْ يُرَافِقْ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ إِلَّا أَكْرَمَ صَدِيقٍ مِنْ أَهْلِ الْمَوَاسَاةِ، وَالْبِرِّ، وَالصِّدْقِ، وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالْوَفَاءِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْحَلِيمِ، وَصَفَاءِ الضَّمَائِرِ، وَصِحَّةِ الْمَوَدَّةِ. وَمَنْ طَلَبَ الْجَاهَ، وَالْمَالَ، وَاللَّذَاتِ، لَمْ يُسَآيِرْ إِلَّا أَمْثَالَ الْكِلَابِ الْكَلْبَةِ^(٤)، وَالشَّعَالِبِ الْخَلْبَةِ^(٥)، وَلَمْ يُرَافِقْ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ إِلَّا كُلَّ عَدُوٍّ فِي الْمَعْتَقِدِ، خَبِيثِ الطَّبِيعَةِ»^(٦).

(١) يُخَادِنُ: يُصَادِقُ.

(٢) الْبِرُّ: الطَّاعَةُ، وَالصَّلَاحُ، وَالصِّدْقُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْأَخْلَاقُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٥٣) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ.

(٣) «الْأَدَبُ الصَّغِيرُ» (ص ٢٠ - ٢١).

(٤) الْكِلَابُ الْكَلْبَةُ: هِيَ الَّتِي أُصِيبَتْ بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَهِيَ السُّعَارُ.

(٥) الشَّعَالِبُ الْخَلْبَةُ: هِيَ الْمَخَادَعَةُ الَّتِي تَسْلُكُ سُلُوكَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ؛ لِتَظْفَرُ بِحَاجَتِهَا.

(٦) «الْأَخْلَاقُ وَالسِّرُّ» (ص ٩٢).

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ أَمِينُ الدُّيْنِ:

عَلَيْكَ بِأَرْيَابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا ◻ ◻ ◻ جَلِيْسًا لِأَرْيَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَأِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ ◻ ◻ ◻ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلَاكَ، وَتُحْقَرَا

ولعلَّ مِنْ أَجْمَلِ الْوَصَايَا فِي اخْتِيَارِ الرَّفِيقِ الصَّالِحِ وَصِيَّةَ عَلْقَمَةَ لِابْنِهِ،
حَيْثُ قَالَ فِيهَا:

«يَا بَنِيَّ، إِذَا عَرَضَتْ لَكَ إِلَى صُحْبَةِ الرَّجَالِ حَاجَةٌ، فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا خَدَمْتُهُ
صَانَكَ^(١)، وَإِنْ صَحِبْتَهُ زَانَكَ^(٢)، وَإِنْ قَعَدْتَ بِكَ مُؤْنَةٌ^(٣) مَا نَكَ، اصْحَبْ مَنْ إِذَا
مَدَدْتَ يَدَكَ بِخَيْرٍ مَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً سَدَّهَا،
اصْحَبْ مَنْ إِذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَ ابْتَدَاكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ نَازِلَةٌ^(٤)
وَأَسَاكَ، اصْحَبْ مَنْ إِذَا قُلْتَ صَدَقَ قَوْلُكَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَمْرًا آزَرَكَ، وَإِنْ
تَنَازَعْتُمَا أَتَرَكَ».

ثُمَّ قَالَ:

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكَ ◻ ◻ ◻ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَبُّ الزَّمَانِ^(٥) صَدَعَكَ^(٦) ◻ ◻ ◻ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ

(١) صَانَكَ : حفظك .

(٢) زَانَكَ : احترمتك وقدرك .

(٣) مُؤْنَةٌ : حاجة ، وتجمعُ على مُؤْنٍ كَحُجَّةٍ وَحُجَجٍ .

(٤) نَازِلَةٌ : مُصِيبَةٌ ، وتجمعُ على نَوَازِلٍ .

(٥) رَبُّ الزَّمَانِ : حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَمَصَائِبُهُ .

(٦) التَّصْدَعُ : التَّشَقُّقُ ، والمراد تأثير حوادث الدهر وإصابتها للمرء .

المُحَاسِبَةُ



لَا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ مُحَاسِبَةٍ نَفْسِهِ، وَإِقَافِهَا عِنْدَ عِيُوبِهَا، فَإِنْ وَقَعَتْ فِي سَيِّئِ
الْأَخْلَاقِ اسْتَدْرَكَهَا، وَتَعَاهَدَهَا، وَحَمَلَهَا عَلَى جَمِيلِ الْأَخْلَاقِ، وَأَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ
وَقْتَ اخْتِلَافِهِ بِنَفْسِهِ فِي اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ أَرْوَحُ لِلخَاطِرِ، وَأَجْمَعُ لِلْفِكْرِ.
إِنَّ زَكَاةَ النَّفْسِ وَطَهَارَتَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسِبَتِهَا، فَلَا تَزْكُو، وَلَا تَطْهَرُ،
وَلَا تَصْلُحُ الْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسِبَتِهَا.

قَالَ عَبْدُهُ مُحَمَّدُ الْعَمَادُ:

وَحَاسِبِ النَّفْسِ تَطْفُرُ بِاسْتِقَامَتِهَا ◻◻◻ وَعَدْلِ السَّيْرِ قَبْلَ الْعَضِّ وَالنَّدَمِ

وَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَصْدُقَ فِي مُحَاسِبَةِ نَفْسِهِ، وَلَا يَلْتَمِسَ لَهَا الْأَعْدَارَ، بَلْ عَلَيْهِ
أَنْ يُسِيءَ الظَّنَّ بِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُمَكِّنُهُ مِنْ إِمَاطَةِ اللَّثَامِ عَنْ مَسَاوِيهَا وَعِيُوبِهَا.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«وَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ فَإِنَّمَا احْتِجَاجٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ يَمْنَعُ مِنْ
كَمَالِ التَّفْتِيشِ، وَيُلْبَسُ عَلَيْهِ، فَيَرَى الْمَسَاوِيَّ مَحَاسِنَ، وَالْعِيُوبَ كَمَالًا، فَإِنَّ
الْمُحِبَّ يَرَى مَسَاوِيَّ مَحْبُوبِهِ وَعِيُوبَهُ كَذَلِكَ.

فَعَيْنُ الرُّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ◻◻◻ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

وَلَا يُسِيءُ الظَّنُّ بِنَفْسِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَمَنْ أَحْسَنَ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ»^(١).

والمراءُ حظه من المحاسبة بقدر حظه من نور الحكمة الذي نور الله به قلوب أتباع رسوله - صلوات الله وسلامه عليهم - .

يقول ابن القيّم - ايضاً - :

«نور الحكمة هاهنا هو العلم، الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضرار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، ويصبر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم»^(٢).

ومن جميل ما قيل في المحاسبة قول عمر بن الخطاب - رضى عنه - :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم

القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»^(٣).

ويروى عن ميمون بن مهران قوله:

«لا يكون العبد تقياً حتى يحاسب نفسه، كما يحاسب شريكه، من أين مطعمه وملبسه؟»^(٤).

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص ١٧٧-١٧٨).

(٢) المرجع السابق (١/١٧٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٤٥٩) موقوفاً على عمر، انظر تحفة الأحوذى (٧/١٥٥).

(٤) سنن الترمذي (٢٤٥٩).

وَمُحَاسَبَةُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْبِرَاءَةِ مِنَ النِّفَاقِ، وَالتَّرَقُّي فِي مَعَالِي الْأَخْلَاقِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ التُّيْمِيُّ:

«مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا»^(١).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:

«أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»^(٢).

وتعليقاً عليه نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال - يرحمهم الله - قوله:

«إِنَّهُمْ خَافُوا؛ لِأَنَّهُمْ طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، حَتَّى رَأَوْا مِنَ التَّغْيِيرِ مَا لَمْ يَعْهَدُوهُ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِنْكَارِهِ، فَخَافُوا أَنْ يَكُونُوا دَاهِنُوا بِالسُّكُوتِ»^(٣).

قَالَ الشَّاعِرُ:

هِيَ النَّفْسُ، إِنْ أَنْتَ سَامَحْتَهَا ۝ ۝ رَمَتْ بِكَ أَقْصَى مَهَاوِي الْخَدِيعَةِ

فَإِنْ شِئْتَ فَوْزًا فَنَاقِضُ هَوَاهَا ۝ ۝ وَإِنْ وَاصَلْتِكَ أَجْزَهَا الْقَطِيعَةَ^(٤)

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ:

«لِيَحْسُنَ تَعَاهُدُكَ لِنَفْسِكَ، بِمَا تَكُونُ بِهِ لِلْخَيْرِ أَهْلًا؛ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، أَتَاكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ، كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ السَّيْلَ إِلَى الْحُدُورَةِ»^(٥) ^(٦).

(١) رواه البخاري في «الإيمان»، بابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

(٢) التخریج السابق.

(٣) «فتح الباري» (١/١١١).

(٤) «نفع الطيب» (٧/٣٦٢).

(٥) الحُدُورَةُ: المنخفض من الأرض.

(٦) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص ٢٠).

وقال - ايضاً :-

«وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُحْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ مَسَاوِيهَا فِي الدِّينِ، وَفِي الْأَخْلَاقِ، وَفِي الْأَدَابِ، فَيَجْمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي صَدْرِهِ، أَوْ فِي كِتَابٍ، ثُمَّ يُكْثِرَ عَرْضَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُكَلِّفَهَا إِصْلَاحَهُ، وَيُوظِّفَ ذَلِكَ عَلَيْهَا تَوْظِيفًا مِنْ إِصْلَاحِ الْخَلَّةِ، وَالْحَلَّتَيْنِ، وَالْحِلَالِ فِي الْيَوْمِ، أَوْ الْجُمُعَةِ، أَوْ الشَّهْرِ.

فكُلَّمَا أَصْلَحَ شَيْئًا مَحَاهُ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى مَحْوٍ اسْتَبَشَرَ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى ثَابِتٍ اكَتَابَ»^(١).

وأخيراً يقول أبو الفتح البستي:

يا خَادِمَ الْجِسْمِ، كَمْ تَسْعَى لخدمته؟ ■ ■ ■ أَتَطْلُبُ الرِّيحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانٌ؟
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ، وَاسْتَكْمِلْ فضائلها ■ ■ ■ فأنت بالنفس - لا بالجسم - إنسان^(٢)



(١) المرجع السابق.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٧٠).

المُجَاهِدَةُ



قَدْ مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ إِذَا لَمْ يُطَبَّعْ عَلَيْهَا الْمَرْءُ نَالَهَا بِالْمُجَاهِدَةِ، فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ بِصِدْقٍ، فَإِنَّهُ يَحْضُلُ لَهُ - مِنَ الْهِدَايَةِ، وَالْمَعُونَةِ، وَالتَّوْفِيقِ عَلَى تَحْصِيلِ مَطْلُوبِهِ - أُمُورٌ إِلَهِيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنِ مَدْرَكِ اجْتِهَادِهِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

وَمِنْ دُرَرِ الْإِمَامِ ابْنِ عَقِيلِ الْحَنْبَلِيِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - قَوْلُهُ:

«لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَرَكَاتِ مُجَاهِدَةِ النَّفْسِ فِي حَقِّهِ اللَّهِ، وَالْإِنْتِهَاءِ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ يَعْطَفُ عَلَيْكَ، فَيُسَخِّرُهَا لَكَ، وَيُطَوِّعُهَا لِأَمْرِكَ، حَتَّى تَنْقَادَ لَكَ، وَيُسْقِطُ عَنْكَ مَثُونَةَ النَّزَاعِ لَهَا وَالْمُجَاهِدَةَ، حَتَّى تَصِيرَ طَوْعًا يَدُكَ وَأَمْرًا - تَعَافِ الْمُسْتَطَابَ عِنْدَهَا، إِذَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ خَبِيثًا، وَتَوْثُرُ الْعَمَلَ لِلَّهِ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهَا بِالْأَمْسِ كَرِيهًا، وَتَسْتَخْفُهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهَا ثَقِيلًا، حَتَّى تَصِيرَ رِقًا لَكَ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَسْتَرْقُكَ»^(١).

وَمُجَاهِدَةُ النَّفْسِ يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَرَّهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا عَزِيزَةٌ عَلَى

الْكَسْلَانِ.

(١) «كتاب الفنون» (٢/٤٩٦).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ حَزْمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ رِيَاضَةَ النَّفْسِ أَصْعَبُ مِنْ رِيَاضَةِ الْأَسَدِ؛ لِأَنَّ الْأَسَدَ إِذَا سُجِنَتْ فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تَتَّخِذُ لَهَا الْمَلُوكُ، أُمِنَ مِنْ شَرِّهَا، وَالنَّفْسَ - وَإِنْ سُجِنَتْ -، لَمْ يُؤْمِنْ شَرُّهَا»^(١).

وَقَالَ - أَيْضًا :-

«كَانَتْ فِي عُبُوبٍ، فَلَمْ أَزَلْ - بِالرِّيَاضَةِ، وَاطَّلَاعِي عَلَى مَا قَالَتْ الْأَنْبِيَاءُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، وَالْأَفْضَلُ مِنَ الْحُكَمَاءِ الْمَتَأَخِّرِينَ وَالْمَتَقَدِّمِينَ فِي الْأَخْلَاقِ، وَفِي آدَابِ النَّفْسِ - أُعَانِي مُدَاوَاتِهَا، حَتَّى أَعَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى أَكْثَرِ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِهِ وَمَنِّهِ»^(٢).

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامِ الطَّائِي:

فَلَمْ أَجِدِ الْأَخْلَاقَ إِلَّا تَخْلُقًا ◦ ◦ ◦ وَلَمْ أَجِدِ الْأَفْضَالَ إِلَّا تَقْضُلًا^(٣)



(١) «الأخلاق والسير» (ص ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (ص ١٠٧).

هنا فائدة: قال العلامة ابن قدامة المقدسي: «وقد زعم من غلبت عليه البطالة، فاستقل الرياضة أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر!».

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، كيف تنكر تغيير الأخلاق، ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي، وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستعصبة؟! «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٥٢).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٧٢).

الاستفادة من الآخرين



اللييبُ يستفيدُ من كُلِّ مَنْ يُخالطُهُ، سَوَاءً أَكَانَ نَاقِصاً أَمْ كَامِلاً، وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ وَالْحُكَمَاءِ يَتَعَلَّمُونَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْمُوصُوفِينَ بِأُضْدَادِهَا! .
قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْوَةَ، وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْمُوصُوفِينَ بِأُضْدَادِهَا، كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْأَكْبَارِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ، فَطَسَّ، غَلِيظٌ، لَا يُنَاسِبُهُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أُدْرَسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ! .
وَهَذَا يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي ضِدِّ أَخْلَاقِهِ، وَيَكُونُ بِتَمْرِينِ النَّفْسِ عَلَى مُصَاحَبَتِهِ، وَمُعَاشَرَتِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ»^(١) .
قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الرُّجَالَ إِذَا اخْتَبَرْتَ طِبَاعَهُمْ ◻◻◻ أَلْفَيْتَهُمْ شَتَّى عَلَى الْأَخْبَارِ
لَا تَعَجَلَنَّ إِلَى شَرِيعةٍ مَوْرِدٍ ◻◻◻ حَتَّى تَبَيَّنَ خُطَّةَ الْإِصْدَارِ^(٢)

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«لِكُلِّ شَيْءٍ فَائِدَةٌ، وَلَقَدْ انْتَفَعْتُ بِمَحْكُ أَهْلِ الْجَهْلِ»^(٣) مِنْفَعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٣٥).

(٢) «عيون الأخبار» (٣/١٧٢).

(٣) أي: بالتعرض لشرهم والتمرس بهم.

أَنَّهُ تَوَقَّدَ طَبْعِي، وَاحْتَدَمَ خَاطِرِي، وَحَمِيَ فِكْرِي، وَتَهَيَّجَ نَشَاطِي، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى تَوَالِيْفَ لِي عَظِيْمَةَ الْمُنْفَعَةِ، وَلَوْلَا اسْتِثَارُهُمْ سَاكِنِي، وَاقْتِدَاحُهُمْ كَامِنِي، مَا انْبَعَثْتُ لَتِلْكَ التَّوَالِيْفِ»^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

مَتَى تَصْفُو لَكَ الدُّنْيَا بِخَيْرٍ ۝ ۝ ۝ إِذَا لَمْ تَرْضَ مِنْهَا بِالْمِزَاجِ ۝
 أَلَمْ تَرَجَوْهَرَ الدُّنْيَا الْمُصْفَى ۝ ۝ ۝ وَمَخْرَجُهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَجَاجِ ۝^(٢)
 وَرُبُّ مُخَيِّفَةٍ فَجَاتَ بِهَوْلِ ۝ ۝ ۝ جَرَّتْ بِمَسْرَةٍ لَكَ وَابْتِهَاجِ ۝
 وَرُبُّ سَلَامَةٍ بَعْدَ امْتِنَاعٍ ۝ ۝ ۝ وَرُبُّ إِقَامَةٍ بَعْدَ اعْوَجَاجِ ۝

وَلَا يَقِفُ الْأَمْرُ هَاهُنَا، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُقَلَاءِ يَتَعَلَّمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ أُمُورًا تَنْفَعُهُ فِي مَعَاشِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَصِنَاعَتِهِ، وَحَرِيهِ، وَحَزْمِهِ، وَصَبْرِهِ.

قِيلَ لِرَجُلٍ: مَنْ عَلَّمَكَ الْبُكُورَ فِي حَوَائِجِكَ أَوَّلَ النَّهَارِ، لَا تُخَلِّ بِهَ؟!

قَالَ: مَنْ عَلَّمَ الطَّيْرَ تَغْدُوَ خِمَاصًا^(٣) كُلَّ بُكْرَةٍ^(٤) فِي طَلَبِ أَقْوَاتِهَا عَلَى قُرْبِهَا وَبُعْدِهَا، لَا تَسْأَمُ ذَلِكَ، وَلَا تَخَافُ مَا يَعْرِضُ لَهَا فِي الْجَوِّ وَالْأَرْضِ؟!

وَقِيلَ لِآخَرَ: مَنْ عَلَّمَكَ السُّكُونَ، وَالتَّحْفُظَ، وَالتَّمَاوَتَ حَتَّى تَظْفَرَ بِأَرْبِكَ^(٥)، فَإِذَا ظَفَرْتَ بِهِ وَثَبْتَ وَثُوبَ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيْسَتِهِ؟!

(١) «الأخلاق والسير» (ص ١٢٨).

(٢) الأجاج: المالح.

(٣) تغدو خِمَاصًا: تذهب صباحًا جائعة ضامرة البُطُون، ومفرد خِمَاصٍ خُمَصَانٍ للمذكَّر، وخُمَصَانَةٌ للمؤنث.

(٤) بُكْرَةٌ: صباح، والجمع بُكْرٌ.

(٥) الأرب: الحاجة.

قَالَ: الَّذِي عَلَّمَ الْهَرَّةَ أَنْ تَرُصِدَ جُحْرَ الْفَأْرَةِ، فَلَا تَتَحَرَّكَ، وَلَا تَتَلَوَّى، وَلَا تَخْتَلِجُ، كَأَنَّهَا مَيِّتَةٌ، حَتَّى إِذَا بَرَزَتْ لَهَا الْفَأْرَةُ، وَتَبَّتْ عَلَيْهَا كَالْأَسَدِ!

وَقِيلَ لِأَخْرَجَ: مَنْ عَلَّمَكَ حُسْنَ الْإِيثَارِ، وَالسَّمَاخَةَ بِالْبَدَلِ؟

قَالَ: مَنْ عَلَّمَ الدِّيكَ يُصَادِفُ الْحَبَّةَ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، فَلَا يَأْكُلُهَا، بَلْ يَسْتَدْعِي الدَّجَاجَ، وَيَطْلُبُهُنَّ طَلَبًا حَثِيئًا، حَتَّى تَجِيءَ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ فَتَلْقُطُهَا، وَهُوَ مَسْرُورٌ بِذَلِكَ، طَيَّبُ النَّفْسِ بِهِ؟!!

قَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ، وَلَا الْخَوْ ۝ ۝ وَلَكِنْ يَلِدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَبُّ ۝ ۝ ب، وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرْمَاءِ

وَكَذَلِكَ كَرَامُ الْأَسْوَدِ وَأَشْرَافُهَا يُتَعَلَّمُ مِنْهَا الْأَنْفَقَةَ، وَعِزَّةَ النَّفْسِ؛ فَهِيَ لَا تَأْكُلُ إِلَّا مِنْ فَرِيْسَتِهَا، وَإِذَا مَرَّتْ بِفَرِيْسَةٍ غَيْرِهَا، لَمْ تَدْنُ مِنْهَا وَلَوْ جَهْدَهَا الْجُوعُ^(١).

وَكُنْتُ إِذَا صَحَبْتُ رَجَالَ قَوْمٍ ۝ ۝ صَحَبْتُهُمْ وَشِيمَتِي^(٢) الْوَفَاءُ

فَأَحْسَنُ حِينَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ ۝ ۝ وَأَجْتَنِبُ الْإِسَاءَةَ إِنْ أَسَاءُوا

وَأُبْصِرُ مَا يَعْيِبُهُمْ بَعَيْنٍ ۝ ۝ عَلَيْهِمْ مِنْ عِيُوبِهِمْ غِطَاءُ

أُرِيدُ رِضَاهُمْ أَبَدًا، وَآتِي ۝ ۝ مَشِيئَتَهُمْ، وَأَتْرِكُ مَا أَشَاءُ^(٣)



(١) الشَّيْمَةُ: الْخُلُقُ، وَالْجَمْعُ شَيْمٌ.

(٢) انظر «شفاء العليل» (ص ١٦٢ - ١٦٣) بتصرف.

(٣) «المروءة الغائبة» (ص ٤٢).

عُلُوُّ الْهِمَّةِ



الهِمَّةُ أَصْلٌ مُهِمٌّ مِنْ أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَالْهِمَّةُ مَا هُمَّ بِهِ مِنْ أَمْرٍ لِيُفْعَلَ^(١). وَمَحَلُّهَا الْقَلْبُ.

قَالَ الْجُرْجَانِيُّ:

«الهِمُّ: هُوَ عَقْدَ الْقَلْبِ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يُفْعَلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَالْهِمَّةُ: تَوَجُّهُ الْقَلْبِ وَقَصْدُهُ بِجَمِيعِ قُوَاهُ الرُّوحَانِيَّةِ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ لِحَصُولِ الْكَمَالِ لَهُ، أَوْ لغيرِهِ»^(٢).

وَقِيلَ: «عُلُوُّ الْهِمَّةِ: هُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النَّهْيَةِ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ»^(٣).

وَتَعْلُوُّ أَخْلَاقِ الْمَرْءِ وَتَسْمُوُّ بِقَدْرِ نَصِيْبِهِ مِنْ عُلُوِّ الْهِمَّةِ، فَهِيَ لَا تَرَالُ تُضْرَبُ صَاحِبَهَا بِسَيَاطِ الْبَلْوَمِ وَالتَّأْنِيبِ، حَتَّى تَرْفَعَهُ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ وَأَشْرَافِهَا، وَهَلْ تَنْشَأُ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ إِلَّا مِنْ عُلُوِّ الْهِمَّةِ؟!.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وَخَشَعَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وَطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»^(٤).

(٢) «التعريفات» (ص ٣٢٠).

(٤) «الفوائد» (ص ٢١١).

(١) «القاموس المحيط» (ص ١٥١٢).

(٣) «رسائل الإصلاح» (٢/٨٦).

وقال - ايضاً - :

«فالنُّفوسُ الشَّرِيفَةُ لا تَرْضَى مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِأَعْلَاهَا، وَأَفْضَلَهَا، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً، وَالنُّفوسُ الدَّنِيئَةُ تَحُومُ حَوْلَ الدَّنَائَاتِ، وَتَقَعُ عَلَيْهَا كَمَا يَقَعُ الذُّبَابُ عَلَى الْأَقْدَارِ، فَالنُّفوسُ الْعَلِيَّةُ لا تَرْضَى بِالظُّلْمِ، وَلا بِالْفَوَاحِشِ، وَلا بِالسَّرْقَةِ، وَلا بِالْحِيَانَةِ؛ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ، وَالنُّفوسُ الْمُهَيَّنَةُ بِالضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلوات الله عليه - فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا وَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أضعافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٣).

وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنَ الْحَرِيصِينَ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وادياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»^(٤)، حَبَسَهُمُ ^(٥) الْمَرَضُ. وَفِي رِوَايَةٍ: «حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»^(٦).

(١) المرجع السابق (ص ٢٦٦).

(٢) رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٣١/١٣)، وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١/١٨٩٠)، «وَالصَّحِيحَةُ» (١٣٧٨).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٤) يعني: فِي إِدْرَاكِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ.

(٥) حَبَسَهُمْ: مَنَعَهُمْ.

(٦) رواه البخاري (٢٨٣٩) و(٤٤٢٣)، عَنْ أَنَسٍ، وَمُسْلِمٌ (١٩١١) عَنْ جَابِرٍ.

يَا رَاحِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسُومًا، وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحًا
 إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ، وَعَنْ قَدْرٍ. وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا
 فَحَرِيٌّ بِالْمَرْءِ أَلَّا تَقِفَ بِهِ هَمَّتُهُ دُونَ الْجَنَّةِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ كَانَتْ
 الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِبَةٌ، وَمَنْ
 كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا
 مَا قَدَّرَ لَهُ» (١).

وَعَلَّمْنَا نَبِيَّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «عَلُّوْهُ الْهَمَّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الدُّعَاءِ، فَأَمَرْنَا أَنْ
 نَسْأَلَ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْ فَضْلِهِ، وَلَا نَسْتَعْظِمُ شَيْئًا فِي قَدْرِ اللَّهِ وَجُودِهِ.
 عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ
 فَلَيْسَتْ كَثِيرًا؛ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ» (٢).

وَفِي لَفْظٍ: «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلَيْسَتْ كَثِيرًا؛ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -» (٣).

وَعَنْ الْعَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا
 سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ؛ فَإِنَّهُ سِرُّ الْجَنَّةِ» (٤) ، (٥).

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وروى ابن ماجه نحوه من حديث زيد بن ثابت (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٦٥١٠، ٦٥١٦)، و«الصحيح» (١٣٢٥).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٥٩١)، و«الصحيح» (١٣٢٥).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» عن عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٤٣٧)، و«الصحيح» (١٢٦٦).

(٤) سِرُّ الْجَنَّةِ: أفضل موضع فيها. والسُّرُّ: جوف كل شيء ولُّبُّه وخالصة.

(٥) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٥٩٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَصْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَرْدُونِيُّ:

يَا صَاحِبَ الْهَمَّةِ الْعُلْيَا، وَهَلْ حَمَلْتُ ۝ ۝ رُوحَ الرُّسَالَاتِ إِلَّا رُوحَ مُخْتَارِ^(٢) ؟

أَعْلَى الْمَنَاصِبِ مَا شَادَتْ^(٣) لِصَاحِبِهَا ۝ ۝ مِنْ الْعُلَى وَالْمَعَالِي نَصَبًا تَذْكَارِ^(٤)

فِي كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي، وَفِي دَمِهِ ۝ ۝ عَقِيدَةٌ تَتَّحِدُنِي كُلُّ جَبَّارِ

وَمِنْ دَرِّ ابْنِ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - قَوْلُهُ:

«الْهَمَّةُ الْعَالِيَةُ عَلَى الْهِمَمِ كَالطَّائِرِ الْعَالِيِ عَلَى الطُّيُورِ، لَا يَرْضَى بِمَسَاقِطِهِمْ، وَلَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْآفَاتُ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ الْهَمَّةَ كُلَّمَا عَلَتْ بَعُدَتْ عَنِ وُصُولِ الْآفَاتِ إِلَيْهَا، وَكُلَّمَا نَزَلَتْ قَصَدَتْهَا الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَإِنَّ الْآفَاتِ قَوَاطِعُ وَجَوَازِبُ، وَهِيَ لَا تَعْلُو إِلَى الْمَكَانِ الْعَالِيِّ فَتَجْتَذِبُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا تَجْتَذِبُ مِنَ الْمَكَانِ السَّافِلِ، فَعَلُوْهُ هَمَّةِ الْمَرْءِ عُنْوَانُ فَلَاحِهِ، وَسُقُولُ هِمَّتِهِ عُنْوَانُ حِرْمَانِهِ»^(٥).

قُلْتُ لِلصَّقْرِ - وَهُوَ فِي الْجَوْعِ عَالٍ - ۝ ۝ اهْبِطِ الْأَرْضَ؛ فَالْهَوَاءُ جَدِيبُ

قَالَ لِي الصَّقْرُ: فِي جَنَاحِي وَعِزْمِي ۝ ۝ وَعَنَّانِ السَّمَاءِ^(٦) مَرَعَى خَصِيبِ^(٧)

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠) و(٤٧٢٣).

(٢) روح مختار: محمد - صلوات الله وسلامه عليه - . (٣) شادت: بنت وكوتت.

(٤) النصب التذكري؛ ما رُفِعَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا تَخْلِيدًا لِذِكْرِ الْعِظْمَاءِ.

(٥) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٦) عَنَّانِ السَّمَاءِ: هُوَ السَّحَابُ، الْوَاحِدَةُ عَنَانَةٌ. (٧) «ديوان المثاني» (ص ٣٥).

وقال أبو فراس الحمداني - مُفْتَخراً بَعْلُو هِمَّتِهِ، عَائِباً عَلَى مَنْ سَفَلَتْ
هِمَّتُهُ، وَاسْتَرْقَاهُ هَوَاهُ - :

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ^(١) وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابٌ^(٢) ◻ ◻ ◻
ولكنني - والحمد لله - حازمٌ أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ ◻ ◻ ◻
ولا تملكُ الحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ وَإِنْ مَلَكَتْهَا رَوْقَةٌ^(٣) وَشِبَابُ ◻ ◻ ◻
وأجري ولا أعطي الهوى فضلَ سُودِّي وَأَهْدِي، وَلَا يَخْفَى عَلَيَّ صَوَابٌ^(٤) ◻ ◻ ◻

وعالي الهمة قد يشتد حرصه على معالي الأخلاق وأشرفها، حتى لا يكاد
يشعر بما يلاقه من جهل الجاهلين، وعناد المعاندين.

قال محمود سامي البارودي:

وَمَنْ تَكُنْ الْعَلِيَاءُ هِمَّةً نَفْسِهِ فَكُلُّ الَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحَبَّبٌ^(٥) ◻ ◻ ◻

وقال أبو الطيب:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعِزَائِمُ^(٦) وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ ◻ ◻ ◻
وتكبرُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ^(٧) ◻ ◻ ◻

(١) خريدة: الحسنة، والجمع خرْدٌ، وخرائدٌ.

(٢) كعاب - بالفتح - : وهي ناهدة الثدي مستديرته، والجمع كَوَاعِبُ.

(٣) الروقة: حسن المنظر.

(٤) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص ١٣).

(٥) «جواهر الأدب» (ص ٥٢٨).

(٦) العزائم: جمع عزيمة، وهي الإرادة.

(٧) «ديوان أبي الطيب» (٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩).

وَعَالِي الْهِمَّةَ لَا يَرْضَى بِالذُّونِ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَلَا يَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ،
يَنْهَضُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الْجَلِيلَةِ، وَيُرْمِي إِلَى الْغَايَةِ الْبَعِيدَةِ، يَقُومُ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ
الَّتِي تُسْتَعَصَى عَلَى أَوْلِي الْقُوَّةِ مِنَ الرِّجَالِ، فَلَا يَتَّبِرُّ^(١)، وَلَا يَقْلَقُ، وَلَا
يَشْكُو، وَلَا يَتَعَبُ.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفِ مَرُومٍ^(٢) هـ هـ هـ فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ هـ هـ هـ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ^(٣)



(١) التَّبَرُّمُ: التَّضَجُّرُ.

(٢) مَرُومٌ: مَقْصُودٌ وَمَطْلُوبٌ مِنْ رَأْمٍ يَرُومُ الشَّيْءَ، إِذَا قَصَدَهُ وَطَلَبَهُ.

(٣) «ديوان أبي الطَّيِّبِ» (٣/٣٧٨ - ٣٧٩).

النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ سُوءِ الْخُلُقِ



سَيِّئُ الْخُلُقِ مذكورٌ بالذِّكْرِ الْقَبِيحِ، يَمُقْتُهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ -، وَيُبْغِضُهُ الرَّسُولُ - ﷺ -، وَيُبْغِضُهُ النَّاسُ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِيهِمْ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «وَأَنْ أَبْغِضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْغِضَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ. أَسْوَأُكُمْ اخْلَاقًا.»^(١)

وَسَيِّئُ الْخُلُقِ هُوَ مَنْ مَلَأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا، وَهُوَ يَسْمَعُهُ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ مَلَأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا، وَهُوَ يَسْمَعُ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنْ مَلَأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا، وَهُوَ يَسْمَعُ.»^(٢)

بَلْ إِنْ سَيِّئَ الْخُلُقِ يَجْلِبُ لِنَفْسِهِ الْهَمُّ، وَالْغَمُّ، وَالْكَدَرُ، وَضِيقَ الْعَيْشِ، وَيَجْلِبُ لِغَيْرِهِ الشَّقَاءُ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ - يَرْحَمُهُ اللهُ -:

«السَّيِّئُ الْخُلُقِ أَشَقَى النَّاسِ بِهِ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، هِيَ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، ثُمَّ زَوْجَتُهُ، ثُمَّ وَلَدُهُ، حَتَّى أَنْهَ لَيَدْخُلُ بَيْتَهُ، وَإِنَّهُمْ لَفِي سُرُورٍ، فَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ،

(١) رواه أحمد (٤/١٩٣ - ١٩٤)، وابنُ حبان (٤٨٢)، وابنُ أبي شيبة (٨/٥١٥)، والبخاري (١٨/٢٠١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/٢١): رجاله رجال الصَّحِيحِ، وحسنه الألباني في «الصَّحِيحَةَ» (٧٩١).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٢٥٢٧)، و«الصَّحِيحَةَ» (١٧٤٠).

فَيَنْفِرُونَ مِنْهُ فَرَقًا^(١) مِنْهُ، وَحَتَّىٰ إِنَّ دَابَّتَهُ تَحِيدُ^(٢) مِمَّا يَرْمِيهَا بِالْحِجَارَةِ، وَإِنَّ كَلْبَهُ لَيَرَاهُ فَيَنْزُو^(٣) عَلَى الْجِدَارِ، حَتَّىٰ إِنْ قَطَّه لَيَفِرُّ مِنْهُ^(٤).

قال الشاعر:

إذا لم تَتَّسِعْ أَخْلَاقُ قَوْمٍ u u تضيقُ بهم فسيحاتُ البلادِ^(٥)

وقال يحيى بن معاذ:

«سوءُ الخُلُقِ سيئةٌ، لا تنفعُ معها كثرةُ الحسناتِ، وحسنُ الخُلُقِ حسنةٌ، لا تضرُّ معها كثرةُ السيئاتِ»^(٦).

وَصَدَقَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الْعَمَلَ، كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسْلَ»^(٧).

وقال صاحب الإحياء:

«الأخلاقُ السيئةُ هي السُّمومُ القاتلةُ، والمُهْلَكَاتُ الدَّامِغَةُ، والمخازي الفَاضِحَةُ، والرذائلُ الواضِحَةُ، والخبائثُ المُبْعِدَةُ عَن جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

(١) الفَرْقُ - بفتحين - : الخَوْفُ، وبأبهِ فَرْحَ.

(٢) تَحِيدُ: تَمِيلُ عَنْهُ وَتُعْرِضُ.

(٣) يَنْزُو: يَثْبُ.

(٤) «السَّيْرُ» (٦/٩٩).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٣).

(٦) «الإحياء» (٣/٥١).

(٧) رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي «الكبير» عن ابنِ عُمَرَ، وَحَسَنَهُ الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (١/١٧٦)،

و«الصَّحِيحَةُ» (٦/٩٠).

الْمُنْخَرِطَةُ بِصَاحِبِهَا فِي سِلْكِ الشَّيَاطِينِ، وَهِيَ الْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ إِلَى نَارِ اللَّهِ
- تَعَالَى - الْمَوْقَدَةِ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ^(١).
وقال . ايضاً .:

«الْأَخْلَاقُ الْحَبِيثَةُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ، وَأَسْقَامُ النُّفُوسِ، إِلَّا أَنَّهُ مَرَضٌ يُفُوتُ
حَيَاةَ الْأَبَدِ»^(٢).
وقال الأحنفُ بن قيس:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَدْوَاءِ الدَّاءِ؟». قالوا: «بلى». قال: «الْخُلُقُ الدُّنْيِيُّ، وَاللِّسَانُ
الْبَدْيِيُّ»^(٣).
وقال بعض الحكماء:

«مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ ضَاقَ رِزْقُهُ»^(٤).
وقال بعض البلغاء:

«الْحَسَنُ الْخُلُقِ مِنْ نَفْسِهِ فِي رَاحَةٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي سَلَامَةٍ، وَالسَّيِّئُ الْخُلُقِ
النَّاسُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي عَنَاءٍ»^(٥).

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ □ □ □ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ^(٦) مَأْتَمًا وَعَوِيلًا^(٧)^(٨)



(١) و (٢) «الإحياء» (٤٧/٣).

(٣) و (٤) و (٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٢).

(٦) المأتم: اجتماع النساء للنياحة، والجمع مأتم.

(٧) العويل - بالفتح - : رفع الصوت بالبكاء، تقول منه: أعول إعرالاً.

(٨) «الشوقيات» (١/١٨٣).

صور من الأخلاق

- | | |
|--|--------------------------|
| ١. الحياء. | ٢. ير الوالدَيْن. |
| ٣. صِلَةُ الرَّحِمِ. | ٤. حُسْنُ الْجَوَارِ. |
| ٥. حُسْنُ السَّمْتِ. | ٦. الْوَقَارُ. |
| ٧. الرُّفْقُ. | ٨. الرُّحْمَةُ. |
| ٩. التَّوَاضُعُ. | ١٠. الْحِلْمُ. |
| ١١. الْكَرَمُ. | ١٢. إِكْرَامُ الضَّيْفِ. |
| ١٣. الْمُرُوَّةُ. | ١٤. الصَّبْرُ. |
| ١٥. الْإِنْتِصَارُ. | ١٦. الْإِنصَافُ. |
| ١٧. الْمُدَارَاةُ. | ١٨. الصَّدْقُ. |
| ١٩. حُسْنُ الظَّنِّ. | ٢٠. تَجَنُّبُ الغَضَبِ. |
| ٢١. تَجَنُّبُ الْحَقْدِ. | ٢٢. تَجَنُّبُ الحَسَدِ. |
| ٢٣. غَضُّ البَصْرِ. | ٢٤. الغَيْرَةُ. |
| ٢٥ - عَدَمُ الانشغالِ بعيوبِ النَّاسِ. | ٢٦. حِفْظُ اللُّسَانِ. |

٢٧. تَجَنُّبُ آفَاتِ اللُّسَانِ، ومنها:

- | | |
|-----------------------------|--|
| (أ) الغيبة. | (ب) التَّمِيعة. |
| (ج) الكَذِبُ. | (د) اللَّعْنُ. |
| (هـ) السُّخْرِيَّةُ. | (و) البِدَاءَةُ وَالتَّفْحُشُ فِي الْقَوْلِ. |
| (ز) شَهَادَةُ الزُّورِ. | (ح) إِفْشَاءُ الْأَسْرَارِ. |
| (ط) الْمَدْحُ الْمَذْمُومُ. | |

صور من الأخلاق

الحياءُ



الحياءُ في اللُغة: تغيُّرٌ وانكسارٌ يلحقُ الإنسانَ من خوفٍ ما يُعابُ به .
وفي الشَّرْع: خلُقٌ يبعثُ على فعلِ الجميلِ، واجتنابِ القبِيحِ، ويمنعُ من
التَّفريطِ والتَّخصيرِ في حقِّ ذي الحَقِّ.

■ أنواعُ الحياءِ:

«الحياءُ قِسْمَان: غَرِيزِيٌّ، ومُكْتَسَبٌ. والحياءُ المكتسبُ: هو الَّذِي جعله
الشَّارِعُ مِنَ الإِيمَانِ، وهو المُكَلَّفُ به دُونَ الغَرِيزِيِّ، وقد ينطبعُ الشَّخْصُ بالمُكْتَسَبِ
حَتَّى يَصِيرَ كَالغَرِيزِيِّ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي الغَرِيزِيِّ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ
العَدْرَاءِ^(١) فِي خَدْرِهَا^(٢)، وَكَانَ فِي المُكْتَسَبِ فِي الذُّرُوءِ^(٣) العُلْيَا^(٤) .

«وينقسمُ - أيضاً - إلى قسَمين: شرعيٍّ، وَغَيْرِ شرعيٍّ. فالشرعيُّ الَّذِي يَقَعُ
على وَجْهِ الإِجْلَالِ والاحْتِرَامِ للأَكَابِرِ، وهو مُحْمُودٌ، وَأَمَّا مَا يَقَعُ سَبَبًا لتركِ أمرٍ
شرعيٍّ، فهو مَذْمُومٌ، وليسَ بِحياءٍ شرعيٍّ، وَأَمَّا ضَعْفٌ ومَهَانَةٌ^(٥) .

(١) العَدْرَاءُ: البِكْرُ، والجَمْعُ العَدْرَايُ - بفتح الرَّاءِ وكسرها - ، والعَدْرَايُ - بتشديد الباء - ، والعَدْرَاوَاتُ .

(٢) الخَدْرُ: سِتْرٌ يجعلُه البِكْرُ في جنبِ البَيْتِ، والمعنى: أي أشدَّ حياءً من البِكْرِ حَالِ اختلاطها بالزَّوْجِ الَّذِي لم تَعْرِفْهُ قَبْلُ، واستحيائها منه .

(٣) ذُرُوءُ الشَّيْءِ - بضمِّ الذَّالِ وكسرها - : أعلاه ونهايته، والجَمْعُ ذُرَا .

(٤) «فتح الباري» (١٠/٥٢٢-٥٢٣) .

(٥) المرجع السابق (١/٢٢٩) .

■ مكانة الحياء ومنزلته في الدين:

وصف الرسول - ﷺ - الحياء بأوصاف تدلُّ على خطورته، وسمو منزلته منها:

١. أنه صفة من صفات الله - سبحانه وتعالى -:

عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبِرَّازِ^(١) بِلَا إِزَارٍ، فَصَعَدَ الْمُنْبَرُ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - حَلِيمٌ، حَيٌّ^(٢) سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسُّتْرَ؛ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ^(٣)».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ، حَيٌّ، كَرِيمٌ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ؛ ثُمَّ لَا يَضَعُ فِيهِمَا خَيْرًا^(٤)»^(٥).

٢. أنه أبرز ما يميز به الإسلام من مكارم الأخلاق، فهو الخلق المميز لتابعيه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(٦).

(١) البرّاز - بالفتح - : الفضاء الواسع.

(٢) قال صاحبُ بذل المجهود (٣٢٨/٨) - بتصرف - : «ومعناه على هذا: المبالغ في الحياء، والغرض والغاية من وصف الله - تعالى - به فعل ما يسرُّ، وترك ما يضرُّ، والعطاء من غير سؤال».

(٣) رواه أبو داود (١٠١٢)، والنسائي (٤٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٦/١).

(٤) قال الفيروزآبادي - يرحمه الله - في «بصائر ذوي التمييز» (٥١٧/٢): «وأما حياءُ الربِّ - تبارك وتعالى - من عبده فنوع آخر، لا تُدرِكُه ولا تُكفِّهُ العقولُ، فإنَّه حياءُ كَرَمٍ، وبرٍّ، وجودٍ، فإنَّه كَرِيمٌ، يستحي من عبده إذا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفْرًا، ويستحي أن يُعَذَّبَ شَيْبَةً شَابَتْ فِي الْإِسْلَامِ».

(٥) رواه الحاكم في «المستدرک»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦٨/١).

(٦) رواه ابن ماجه (٤١٨١) و (٤١٨٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٤٩/١)،

و«الصَّحِيحَةُ» (٩٤٠).

٣. أنه من الإيمان،

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء ^(١) من الجفاء، والجفاء في النار» ^(٢).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرَّ على رجلٍ من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء ^(٣)، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان» ^(٤).

وعنه - أيضاً - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» ^(٥).

فهذا يعني أن الحياء إذا ذهب ذهب معه الإيمان، ولا غرو ^(٦) فإن من فقد حياءه هبط من رذيلة إلى أخرى أشد نكراً، ولا يزال هاوياً حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل.

٤. أنه مَلَأَكُ ^(٧) الخَيْرِ:

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الحياء خيرٌ كله، أو قال: كله خير» ^(٨).

(١) البذاء، الفحش في الكلام.

(٢) رواه أبو داود (٢٠٠٩)، ورواه ابن ماجه (٤١٨٤) عن أبي بكره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٩٩/١)، و«الصحيحه» (٤٩٥).

(٣) أي يعاتبه فيه.

(٤) رواه البخاري (٢٤) و(٦١١٨)، ومسلم (٣٦).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرک»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الشعب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٠٠/١).

(٦) لا تحروا، لا عجب.

(٧) مَلَأَكُ الخَيْرِ - بفتح الميم وكسرها - : قوامه وعماده.

(٨) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم - واللفظ له - (٣٧).

٥. أنه من سنن المرسلين :

عن أبي سعيد الخدري - رضي عنه - قال : « كان رسول الله - ﷺ - أشد حياءً من العذراء في خدرها، ^(١) .

وعن عائشة - رضي عنها - أن امرأة من الأنصار قالت للنبي - ﷺ - : « كيف اغتسل من الحيض؟ » . قال : « خذي فرصة ممسكة ^(٢) ، وتوضئي ثلاثاً . ثم إن النبي - ﷺ - استحيا ، فأعرض بوجهه ، أو قال : « توضئي بها . فأخذتها فجدبتتها ، فأخبرتها بما يريد النبي - ﷺ - . ^(٣) .

٦. أنه عنصرت النبل في كل عمل يشوبه :

عن أنس - رضي عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما كان الفحش في شيء قط . إلا شأنه ^(٤) ، ولا كان الحياء في شيء قط . إلا زانه ^(٥) .

■ حياة القلب في الحياء :

قال ابن القيم - يرحمه الله - : « الحياء من الحياة ، ومنه الحيا للمطر ، لكن هو مقصور ، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء ، وقلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحياء ، كان الحياء أتم ^(٦) .

فالأخلاق الفاضلة - ولاسيما خلق الحياء - تناسب تناسباً طردياً مع قوة حياة القلب والروح .

(١) رواه البخاري (٣٥٦٢) و (٦١٠٢) و (٦١١٩) ، ومسلم (٢٣٢٠) .

(٢) فرصة ممسكة : قطعة من قطن أو صوف بها طيب المسك .

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - (٣١٤) ، (٣١٥) و (٧٣٥٦) ، ومسلم (٣٣٢) .

(٤) شأنه : عابه .

(٥) رواه الترمذي (١٩٧٤) ، وابن ماجه - واللفظ له - (٤١٨٥) ، وصححه الالباني في «صحيح الجامع»

(٥٦٥٥/٢) .

(٦) «تهذيب مدارج السالكين» (٦٢٠/٢) .

وقال ابن القيم - ايضاً :-

«وكُلُّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ فِي صَاحِبِهَا أَكْمَلَ، كَانَتْ حَيَاتُهُ أَقْوَى وَأَتَمًّا؛ وَلِهَذَا كَانَ خُلُقُ الْحَيَاءِ مُشْتَقًّا مِنَ الْحَيَاةِ اسْمًا وَحَقِيقَةً، فَأَكْمَلُ النَّاسِ حَيَاةً أَكْمَلُهُمْ حَيَاءً، وَنُقْصَانُ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِنْ نُقْصَانِ حَيَاتِهِ؛ فَإِنَّ الرُّوحَ إِذَا مَاتَتْ لَمْ تُحْسَبْ بِمَا يُؤَلِّمُهَا مِنَ الْقَبَائِحِ، فَلَا تَسْتَحِي مِنْهَا، فَإِذَا كَانَتْ صَاحِبَةَ الْحَيَاةِ أَحْسَتْ بِذَلِكَ، فَاسْتَحَيْتُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَالصِّفَاتِ الْمَدْرُوحَةِ تَابِعَةٌ لِقُوَّةِ الْحَيَاةِ، وَضِدُّهَا مِنْ نُقْصَانِ الْحَيَاةِ، وَلِهَذَا كَانَتْ حَيَاةُ الشُّجَاعِ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْجَبَانَ، وَحَيَاةُ السَّخِيِّ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْبَخِيلِ، وَحَيَاةُ الْفَطْنِ الذَّكِيِّ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْفَدَمِ^(١) الْبَلِيدِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ - أَكْمَلَ النَّاسِ حَيَاةً - حَتَّى إِنَّ قُوَّةَ حَيَاتِهِمْ تَمْنَعُ الْأَرْضَ أَنْ تُبْلِيَ أَجْسَامَهُمْ - كَانُوا أَكْمَلَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ»^(٢).

قال السري:

«إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْأُنْسَ يَطْرُقَانِ الْقَلْبَ، فَإِنْ وَجَدَا فِيهِ الزُّهْدَ وَالْوَرَعَ، وَالْأَرْحَلَ»^(٣).

وقال الفضيل بن عياض:

«خَمْسٌ مِنْ عِلَامَاتِ الشَّقْوَةِ: الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ، وَجُمُودُ الْعَيْنِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَطُولُ الْأَمَلِ»^(٤).

قال محمد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ ◻◻◻ فَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ
حَيَاءَكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا ◻◻◻ يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ حَيَاؤُهُ^(٥)

(١) الفدم - بالفتح - : العبي الثقل البين القدماءة والقدمية.

(٢) و (٣) المرجع السابق (٢/٦٢١).

(٤) تهذيب مدارج السالكين (٢/٩٤٨).

(٥) روضة العقلاء (ص ٥٧).

■ أَوْجُهُ الْحَيَاءِ:

الحياءُ يكونُ من ثلاثة أوجهٍ:

الأوّل - حياءُ المرءِ من خالقه - جلّ وعلا-، والحياءُ من الله من أسمى منازلِ الحياءِ وأكرمها، ولا غرورَ فإنَّ الإنسانَ لِيَسْتَحْيِي أَنْ يُقَدِّمَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِنْ بَنِي جَنَسِهِ - ولو نعمةً صغيرةً - أدنى إساءةٍ، فكيفَ لا يستحيي من خالقه الَّذي لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ عَظِيمٌ، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً؟! .

لَوْ أَنَّ الْعِبَادَ قَدَرُوا خَالِقَهُمْ حَقَّ قَدْرِهِ، لَسَارَعُوا - بَغْضُ النَّظَرِ عَنِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ - إِلَى الْخَيْرَاتِ، يَفْعَلُونَهَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَلِبَاعِدُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنْ مُقَابَلَةِ خَيْرِهِ الْمَحْضِ بِالْجُحُودِ وَالْكَفْرَانِ .

يقولُ ابنُ القيمِ - يرحمه اللهُ -:

هَبْ^(١) الْبَعَثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسُلُهُ ■ ■ ■ وَجَاحِمَةَ النَّارِ^(٢) لَمْ تُضْرَمِ^(٣)

أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقُّ ■ ■ ■ حَيَاءُ الْعِبَادِ مِنَ الْمُنْعِمِ؟!

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» . قُلْنَا: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» . قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ الْإِسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» .^(٤)

(١) هَبْ: بمعنى ظنّ وافترض، وهو فعل جامد ملازم للأمرية.

(٢) جاحمة النار: جهنم - أعادنا الله منها - .

(٣) تُضْرَمُ: تُوقَدُ.

(٤) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٩٣٥).

وَعَنْ بِهِزٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ» (١).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو يخطبُ النَّاسَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ، فِوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لِأَظْلَمُ - حِينَ أَذْهَبُ الْفَائِطَ فِي الْفَضَاءِ - مُتَقَنَّعًا بِثَوْبِي اسْتَحْيَاءً مِنْ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ -» (٢).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: «مَنْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ مُطِيعًا، اسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ وَهُوَ مُذْنِبٌ» (٣).

وَفِي شَرْحِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ: «مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ خُلُقُ الْحَيَاءِ مِنَ اللهِ - حَتَّى فِي حَالِ طَاعَتِهِ - فَقَلْبُهُ مُطْرَقٌ بَيْنَ يَدَيْهِ إِطْرَاقَ مُسْتَحٍ خَجَلٍ، فَإِنَّهُ إِذَا وَاقَعَ ذَنْبًا، اسْتَحْيَا اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، فَيَسْتَحِي أَنْ يَرَى مِنْ وَلِيِّهِ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْهِ مَا يَشِينُهُ عِنْدَهُ» (٤).

وَالثَّانِي - حَيَاؤُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَكُونُ بِكَفِّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَتَرْكِ الْمَجَاهِرَةِ بِالْقَبِيحِ خَجَلًا مِنْ أَنْ يُؤْثَرَ عَنْهُ سُوءٌ.

رَوَى أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ انصَرَفُوا، فَتَنَكَّبَ الطَّرِيقَ (٥) عَنِ النَّاسِ، وَقَالَ: «لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ» (٦).

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٩) و (٢٧٩٤)، وذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، انظر «الفتح» (١/٤٥٩)،

وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٨١٠) و «صحيح الجامع» (١/٢٠٣).

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (ص ٢٠).

(٣) و (٤) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٦٢١).

(٥) تنكَّبَ الطريق: تجنَّبَهُ وَعَدَلَ عَنْهُ.

(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٩).

بَلْ إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِرَامِ، وَالنُّفُوسَ الشَّرِيفَةَ لَيَسْتَحِي مِنْ سَائِلِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ السَّائِلُ، فَلَا تُطَاوَعُهُ نَفْسُهُ بِمُوجَهَةِ السَّائِلِ حَيَاءً مِنْ خَجَلَتِهِ.

رَوَى أَنَّ مُطَرِّفَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ: «يَا أَبَا فَلَانِ، إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَلَا تُكَلِّمَنِي، وَاكْتُبْهَا فِي رِقْعَةٍ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى فِي وَجْهِكَ ذَلِكَ السُّؤَالَ».

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي ۝ ۝ ۝ وَيَبِينُ رُكُوبَهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
إِذَا رُزِقَ الْفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا^(١) ۝ ۝ ۝ تَقَلَّبَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ^(٢)

وَالثَّلَاثُ - حَيَاؤُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَكُونُ بِالْعِفَّةِ، وَصِيَانَةِ الْخَلَوَاتِ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - : «وَأَمَّا حَيَاءُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ فَهُوَ حَيَاءُ النَّفْسِ الشَّرِيفَةِ الْعَزِيزَةِ الرَّفِيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لِنَفْسِهَا بِالنَّقْصِ، وَقَنَاعَتِهَا بِالذُّونِ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَحِيًّا مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ، يَسْتَحِي بِأَحَدِهِمَا مِنَ الْأُخْرَى، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَيَاءِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اسْتَحْيَا مِنْ نَفْسِهِ، فَهُوَ بِأَنْ يَسْتَحِيَ مِنْ غَيْرِهِ أَجْدَرُ»^(٣).

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «لَيْكُنْ اسْتِحْيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِحْيَاؤِكَ مِنْ غَيْرِكَ»^(٤).

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: «مَنْ عَمِلَ فِي السَّرِّ عَمَلًا، يَسْتَحِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ -

فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ»^(٥).

(١) الْوَقَاحُ - بِالْفَتْحِ - : الْبَيْنُ الْفَاحَةُ - بِكسر القاف وفتحها - وهي الإفراط في سوء الأدب.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٠).

(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٦٢٣).

(٤) و (٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٠).

فَسِرِّي كَاعْلَانِي، وَتِلْكَ خَلِيقَتِي ۝ ۝ وَظَلَمَةٌ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِي^(١)
 يقول الماوردي: «فمتى كَمَلَ حَيَاءُ الْإِنْسَانِ مِنْ وُجُوهِ الثَّلَاثَةِ، فَقَدْ كَمَلَتْ فِيهِ
 أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَانْتَفَتَ عَنْهُ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَصَارَ بِالْفَضْلِ مَشْهُورًا، وَبِالْجَمِيلِ
 مَذْكُورًا.»

وَإِنْ أَخْلَى بِأَحَدٍ وَجُوهُ الْحَيَاءِ، لِحَقِّهِ مِنَ النَّقْصِ بِإِخْلَالِهِ بِقَدْرِ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ
 مِنَ الْفَضْلِ بِكَمَالِهِ^(٢).

أَخِي الْحَبِيبُ، عَلَيْكَ بِخُلُقِ الْحَيَاءِ؛ فَهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ.
 قَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: «مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ: إِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ وَقَارًا، وَإِنَّ مِنَ
 الْحَيَاءِ سَكِينَةً»^(٣).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «مَعْنَى كَلَامِ بُشَيْرٍ: أَنَّ مِنَ الْحَيَاءِ مَا يَحْمِلُ
 صَاحِبَهُ عَلَى الْوَقَارِ، بَأَن يُوَقِّرَ غَيْرَهُ، وَيَتَوَقَّرَ فِي نَفْسِهِ، وَمِنْهُ مَا يَحْمِلُ عَلَى أَنْ
 يَسْكُنَ عَنْ كَثِيرٍ مَا يَتَحَرَّكُ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِذِي الْمُرُوءَةِ»^(٤).
 قَالَ ابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

حَيَائِي حَافِظٌ لِي مَاءَ وَجْهِ ۝ ۝ وَرَفِيقِي فِي مَكَامَتِي رَفِيقِي
 وَلَوْ أَنِّي سَمَحْتُ^(٥) بِبِذْلِ وَجْهِ ۝ ۝ لَكُنْتُ إِلَى الْعُلَا سَهْلَ الطَّرِيقِ^(٦)

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٤) «فتح الباري» (١٠/٥٢٢) عند شرحه للحديث (٦١١٧).

(٥) سَمَحْتُ: جَدْتُ، وَبَابُهُ قَطَعَ.

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٤/٢٧٦).

وَلَقَدْ حَذَّرَ الْأَنْبِيَاءُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ - مِنْ كَسْرِ حَاجِزِ الْحَيَاءِ؛
لِئَلَّا يَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ قَبِيحٍ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوْلَى: إِذَا لَمْ تُسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

«إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي . . . وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ، مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ . . . وَلَا الدُّنْيَا، إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ. مَا اسْتَحِيََا. بِخَيْرٍ . . . وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ»^{(٢) (٣)}

وَإِذَا كَانَ الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ فِي ذَهَابِ الْحَيَاءِ، فَاَلْحَافِظَةُ
عَلَى الْإِيمَانِ، وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِيَ أَصْلُ حِفْظِ الْحَيَاءِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي ذَهَابُ الْحَيَاءِ، الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ
كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْحَيَاءُ
خَيْرٌ كُلِّهِ»^(٤).

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣) و(٣٤٨٤) و(٦١٢٠).

(٢) اللحاء - بالكسر - : قشر الشجر، والجمع الحية، والحية.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٨).

(٤) تقدم تخريجه.

والمقصود أن الذنوب تُضعفُ الحياءَ مِنَ العبدِ، حتَّى ربَّما انسلخَ منه بالكليَّةِ، حتَّى إنَّه ربَّما لا يتأثَّرُ بعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ، ولا باطِّلاعِهِمْ عليه، بل كثيرٌ منهم يُخبرُ عَن حَالِهِ، وقُبِحَ ما يَفْعَلُ، والحَامِلُ لَهُ على ذلك انسِلَاخُهُ مِنَ الحَيَاءِ، وإذا وَصَلَ العَبْدُ إلى هَذِهِ الحَالَةِ، لَمْ يَبْقَ في صَلَاحِهِ مَطْمَعٌ^(١).

- وليس بمنسوب إلى العلم والنهي^(٢) ◻◻◻ فتنى لا ترى فيه خلائق أربع؛
 فواحدة - تقوى الإله، التي بها ◻◻◻ ينال جسيم الخير والفضل أجمع
 وثانية - صديق الحياء، فإنه ◻◻◻ طباع^(٣)، عليه ذو المروءة يطبع
 وثالثة - حلم، إذا الجهل أطلعت ◻◻◻ إليه خبايا من فجور تسرع
 ورابعة - جود يملك يمينه ◻◻◻ إذا نابه الحق الذي ليس يدفع^(٤)



(١) «الداء والدواء» (ص ١٣١ - ١٣٣).

(٢) النهي: جمع نهي، وهي العقل؛ لأنه ينهى صاحبه عن كل قبيح.

(٣) الطباع - بالكسر - : الطبع أو الطبيعة، وهي الخلائق والسجاي التي جبل عليها الإنسان. انظر «اللسان»

(٤/٢٦٣٤).

(٤) «روضة العقلاء» (ص ٥٦).

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ



البِرُّ - بكسر الباء - : هُوَ التَّوَسُّعُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ . وَالْبِرُّ - بفتح الباء - : هُوَ المتوسِّعُ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى - .
وَأَحَقُّ النَّاسِ بِالْبِرِّ ، وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ ، وَجَمِيلِ الْأَخْلَاقِ ، وَلِينِ الْكَلَامِ ، وَالْبَذْلِ ، وَالْإِحْسَانِ ، وَالْبَشَاشَةِ ، وَالتَّوَاضُّعِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُورِ الْأَخْلَاقِ الحميدة - هُمَا الْوَالِدَانِ .

فَمَنْ كَانَ أَبْرًا بِوَالِدَيْهِ فَهُوَ الْحَكِيمُ الْمَوْفِقُ لِلْأَخْلَاقِ ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُعَامَلَتُهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا عَقْلًا وَشَرْعًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ حَقًّا يَلِي حَقَّهُ وَحَقَّ رَسُولِهِ - ﷺ - إِلَّا لِلْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة النساء: ٣٦) .

وَقَالَ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١) .

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ جَعَلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حُرْمَةَ الْعُقُوقِ كَحُرْمَةِ الْإِشْرَاقِ سِوَاءَ سِوَاءٍ ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حَرَّمَ الشُّرْكَ ، وَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ ، وَمَقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَأْمُرَ بِالتَّوْحِيدِ ، وَيُحَرِّمَ الْعُقُوقَ ، فَكَانَ الشُّرْكَ مُلَازِمًا لِلْعُقُوقِ ، وَالتَّوْحِيدُ قَرِينُ الْإِحْسَانِ ^(١) .

(١) الإحسان : هُوَ الْبِرُّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّسُولِ - ﷺ - : «الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ» . رواه مسلم (٢٥٥٣) عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ .

وبرُّ الوالدين واجبٌ بالإجماع على كلِّ أحدٍ من النَّاسِ في غيرِ معصيةِ الله^(١).

فضائلُ برِّ الوالدين:

طِبْرُ الوالدينِ فضائلُ جمَّةٌ، منها - على جادةِ المثالِ لا الحصرِ - ما يأتي:

١. أنه من أفضلِ الأعمالِ وأحبِّها إلى الله - تعالى - حتى إنه مُقدَّمٌ على الجهادِ في سبيله:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟» . قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»^(٢) . قُلْتُ: «ثُمَّ أَيُّ؟» . قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» . قُلْتُ: «ثُمَّ أَيُّ؟» . قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا يَجْزِي وَكْدُ وَالِدٍ، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ»^(٤) .

٢. أنه من أعظمِ أسبابِ دخولِ الجنةِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «رَغِمَ أَنْفُهُ»^(٥) ، رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ» . قِيلَ: «مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» . قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَهُ الْكَبِيرَ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»^(٦) ،^(٧) .

(١) «غذاء الألباب» (١/٣٨٢).

(٢) أي في أول وقتها.

(٣) رواه البخاري (٥٢٧) و(٢٧٨٢) و(٥٩٧٠) و(٧٥٣٤)، ومسلم (٨٥).

(٤) رواه مسلم (١٥١٠).

(٥) رَغِمَ أَنْفُهُ: أُلْصِقَ بِالرَّغَامِ، وَهُوَ التُّرَابُ، وَالْعِبَارَةُ كِنَايَةٌ عَنِ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ.

(٦) ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ: يَعْنِي أَنْ مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ - أَوْ أَحَدَهُمَا - عِنْدَهُ الْكَبِيرَ، فَلَمْ يَبْرِهْمَا فَمَاتَ - دَخَلَ النَّارَ.

(٧) رواه مسلم (٢٥٥١).

٣. أن رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما:

عَنْ ابْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليه - قَالَ: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا»^(١).

٤. أنه سبب في قبول الدعاء:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلوات الله عليه - قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَقَرُ يَتَمَشُّونَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَّوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِّ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ - تَعَالَى - بِهَا، لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَوَلِي صَبِيَّةً صَغِيرًا أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ^(٢) عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدِي، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِي، وَإِنِّي نَأَى^(٣) بِي ذَاتَ يَوْمِ الشَّجَرِ، فَلَمَّ آتٍ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ مَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقَمْتُ عِنْدَ رِءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَآكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبِيَّةَ قَبْلَهُمَا، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ^(٤) عِنْدَ قَدَمِي، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبِي وَدَائِبَهُمْ، حَتَّى طَلَعَ الضُّجْرُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ...»^(٥) . ثُمَّ تَوَسَّلَ كُلُّ مَنْ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمَا، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ.

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، ورواه الترمذي (١٨٩٩) بلفظ: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسُخْطُ الرَّبِّ فِي سُخْطِ الْوَالِدِ»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٠٦/١، ٣٥٠٧)، و«الصحيح» (٥١٦).

(٢) أَرَحْتُ: رَجَعْتُ.

(٣) نَأَى: بَعُدَ.

(٤) يَتَضَاغُونَ: يَصْرُخُونَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ.

(٥) رواه البخاري (٢٢١٥) و(٢٢٧٢) و(٢٣٣٣) و(٣٤٦٥) و(٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣).

٥. يرُ الأَوْلَادِ لِمَنْ بَرُّ وَالِدِيهِ، فَمَنْ بَرُّ وَالِدِيهِ بَرُّهُ أَوْلَادُهُ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدِيهِ عَقَّهُ أَوْلَادُهُ، فَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ مَا ذَكَرَهُ الْأَصْمَعِيُّ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، يُقَالُ لَهُ (مَنَازِلُ)، وَكَانَ لَهُ أَبُو كَبِيرٌ، يُقَالُ لَهُ (فِرْعَانُ التَّمِيمِيُّ)، وَكَانَ الشَّابُّ عَاقًا لِأَبِيهِ، فَقَالَ الشَّيْخُ:

جَزَتْ رَحِمُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنَازِلِ ۝ ۝ ۝ جَزَاءُ كَمَا يَسْتَنْجِزُ^(١) الدَّيْنَ طَالِبُهُ
تَرَيْتُ^(٢) حَتَّى صَارَ جَعْدًا^(٣) شَمْرَدَلًا^(٤) ۝ ۝ ۝ إِذَا قَامَ سَاوَى غَارِبٍ^(٥) الْفَحْلُ^(٦) غَارِبُهُ
تَظَلَّمَنِي^(٧) مَالِي، كَذَا وَتَوَى يَدِي ۝ ۝ ۝ تَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي لَا يُغَالِبُهُ
وَإِنِّي لِدَاعٍ دَعَاؤُهُ لَوَدَعَاؤَتُهَا ۝ ۝ ۝ عَلَى جَبَلِ الرِّيَّانِ^(٨) لَانْقَضَ جَانِبُهُ

ثُمَّ ابْتَلَى مَنَازِلُ بَابِنِ يُقَالُ لَهُ (خَلِيجٌ)، عَقَّهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، فَقَالَ:

تَظَلَّمَنِي مَالِي خَلِيجٌ، وَعَقَّنِي ۝ ۝ ۝ عَلَى حِينِ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي
تَخَيَّرْتُهُ وَازْدَدْتُهُ لِيَزِيدَنِي ۝ ۝ ۝ وَمَا بَعْضُ مَا يَزِدَادُ غَيْرُ عُرَامٍ^(٩)
لِعَمْرِي، لَقَدْ رِيئْتُهُ فَرِحًا بِهِ ۝ ۝ ۝ فَلَا يَفْرَحَنَّ بَعْدِي امْرُؤٌ بِغُلَامٍ

فَأَرَادَ الْوَالِي ضَرْبَهُ، فَقَالَ الْإِبْنُ لِلْوَالِي: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، هَذَا مَنَازِلُ بْنُ فِرْعَانَ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ أَبُوهُ:

جَزَتْ رَحِمُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنَازِلِ ۝ ۝ ۝ جَزَاءُ، كَمَا يَسْتَنْجِزُ الدَّيْنَ طَالِبُهُ

(١) اسْتَنْجَزَ الشَّيْءُ: طَلَبَ نَجَازَهُ وَالْوَفَاءَ بِهِ.

(٢) تَرَيْتُ: تَرَبَّيْتُ.

(٣) الْجَعْدُ: الطَّوِيلُ.

(٤) الشَّمْرَدَلُ: الْفَتَى الْقَوِيُّ.

(٥) الْغَارِبُ: مَا بَيْنَ السَّنَامِ إِلَى الْعُنُقِ.

(٦) الْعُرَامُ: الشَّدَّةُ وَالشَّرَاسَةُ وَالْأَذَى.

(٧) الْفَحْلُ: الذَّكَرُ الْقَوِيُّ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَالْجَمْعُ فُحُولٌ، وَفِحَالٌ.

(٨) الرِّيَّانُ: اسْمُ جَبَلٍ بِيَلَادِ بَنِي عَامِرٍ.

(٩) تَظَلَّمَنِي: ظَلَمَنِي.

فَقَالَ الْوَالِي: «يَا هَذَا عَقَقْتَ وَعَقَقْتَ»^(١).

وَقَالَ آخَرُ يُعَاتِبُ وَلَدَهُ الَّذِي عَقَهُ:

غَدَوْتُكَ^(٢) مَوْلُودًا، وَمَنْتُكَ^(٣) يَافِعًا^(٤) ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 تَعَلُّ^(٥) بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ^(٦)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَالَتْكَ بِالشُّكُورِ لَمْ أَبِتْ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 طَرَقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ^(٨)
 تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ، وَإِنِّهَا ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مُؤْجَلُ
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
 جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَقِظَاطَةً ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضَّلُ
 فَلَيْسَتْكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبُوتِي ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ
 فَأَوْتَيْتَنِي حَقَّ الْجَوَارِ، وَلَمْ تَكُنْ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 عَلِيَّ بِمَالِي - دُونَ مَالِكَ - تَبْخَلُ
 تَرَاهُ مُعَدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥
 بَرْدٌ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ^(٩)

أخي الحبيب، اتق دعوة الوالد عليك؛ فإنها سهم صائب لا يخطئ أبدًا.

- (١) «عيون الأخبار» (٣/ ٨٦ - ٨٧).
- (٢) غَدَوْتُكَ: رَبَيْتُكَ.
- (٣) مَنْتُكَ: حَمَلْتُ مَثُونَتَكَ، وَقَمْتُ بِكَفَايَتِكَ، وَبَابُهُ قَالَ. (٤) يَافِعًا: بِالْغَا كَبِيرًا.
- (٥) يُقَالُ: عَلَّهُ الشَّرَابَ يَعْهُهُ - بَضَمَ الْعَيْنَ وَكسبها - -: أَي سَقَاهُ عَلَّاءَ بَعْدَ نَهْلٍ، وَالْعَلَلُ - بفتحين - : الشُّرْبُ الثَّانِي.
- (٦) النَّهْلُ - بفتحين - : الشُّرْبُ الْأَوَّلُ، وَبَابُهُ فَرَحَ.
- (٧) يُقَالُ: تَمَلَّمَلَ عَلَى فَرَاشِهِ: إِذَا اضْطَرَبَ وَلَمْ يَسْتَقِرَّ مِنَ الْوَجَعِ.
- (٨) تَهْمَلُ: تَفِيضُ بِالْذَّمِّ، وَبَابُهُ نَصَرَ.
- (٩) هَذِهِ الْآيَاتُ تُنَسَّبُ لِابْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى، وَقِيلَ: لِأَبِي الْعَبَّاسِ الْأَعْمَى، وَقِيلَ: لِأُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ، انظر «كشف الخفاء» (١/ ٢٠٧ - ٢٠٨)، و«بر الوالدين» للإمام الطرطوسي (ص ١٠٨ - ١٠٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «ثَلَاثُ دَعَاوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ، وَدَعْوَةُ الْمَسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ» (١).

■ شروطُ بَرِّ الوالدين:

لِبَرِّ الوالدين ثلاثةُ شروطٍ (٢):

الأوَّل - أَنْ يُؤْتَرَ الْوَلَدُ رِضًا وَالِدَيْهِ عَلَى رِضَا نَفْسِهِ، وَزَوْجَتِهِ (٣)، وَأَوْلَادِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الثَّانِي - أَنْ يُطِيعَهُمَا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرَانَهُ بِهِ، وَيَنْهِيَانَهُ عَنْهُ، سِوَاءٌ أَوْافَقَ رِغْبَاتَهُ أَمْ لَمْ يُوَافِقْهَا، مَا لَمْ يَأْمُرَاهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، أَوْ مَا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِ.

الثَّلَاث - أَنْ يُقَدَّمَ لِهَمَا كُلُّ مَا يَلْحَظُ أَنَّهُمَا يَرِغْبَانِ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَاهُ مِنْهُ عَنِ طَيْبِ نَفْسٍ وَسُرُورٍ، مَعَ شُعُورِهِ بِتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّهِمَا، وَلَوْ بَدَّلَ لِهَمَا دَمَهُ وَمَالَهُ.

(١) رواه أبو داودَ (١٥٣٦)، والتِّرْمِذِيُّ (١٩٠٥)، وَحَسَنُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٠٣١/١)، وَ«الصَّحِيحَةُ» (٥٩٦).

(٢) «بَرِّ الوالدين» لِلْحَنَاطِيِّ (ص ٢٥).

(٣) لَا شَكَّ أَنَّ بَرَّ الوالدين مُقَدَّمٌ عَلَى رِضَا الزَّوْجَةِ، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكَانَتْ أَحْبَبُهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ لِي: طَلَّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَاتَى عُمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «طَلَّقْهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٥١٣٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١١٨٩)، انظُرْ «صَحِيحَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ». وَعَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِعَشْرٍ كَلِمَاتٍ، قَالَ: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قَتَلْتِ، وَحَرَقْتِ، وَلَا تَعُقْ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمْرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ». «صَحِيحَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ». وَعَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: إِنْ لِي امْرَأَةٌ، وَإِنْ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلْقِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضَعْ ذَلِكَ الْبَابَ، وَاحْفَظْهُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (١٩٠٠)، وَابْنُ مَاجَةَ (٣٦٦٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧١٤٥/٢)، وَ«الصَّحِيحَةُ» (٩١٠).

■ الأسباب المعينة على برِّ الوالدين:

- ١ - تقوى الله - تعالى - ، والاستعانةُ به على برِّهما .
- ٢ - استحضارُ فضلِ الوالدينِ الَّذِي لا يُنكرُهُ أحدٌ .
- ٣ - استحضارُ فضائلِ البرِّ، وعواقبِ العقوقِ .
- ٤ - قراءةُ سيرِ البارِّينِ بوالديهم .
- ٥ - أن يضعَ الولدُ نفسه موضعَ والديه .

■ صورٌ من برِّ الوالدين:

■ لبرِّ الوالدين صورٌ كثيرةٌ، منها:

- ١ - كثرةُ الدعاءِ والاستغفارِ لَهُمَا في الحياةِ، وبعدَ المماتِ .
عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - صلَّى الله عليه وآله - قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملهُ إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»^(١)
- وَعَنْ سلمانَ - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - صلَّى الله عليه وآله - قال: «أربعٌ من عملِ الأحياءِ تجري للأمواتِ: رجلٌ تركَ عقباً صالحاً يدعو له، ينفعُهُ دعاؤُهُم..»^(٢)
- ٢ - البشاشةُ عندَ لقائِهِمَا، وتقبيلُ أيديهِمَا ورأسيهِمَا .
- ٣ - قضاءُ شؤنِهِمَا وديونِهِمَا .
- ٤ - إدخالُ السرورِ عليهِمَا بما يقدرُ عليه المرءُ من الأسبابِ، مثل: الهديةِ، والسفرِ بهما، والمزاحِ معهما، ونحوِ ذلك .
- ٥ - السهرُ على راحَتِهِمَا خصوصاً عندَ مرضِهِمَا .
- ٦ - تطيبُ سَمْعَتِهِمَا بالذكرِ الجميلِ .

(١) رواه مسلم (١٦٣١) .

(٢) العقيب: الولدُ غالباً، وتلحقُ به الذريةُ والورثةُ .

(٣) رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٨٨/١) .

٧ - إكرامُ أصدقائهما وأحبابهما.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَ الْأَبَ»^(١).

يقول النووي - يرحمه الله - :

«وفي هذا فضلُ صلةِ أصدقاءِ الأب، والإحسانِ إليهم، وإكرامِهِمْ، وهو مُتَضَمِّنٌ لِبِرِّ الْأَبِ وَإِكْرَامِهِ لِكَوْنِهِ بِسَبَبِهِ، وَتَلَحُّقُ بِهِ أَصْدِقَاءُ الْأُمِّ، وَالْأَجْدَادِ، وَالْمَشَايخِ، وَالزَّوْجِ، وَالزَّوْجَةِ»^(٢).

وَمِنْ إِكْرَامِ الْأَبِ إِكْرَامُ الْعَمِّ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»^{(٣) (٤)}.

وَمِنْ الْبِرِّ بِالْأُمِّ الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَالَةِ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»^(٥). وقوله: «الخالَةُ والدة»^(٦).

وَالْبِرُّ بِالْخَالَةِ لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - : «أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَبِيرًا، وَتَسَاءَلَ إِنْ كَانَ لَهُ تَوْبَةٌ، فَدَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - عَلَى بَابٍ مِنَ الْبِرِّ، يُكَفِّرُ عَنْهُ مَا أَذْنَبَ، فَقَالَ لَهُ: «الكَ وَالِدَانِ؟»، قَالَ: «لَا»، قَالَ: «فَلَيْتَ خَالَةً؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «فَبِرِّهَا إِذْنٌ»^(٧).

(١) رواه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) «بلوغ الأمانى» (٤١/١٩).

(٣) صِنْوُ أَبِيهِ: هذا تشبيه للأخوين فأكثر من أب واحد، وهم فروعه كالنخلتين فأكثر تفترقان من أصل واحد، والصنْو: هو المثل، وتثنيته صِنْوَانٍ، وَجَمَعَهُ صِنْوَانٌ، وَأَصْنَاءٌ.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٣/١).

(٥) رواه البخاري (٢٦٩٩) و(٤٢٥١) عن البراء.

(٦) رواه ابن سعد عن محمد بن علي مرسلًا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٤٠/١).

(٧) رواه الترمذي (١٩٠٤)، انظر «صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٤).

٨ - المشيُ أمامَهُما ليلاً، وخلفَهُما نهاراً.

٩ - التَّصَدُّقُ عَنْهُمَا بَعْدَ مَمَاتِهِمَا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ أَبِي مَاتَ، وَتَرَكَ مَالًا، وَلَمْ يُوصِرْ، فَهَلْ يُكْفَرُ عَنْهُ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهُ؟» قَالَ: «نَعَمْ»^(١).

وَصَدُّ الْبِرِّ الْعُقُوقُ، وَهُوَ مُحْرَمٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، بَلْ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا. قَالُوا: «بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»^(٢).

وَلَوْ لَمْ يُحْرَمِ اللَّهُ الْعُقُوقَ، لَكَانَ مِنْ نُبْلِ الْأَخْلَاقِ عَدَمُ عُقُوقِهِمَا، فَكِرَامُ النَّاسِ تَتَقَدَّمُ مَنَزَلَةُ وَالِدَيْهِمْ عَلَى النَّفْسِ، وَالْأَهْلِ، وَالْوَالِدِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ تَجَدُّ الرَّجُلُ يُحْسِنُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَلَا يَمَلُّ الْجُلُوسَ مَعَهُمْ، فَإِذَا جَلَسَ مَعَ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَجَدْتُهُ مُتَمَلِّمًا، كَأَنَّمَا هُوَ عَلَى الْجَمْرِ، فَهَذَا لَيْسَ بِيَارًا، بَلِ الْبَارُ مَنْ يَنْشِرُ صَدْرَهُ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَيَخْدُمُهُمَا عَلَى أَهْدَابِ عَيْنَيْهِ، وَيَحْرِصُ غَايَةَ الْحَرِصِ عَلَى رِضَاهُمَا بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ^(٣).

■ صُورٌ مِنْ عُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ:

■ لِلْعُقُوقِ صُورٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

١ - إِبْكَاءُ الْوَالِدَيْنِ وَتَحْزِينُهُمَا بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ.

عَنْ ابْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «اتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) رواه مسلم (١٦٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) و(٥٩٧٦) و(٦٢٧٣) و(٦٩١٩)، ومسلم (٨٧).

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص ٤١).

إني جئت أريد الجهاد معك؛ ابتغي وجه الله، والدار الآخرة، ولقد أتيت، وإن والدي بيكيان». قال: «فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»^(١).

٢ - التَّضَجُّرُ مِنْ مَطَالِبِهِمَا، وَالتَّأْفُفُ مِنْهُمَا، وَتَهْرُهُمَا، وَرَفْعُ الصَّوْتِ عَلَيْهِمَا، وَالْعُبُوسُ عِنْدَ لِقَائِهِمَا، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِمَا شَرًّا^(٢).

يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ ^(٣) وَلَا تَنْهَرَهُمَا ^(٤) وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ^(٥) ﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ^(٥) وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ (سورة الإسراء: ٢٣ - ٢٤).

٣ - شَتْمُهُمَا، بَلْ إِنَّ التَّسْبِيبَ إِلَى شَتْمِهِمَا مِنَ الْكِبَائِرِ، فَكَيْفَ بَشْتَمِهِمَا مَبَاشَرَةً؟! .

عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مِنَ الْكِبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ». قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَشْتَمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟». قَالَ: «نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ»^(٦).

٤ - اِتِّقَادُ مَا تُعْدهُ الْوَالِدَةُ مِنَ الطَّعَامِ، بَلْ إِنَّ الطَّعَامَ لَا يُعَابُ مُطْلَقًا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مِنْ إِعْدَادِ يَدِ الْوَالِدَةِ؟! .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَابَ طَعَامًا قَطُّ، كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَشْتَهِهِ سَكَتَ»^(٧).

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٨)، وابن ماجه - واللفظ له - (٢٧٨٢)، والنسائي (٨٦٩٦) و(٨٦٩٧)، وإسناده حسن.

(٢) نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا: هُوَ نَظَرُ الْعُضْبَانِ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ.

(٣) أُفٌ: كَلِمَةٌ تَضَجُّرُ وَكِرَاهَةٌ، وَهِيَ اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٍ.

(٤) لَا تَنْهَرُهُمَا: لَا تَرْجُرُهُمَا عَمَّا يَتَعَاطِيَانَهُنَّ مِمَّا لَا يُعْجَبُكَ.

(٥) أَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ: تَوَاضَعُ رَحْمَةً لَهُمَا، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمَا.

(٦) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم - واللفظ له - (٩٠).

(٧) رواه البخاري (٣٥٦٣) و(٥٤٠٩)، ومسلم - واللفظ له - (٢٠٦٤).

- ٥ - إِصْدَارُ الْأَمْرِ عَلَيْهِمَا .
 - ٦ - تَشْوِيهِ سُمْعَتَيْهِمَا أَمَامَ النَّاسِ بِذِكْرِ مَعَايِبِهِمَا ، وَالْمَأْخِذِ عَلَيْهِمَا .
 - ٧ - عَدَمُ الْإِسْرَاعِ فِي قَضَاءِ شُؤْنَيْهِمَا مِمَّا يُسَبِّبُ عِنْدَهُمَا الضَّيْقَ .
 - ٨ - تَرْكُ الْإِصْغَاءِ لِحَدِيثِهِمَا .
 - ٩ - الْبُخْلُ عَلَيْهِمَا ، وَتَعْدَادُ الْأَيَادِي .
 - ١٠ - الْبَقَاءُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ حَاجَةِ الْوَالِدَيْنِ إِلَى الْوَلَدِ ، وَعَدَمُ إِذْنِهِمَا لَهُ .
 - ١١ - إِيدَاعُهُمَا دُورَ الْعَجْزَةِ وَالْمُسْتِنِينَ .
 - ١٢ - تَمَنِّي زَوَالِهِمَا .
 - ١٣ - تَقْدِيمُ طَاعَةِ الزَّوْجَةِ عَلَيْهِمَا .
 - ١٤ - الشُّجَارُ أَمَامَهُمَا ، إِمَّا مَعَ الْأَخُوَّةِ ، أَوْ مَعَ الزَّوْجَةِ .
 - ١٥ - كَثْرَةُ الشُّكْوَى وَالْأَنِينِ أَمَامَهُمَا .
- وَأَخِيرًا قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْقَوِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ :-

ويحسنُ تحسینُ لخلقِ وصُحْبَةِ ■■■ ولاسيَّما لِلوَالِدِ الْمُتَأَكِّدِ
 وَلَوْ كَانَ ذَا كُفْرٍ ، وَأَوْجِبُ طَوْعَهُ ■■■ سِوَى فِي حَرَامٍ ، أَوْ لِأَمْرٍ مُؤَكَّدِ
 كَتِطْلَابِ عِلْمٍ لَا يَضُرُّهُمَا بِهِ ■■■ وَتَطْلِيْقِ زَوْجَاتِ بِرَائِي مُجَرَّدِ
 وَأَحْسِنِ إِلَى أَصْحَابِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ■■■ وَنَفْذِ وَصَايَا مِنْهُ فِي حُسْنِ مَعْهَدِ
 وَأَكْرِمْنَهُ بِاسْتِغْفَارِكَ إِنْ كُنْتَ بَارِرًا ■■■ فَهَذَا بِقَايَا بِرِّهِ الْمُتَعَوِّدِ^(١)



(١) «الألفية في الآداب الشرعية» (ص ٣٥).

صِلَةُ الرَّحِمِ



الصِّلَةُ - بكسر الصادِ المُهمَّلة -: مصدرٌ وَصَلَهُ كَوَعَدَهُ عِدَّةً.
 وَالرَّحِمُ: هُمُ الْقَرَابَةُ مِنْ ذَوِي النَّسَبِ وَالْأَصْهَارِ.
 وَصِلَةُ الرَّحِمِ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقْرَابِ، وَالتَّعَطُّفِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّفْقِ
 بِهِمْ، وَالرَّعَايَةَ لِأَحْوَالِهِمْ، وَإِنْ تَعَدُّوا وَأَسَاءُوا.
 وَصِلَةُ الرَّحِمِ مِنَ الْحُقُوقِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَقَرَّرَتْهَا
 الشَّرِيعَةُ السَّمْحَةُ.

فَلِلْقَرِيبِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِكَ فِي الْقَرَابَةِ حَقٌّ هَذِهِ الْقَرَابَةُ بِحَسَبِ قُرْبِهِ.
 قَالَ اللَّهُ - تعالى - : ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ (سورة الإسراء: ٢٦). وَقَالَ:
 ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (سورة النساء: ٣٦).
 وَلَقَدْ حَثَّ الرَّسُولُ - ﷺ - عَلَى تَوْثِيقِ الصَّلَاتِ بَيْنَ الْأَقْرَابِ.
 فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَصَلُّوا
 أَرْحَامَكُمْ»^(١).

عَلَيْكَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا ■■■ وَبِرِّ ذَوِي الْقُرْبَىٰ، وَبِرِّ الْأَبَاعِدِ
 وَلَا تَصْحَبَنَّ إِلَّا تَقِيًّا مُهْدَبًا ■■■ عَفِيفًا، ذَكِيًّا، مُنْجِرًا لِلْمَوَاعِدِ^(٢)

(١) رواه ابن عساکر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٨/١)، و«الصَّحِيحَةُ» (٨٦٩).

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٦١).

وَالإِحْسَانُ إِلَى الْأَقْرَابِ يَكُونُ إِمَّا بِبَدْلِ الْجَاهِ، أَوْ النَّفْعِ الْبَدَنِيِّ، أَوْ النَّفْعِ الْمَالِيِّ بِحَسَبِ مَا تَطَّلَبُهُ قُوَّةُ الْقَرَابَةِ وَالْحَاجَةِ، فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَلْيَكُنْ بِخُلُقِي حَسَنٍ: مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَبَسْطِ الْوَجْهِ، وَالطَّلَاقَةِ، وَكَيْنِ الْجَانِبِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْلِبُ التَّحَابَّ بَيْنَ الْأَقْرَابِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «بَلُّوا^(١) أَرْحَامَكُمْ، وَتَوَّابِئَكُمْ»^(٢).

وَحَقُّ الْقَرَابَةِ قَدْ ضُيِّعَ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْ قَبْلِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، فَتَجِدَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَصِلُ قَرَابَتَهُ لَا بِالْجَاهِ، وَلَا بِالْمَالِ، وَلَا بِالْخُلُقِ، تَمْضِي الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَالسِّنُونَ مَا رَأَهُمْ، وَلَا زَارَهُمْ، وَلَا تَحَبَّبَ بِهِدِيَّةٍ إِلَيْهِمْ، وَلَا جَلَبَ لَهُمْ مَنَفَعَةً، أَوْ دَفَعَ عَنْهُمْ مَضْرَّةً، بَلْ رَبَّمَا - إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ - أَسَاءَ إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ، أَوْ بِالْفِعْلِ، أَوْ بِهِمَا مَعًا، يَصِلُ الْبَعِيدَ، وَيَقْطَعُ الْقَرِيبَ!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَامِلُ قَرَابَتَهُ بِالْمِثْلِ، إِنْ وَصَلُوهُ وَصَلَهُمْ، وَإِنْ قَطَعُوهُ قَطَعَهُمْ، وَهَذَا لَيْسَ بِوَاصِلٍ فِي الْحَقِيقَةِ، بَلْ هُوَ مُكَافِيٌّ لِلْمَعْرُوفِ بِمِثْلِهِ، وَالْمُكَافَأَةُ عَلَى الْمَعْرُوفِ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْقَرِيبُ وَغَيْرُهُ، وَالْوَاصِلُ - حَقِيقَةٌ - هُوَ مَنْ يَصِلُ قَرَابَتَهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، وَلَا يُبَالِي سَوَاءً وَصَلُوهُ أَمْ لَا.

عَنْ ابْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِيءِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَّاهَا»^(٣).

(١) بلوا أرحامكم: نذرهما بصلتها، وهم يطلقون الندوة على الصلّة، كما يطلقون العبس على القطيعة.

(٢) «السلسلة الصحيحة» (١٧٧٧)، من حديث سويد بن عامر.

(٣) رواه البخاري (٥٩٩١).

وَلَقَدْ حَشَّنَا الرَّسُولُ - ﷺ - عَلَى آدَاءِ حَقِّ الرَّحِمِ، وَإِنْ عَامَلُونَا بِالْجَفْوَةِ،
وَالْغِلْظَةِ، وَالشَّرِّ فِي حِينٍ أَنَّهُ يُطْمِئِنَّا عَلَى مُسْتَقْبَلِنَا، وَيَزِيحُ عَنْ قُلُوبِنَا الْيَأْسَ.
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي قَرَابَةٌ أَصْلِبُهُمْ
وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: لَنْ
كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكأنَّمَا تُسْفِهُهُمْ^(١) الْمَلُّ^(٢)، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ^(٣) عَلَيْهِمْ،
مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ،^(٤).

قال محمد بن عبد الله الأزدي:

وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ ■ ■ ■ مَنَاوَةٌ^(٥) ذِي الْقُرْبَى، وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيئِهِ، وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ ■ ■ ■ لَتُرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرُّوَاجِعِ
وَلَا يَسْتَوِي فِي الْحُكْمِ عَبْدَانِ: وَاصِلٌ ■ ■ ■ وَعَبْدٌ لِأَرْحَامِ الْقَرَابَةِ قَاطِعٌ^(٦)



(١) تُسْفِهُهُمْ - مِنَ السَّفْوَةِ -: تَطْعَمُهُمْ وَتُلْقِمُهُمْ.

(٢) الْمَلُّ: قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: أَصْلُ الْمَلَّةِ: التُّرْبَةُ الْمُحْمَاةُ تُدْفَنُ فِيهَا الْحَبْزَةُ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْمَلُّ: الْجَمْرُ، وَيُقَالُ لِلرَّمَادِ الْحَارِّ - أَيْضًا - الْمَلُّ، وَالْمَلَّةُ: مَوْضِعُ الْحَبْزَةِ. يَقُولُ: إِذَا لَمْ
يَشْكُرُوكَ، فَإِنَّ عَطَاءَكَ إِيَّاهُمْ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ، وَنَارٌ فِي بَطُونِهِمْ. فِيهِ تَشْبِيهٌُ لِمَا يُلْحَقُهُمْ مِنَ الْإِثْمِ بِمَا يُلْحَقُ
أَكْلَ الرَّمَادِ الْحَارِّ مِنَ الْأَلْمِ.

(٣) الظَّهِيرُ: الْمُعِينُ وَالنَّاصِرُ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٥٨).

(٥) مَنَاوَةٌ: مُعَادَاةٌ.

(٦) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ١٥٣).

■ فضائلُ صلةِ الرَّحِمِ:

لصلةِ الرَّحِمِ فضائلُ جمَّةٌ، منها:

١ - أنها شعارُ الإيمانِ باللهِ، واليومِ الآخرِ.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وآله - : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ^(١).

٢ - إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يَصِلُ الْوَاصِلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِيمَدُّهُ بِالرَّحْمَةِ، وَيُسِّرُ لَهُ الْأُمُورَ، وَيُفْرَجُ عَنْهُ الْكُرْبَاتِ:

عن عبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وآله - يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ - تعالى - : إنا الرَّحْمَنُ، وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتُهُ» ^(٢) ^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وآله - : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ ^(٤)، قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصَلِكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟» قالت: بلى، قال: فذلك لك».

(١) رواه البخاري (٦١٣٨).

(٢) بتته: قَطَعَتْهُ.

(٣) رواه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٤/٢)، و«الصَّحِيحَةُ» (٥٢٠).

(٤) فَرَّغَ مِنْهُمْ: كَمَلْ خَلَقَهُمْ.

(٥) العائد والمستعيد: هو المعتصمُ بالشيءِ، المتجنىُّ إليه.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (سورة محمد: ٢٢-٢٣)»^(١).

٣. أَنَّهَا أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ - تعالى - بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ:

عَنْ رَجُلٍ مِنْ خَثْعَمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ، ثُمَّ صَلَاةُ الرَّحِمِ»^(٢).

٤. أَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ:

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - ، فَقَالَ: «دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْنِينِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ». قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزُّكَاةَ، وَتَصِلُ ذَا رَحِمِكَ». فَلَمَّا أَدْبَرَ^(٣)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أَمْرٌ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

٥. أَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ الْبِرْكَةِ فِي الرِّزْقِ وَالْعَمْرِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَاطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ»^(٥)، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي آثَرِهِ^(٦)، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٧).

(١) رواه البخاري (٤٨٣٠) و(٥٩٨٧) و(٥٧٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٦٦).

(٣) أدبَرَ: ولى وذهب.

(٤) رواه البخاري (١٣٩٦) و(٥٩٨٣)، ومسلم - واللفظ له - (١٣).

(٥) يُسَاطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ: يُوسَعُ لَهُ فِيهِ.

(٦) يُنْسَأُ لَهُ فِي آثَرِهِ: يُؤَخَّرُ لَهُ فِي أَجَلِهِ وَعُمُرِهِ.

(٧) رواه البخاري (٢٠٦٧) و(٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

٦. أَنهَا تُعَمَّرُ الدِّيَارَ:

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «صِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ. يُعَمَّرُنَ الدِّيَارَ، وَيَزِدُنَ فِي الْأَعْمَارِ»^(١).

٧. أَنهَا تَجْلِبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ - تَعَالَى - لَلْمُتَوَاصِلِينَ فِيهِ:

عَنْ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «حُقَّتْ^(٢) مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِي»^(٣).

٨. أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ أَكْبَرُ أَجْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى الْمَسْكِينِ:

عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ»^(٤).

وَعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَيُّ جَزِيٍّ^(٥) عَنِّي مِنَ الصَّدَقَةِ النَّفَقَةُ عَلَى زَوْجِي، وَأَيُّ تَامٍ فِي حَجْرِي؟». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «نَعَمْ، وَلَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»^(٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) حُقَّتْ: وَجِبَتْ.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٩/٥)، والحاكم في «المستدرک»، والطبرانی في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٢١/٢).

(٤) رواه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٥٨/٢).

(٥) أي جزئ: أي كفي.

(٦) رواه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً^(١) فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَذَكَرَنَّ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ : «لَوْ أَعْطَيْتَهَا أَخْوَالَكَ، كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكَ»^(٢) .

٩ . أَنَّهَا سَبَبُ لُشْيُوعِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّرَابُطِ بَيْنَ الْأَقْرَابِ :

عَنْ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «صِلَةُ الْقَرَابَةِ مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ»^(٣) .

١٠ . أَنَّهَا أَعْجَلُ الطَّاعَةِ ثَوَابًا :

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «وَأَنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّىٰ إِنْ أَهَلَ الْبَيْتَ لِيَكُونُوا فَجْرَةً، فَتَنَمُوا أَمْوَالَهُمْ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، إِذَا تَوَاصَلُوا»^(٤) .

وَضِدُّ الصِّلَةِ الْقَطِيعَةُ، وَهِيَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ .

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»^(٥) .

وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ مِنْ أَعْجَلِ الْمَعْصِيَةِ عُقُوبَةً .

(١) الوليدة: الأمة.

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢) و(٢٥٩٤)، ومسلم (٩٩٩).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٦٨/٢).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠٥/٢)، و«الصحيح»

(٩١٥) و(٩٧٨).

(٥) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا - مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ - مِثْلُ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» (١).

■ أسباب قطيعة الرحم:

الأسباب كثيرة جداً، ولعل من أبرزها ما يلي:

- ١ - الجهلُ بحقوقِ الأقاربِ.
- ٢ - ضعفُ التقوى.
- ٣ - الكبرُ.
- ٤ - الانقطاعُ الطويلُ الذي يسببُ الوحشةَ والنسيانَ.
- ٥ - التَّكْلُفُ الزَّائِدُ مِنْ قَبْلِ الْمَوْصُولِ، مِمَّا يَجْعَلُ الْوَاصِلَ لَا يَحْرِيصُ عَلَى زِيَارَتِهِ؛ لِثَلَاثٍ يَقَعُ فِي الْحَرَجِ.
- ٦ - اللامبالاةُ، وَعَدَمُ الْإِكْتِرَاثِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالزَّائِرِينَ مِنَ الْأَقْرَابِ.
- ٧ - الْعِتَابُ الشَّدِيدُ مِنْ بَعْضِ الْأَقْرَابِ، مِمَّا يُسَبِّبُ الْغُرَّةَ مِنْهُ.
- ٨ - الشُّحُّ وَالْبُخْلُ مِمَّنْ آتَاهُ اللَّهُ بِسَطَّةٍ فِي الرِّزْقِ، فَتَرَاهُ لَا يُوَاصِلُ قَرَابَتَهُ؛ لِثَلَاثٍ يَخْسِرُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَالِهِ: كَاسْتِدَانَتِهِمْ مِنْهُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.
- ٩ - نسيانُ بعضِ الأقاربِ في الولاةِ، الْأَمْرُ الَّذِي يُسَبِّبُ سُوءَ الظَّنِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

(١) رواه أبو داودَ (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجة (٤٢١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠٤/٢)، و«الصَّحِيحَةُ» (٩١٨).

- ١٠ - الوشاية والإصغاء إليها.
- ١١ - المزاح الخارج عن حد الاعتدال.
- ٢ - المن وتعداد الأيدي، والمطالبة بالمثل.
- ١٣ - الطلاق بين الأقارب.
- ١٤ - تأجيل قسمة الميراث بين الأقارب.
- فعلى الأقارب أن يحاولوا اجتناب هذه الأسباب المؤدية للقطيعة، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وَكَانَ وَأَصِلَ الْأَرْحَامَ حَتَّى الْكَاشِحِ ۝ ۝ تُوَفِّرُنِي غَمْرًا وَرِزْقًا وَتَسْعِدُنِي
 وَلَا تَقْطَعِ الْأَرْحَامَ، إِنَّ قَطِيْعَةً ۝ ۝ لِذِي رَحِمٍ كُبْرَى مِنْ اللَّهِ تَبْعِدُ
 فَلَا تَغْشَى قَوْمًا رَحِمَهُ اللَّهُ فِيهِمْ ۝ ۝ تَوَى (١) قَاطِعٌ، قَدْ جَاءَ ذَا بَتْوَعْدٍ (٢)



(١) توى: أقام.

(٢) «الألفية في الآداب الشرعية» (ص ٣٥).

حُسْنُ الْجَوَارِ



لِلْجَارِ عَلَى جَارِهِ حَقٌّ عَظِيمٌ، وَهَذَا الْحَقُّ يَتَفَاوَتُ مِنْ جَارٍ لِآخَرَ بِحَسَبِ مَنْزِلَةِ الْجَارِ.

■ أقسامُ الجيران:

الجيرانُ ثلاثة:

الأول - جاره ثلاثة حُقوق: وهو الجارُ المسلمُ القريبُ مِنْكَ نَسَبًا، له حقُّ الجوارِ، وحقُّ الإسلامِ، وحقُّ القرابةِ.

الثاني - جاره حقان: وهو الجارُ المسلمُ غيرَ القريبِ مِنْكَ فِي النَّسَبِ، له حقُّ الجوارِ، وحقُّ الإسلامِ.

الثالث - جاره حقٌ واحد: وهو الجارُ الكافرُ، له حقُّ الجوارِ.

أَكْرَمَ الْجَانِ وَرَاعَ حَقَّهُ ■ ■ ■ إِنَّ عِرْفَانَ^(١) الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمٌ^(٢)

■ عَظْمَةٌ مَنْزِلَةُ الْجَارِ:

لِلْجَارِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَكَانَةٌ عَلِيَّةٌ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةُ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْحَثِّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَالتَّرغِيبِ فِي ذَلِكَ، وَلِنَقْتَطِفُ مِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ مَا يَلِي:

(١) عِرْفَان: مَعْرِفَةٌ.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٦٠).

١ - قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ۝ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ۝ ﴾ (سورة النساء: ٣٦).

٢ - وعن ابنِ عمرَ وعائشةَ - رضي الله عنهما - قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ» ^(١) ^(٢).

وعن ابنِ عمرَ - رضي الله عنهما - أَنَّهُ ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «أَهْدَيْتُمْ لْجَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟، أَهْدَيْتُمْ لْجَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ» ^(٣) ^(٤).

٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُوذِ جَارَهُ» ^(٥).

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ».

٤ - وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ!»، قِيلَ: «مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»، قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ» ^(٦) ^(٧) ^(٨).

وفي روايةٍ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ» ^(٩).

(١) الجار ذي القربى: الذي بينك وبينه قرابة.

(٢) الجار الجنب: الذي ليس بينك وبينه قرابة.

(٣) أي ظننت أنه سيلغني عن الله الأمر بتوريث الجار جاره. وفي هذا تأكيدٌ عظيمٌ على الحث على رعاية حقوقه.

(٤) رواه البخاري (٦٠١٤) و(٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٤) و(٢٦٢٥).

(٥) رواه الترمذي (١٩٤٣)، وقال: حسنٌ غريبٌ.

(٦) رواه البخاري (٥١٨٥) و(٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٧) البوائق: الغوائل والشُرور، والمفرد بائقةٌ.

(٨) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٩) رواه مسلم (٤٦).

٥ - وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرْنَ جَارَةً لَجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسِينَ^(١) شاة»^(٢).

فعليك - أخي الكريم - بالإحسان إلى جارك بتقديم الهدايا - ولو كانت رمزية - له في المناسبات؛ فإن الهدية تجلب المودة، وتزيل العداوة، وأحق الجيران بها أقربهم منك باباً.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي جَارَيْنِ، فَبِأَيِّ أَيْهَمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بِأَبَا»^(٣).

٦ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَا يَمْنَعُ جَارُ جَارِهِ أَنْ يَغْرِزَ خَشْبَةً فِي جِدَارِهِ». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟»^(٤)، وَاللَّهُ، لِأَرْمِينِ بِهَا بَيْنَ أَكْتافِكُمْ^(٥)،^(٦).

وفي رواية: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَمْنَعَ جَارُهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشْبَهُ فِي دَارِهِ»^(٧).

٧ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً»^(٨)، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ.

(١) فَرَسِينَ الشَّاةُ: ظَلْفُهَا. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْفَرَسِيُّ مِنَ الْبَعِيرِ كَالْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ. قَالَ: وَرَبَّمَا اسْتَعِيرَ فِي الشَّاةِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٦٦) وَ (٦٠١٧) وَمُسْلِمٌ (١٠٣٠).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٢٥٩) وَ (٢٥٩٥) وَ (٦٠٢٠).

(٤) يَعْنِي عَنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

(٥) أَي: بَيْنَكُمْ. وَفِيهِ رَجُوبٌ تَمَكِينُ الْجَارِ مِنْ وَضْعِ الْخَشْبِ عَلَى جِدَارِ جَارِهِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

(٦) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٦٣)، وَمُسْلِمٌ (١٦٠٩).

(٧) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٢٧).

(٨) أَي ذَا مَرَقٍ مِنْ لَحْمِ دَجَاجٍ، وَغَنَمٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وفي رواية: أن أبا ذر قال: إن خليلي - ﷺ - أوصاني: «إذا طبخت مرقاً، فاكثِرْ ماءً، ثم انظر أهل بيت من جيرتك، فأصيهم منها بمعروف»^(١).

٨ - وعن ابن عمرو - رضِيَ اللهُ عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٢).

٩ - وعن المقداد بن الأسود - رضِيَ اللهُ عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: «حرام حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة». فقال رسول الله - ﷺ - : «لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: «حرمها الله ورسوله، فهي حرام». قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره»^(٣).

١٠ - وعن أبي هريرة - رضِيَ اللهُ عنه - قال: قيل: «يا رسول الله، إن فلانة تصلي الليل، وتصوم النهار، وفي لسانها شيء، تؤذي جيرانها، سليطة». قال: «لا خير فيها، هي في النار». وقيل له: «إن فلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بالأثوار»^(٤)، وليس بها شيء غير، ولا تؤذي أحداً». قال: «هي في الجنة»^(٥).

ولفظ الإمام أحمد: «ولا تؤذي بلسانها جيرانها».

(١) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٢) رواه الترمذي (١٩٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٣٢٧٠)، و«الصحيح» (١٠٣).

(٣) رواه أحمد في «المستد»، والبخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٥٠٤٣)، و«الصحيح» (٦٥).

(٤) الأثوار: هو اللبن الجامد المستحجر.

(٥) رواه أحمد (٢/٤٤٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٩)، وصححه الحاكم (٤/١٦٦)، ووافقه الذهبي.

والتُّصُوصُ الَّتِي جَاءَتْ بِالْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ، وَمُرَاعَاةِ حَقِّهِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَكْفِي مِنَ الْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ.

فَمَا أَحَدٌ مِمَّنَا بِمُهْدٍ لِحَارِهِ ۝ ۝ ۝ اذاعة، ولا مُزْرِبِهِ وَهُوَ عَائِدٌ
لأننا نرى حق الجوار أمانة ۝ ۝ ۝ ويحفظه من الكريم المعاهد^(١)

وَمِنَ اللَّطَائِفِ هُنَا أَنْ أَمْرًا كَانَ لَهُ مَنْزِلٌ أَمَامَ أَبِي دُلْفَ بِالزُّورَاءِ^(٢)، فَرَكِبَهُ مِثُونَ مِنَ الدِّيُونِ حَتَّى تَضَاءَلَ، وَاحْتِاجَ إِلَى بَيْعِ دَارِهِ، فَسَاوَمَهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ دَارَكَ لَا تُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، فَقَالَ: أَجَلٌ، وَلَكِنِّي أَبِيعُهَا بِخَمْسِمِائَةٍ، وَأَبِيعُ جِوَارَهَا بِخَمْسِمِائَةٍ أُخْرَى، فَبَلَغَ الْقَوْلُ أَبَا دُلْفَ، فَقَضَى دَيْنَهُ وَوَصَلَهُ.
ولله درُّ القائل:

يَلُومُونَنِي أَنْ بَعْتُ بِالرُّخْصِ مَنْزِلِي ۝ ۝ ۝ وَلَمْ يَعْرِفُوا جَارًا هُنَاكَ يُنْغِصُ
فَقُلْتُ لَهُمْ: كُفُّوا الْمَلَامَ؛ فَإِنَّمَا ۝ ۝ ۝ بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ^(٣)

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ حِينَ رَحَلَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ:

وَقَائِلَةٌ: مَا لِي أَرَاكَ مُرَحَّلًا؟ ۝ ۝ ۝ فَقُلْتُ: صَبْرًا، وَاسْمَعِي الْقَوْلَ مُجْمَلًا
تَنَكَّرَ مَنْ كُنَّا نُسَرِّبُ قُرْبِهِ ۝ ۝ ۝ وَعَادَ زُعَافًا بَعْدَمَا كَانَ سَلْسَلًا
وَحَقُّ لِحَارِ لَمْ يُوَافِقْهُ مَقْعَدًا ۝ ۝ ۝ وَلَا لَاءَ مَتَهُ الدَّارُ - أَنْ يَتَرَحَّلًا
أَلَيْسَ بِحَزْمٍ مَنْ لَهُ الظِّلُّ مَقْعَدًا ۝ ۝ ۝ إِذَا أَدْرَكَتَهُ الشَّمْسُ أَنْ يَتَحَوَّلًا؟

(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص ٧٠).

(٢) الزوراء: اسم لبغداد.

(٣) «بهجة المجالس» (١/٢٣).

بَلِيَّتُ حِمَصٍ^(١) وَالْمُقَامُ بَيْلُدَةٌ ٥ ٥ ٥ طويلاً - لَعَمْرِي - مُخْلِقُ يُوْرثُ الْبِيْلَا
 إِذَا هَانَ حُرٌّ عِنْدَ قَوْمِ أَتَاهُمْ ٥ ٥ ٥ وَلَمْ يَنَأْ عَنْهُمْ، كَانَ أَعْمَى وَأَجْهَلَا
 وَلَمْ تُضْرَبِ الْأَمْثَالُ إِلَّا لِعَالِمٍ ٥ ٥ ٥ وَلَا غَرَبَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْقِلَا^(٢)

أَخِي الْكَرِيمُ، أَدَّ حُقُوقَ جِيرَانِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِمَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْجَاهِ،
 وَالنَّفْعِ الْبَدَنِيِّ وَالْمَالِيِّ، وَكُفَّ الْأَذَى عَنْهُمْ الْقَوْلِيَّ وَالْفِعْلِيَّ، وَأَعْلَمَ أَنَّ حُسْنَ
 الْجَوَارِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ تَعْمِيرِ الدِّيَارِ، وَزِيَادَةِ الْأَعْمَارِ كَمَا سَبَقَ^(٣).

قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

وَحِفَاطَ جَارٍ لَا تُضِعْهُ، فَإِنَّهُ ٥ ٥ ٥ لَا يَبْلُغُ الشَّرْفَ الْجَسِيمَ مُضِيعٌ^(٤)

وَقَالَ آخَرُ:

وَالْجَارُ لَا تَذْكُرْ كَرِيمَةً بَيْنَهُ ٥ ٥ ٥ وَأَغْضَبْ لِكَلْبِ الْجَارِ إِنْ هُوَ أَغْضِبَ
 أَحْفَظْ أَمَانَتَهُ، وَكُنْ عِزًّا لَهُ ٥ ٥ ٥ أَبْدَاءُ، وَعَمَّا سَاءَهُ مُتَجَنِّبَا
 كُنْ لِيْنَا لِلْجَارِ، وَأَحْفَظْ حَقَّهُ ٥ ٥ ٥ كَرَمًا، وَلَا تَكُ لِلْمُجَاوِرِ عَقْرِيَا



(١) حمص: اسم إشبيلية، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْفَاتِحِينَ مِنْ أَهَالِي حِمَصِ الشَّامِ نَزَلُواهَا.

(٢) «الآداب الشرعية» (١٠٦/٢).

(٣) جاء ذلك في حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - في (ص ١٥، ١٠٠).

(٤) «جواهر الأدب» (ص ٦٦٢).

حُسْنُ السَّمْتِ



حُسْنُ السَّمْتِ: هُوَ حُسْنُ الْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ لِلإِنْسَانِ مِنْ طَرِيقَةِ الْحَدِيثِ وَالصَّمْتِ، وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَالذُّخُولِ وَالخُرُوجِ، وَالسَّيْرَةَ الْعَمَلِيَّةَ فِي النَّاسِ، بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَسْمَعُهُ أَنْ يَنْسِبَهُ إِلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَالذِّيَانَةِ وَالْفَلَاحِ^(١).

فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُحْسِنَ تَعَاهُدَ نَفْسِهِ فِي لِبَاسِهِ، وَنِظَافَةَ بَدَنِهِ، وَلِيَسْتَعْمَلَ الطَّيِّبَ وَالسُّوَاكَ، وَيزِنَ كَلَامَهُ، فَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِخَيْرٍ أَوْ لِيَصْمُتَ، فَهَذَا مِنْ السَّمْتِ، وَالسَّمْتُ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ الْهُدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالِاِقْتِصَادَ - جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»^(٢).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفَنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»^(٣).

(١) «نظرة التعميم» (١٥٨٨/٥).

(٢) رواه أبو داود - واللفظ له - (٤٧٧٦)، وأحمد (٢٩٦/١)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٢٤٤/٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٩٣/١).

(٣) رواه أبو داود (٣٨٧٨) و(٤٠٦١)، والترمذي (٩٩٤)، وصححه الحاكم (١٨٥/٤)، ووافقه الذهبي، وقال محقق جامع الأصول: هو كما قال (٦٦٨/١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٦/١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنه - قَالَ: اتانا رسولُ اللهِ - ﷺ - فرأى رجلاً شعثاً^(١)، قد تفرق شعره، فقال: «أما كان هذا يجد ما يسكن به شعرة؟» ورأى رجلاً آخر، وعليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - : «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمَهُ»^(٣).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ - رضي الله عنه - قَالَ: «إِنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ دَلًّا^(٤)، وَسَمْتًا^(٥)، وَهَدِيًّا^(٦) بِرَسُولِ اللهِ - ﷺ - لَا بَنُ أُمَّ عَبْدِ^(٧) مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ، لَا نَدْرِي مَا يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ إِذَا خَلَا»^(٨).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا، وَدَلًّا، وَهَدِيًّا بِرَسُولِ اللهِ فِي قِيَامِهَا، وَقُعُودِهَا - مِنْ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -»^(٩).

وَكَانَ السَّلْفُ - رضي الله عنهم - يَرْحَلُونَ لِتَعَلُّمِ حُسْنِ السَّمْتِ مِنْ أَهْلِهِ، كَمَا يَرْحَلُونَ لِطَلْبِ الْعِلْمِ.

(١) شعثًا: مُغْبِرَ الرَّأْسِ.

(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٢)، وروى النَّسَائِيُّ شَطْرَهُ الْأَوَّلَ (٥٢٣٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٣٣/١)، و«الصَّحِيحَةُ» (٤٩٣).

(٣) رواه أبو داود (٤١٦٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٩٣/٢)، وهو في «الصَّحِيحَةُ» (٥٠٠).

(٤) الدُّلُّ: الحالة التي يكون عليها الإنسان مِنَ السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ وَالطَّرِيقَةِ.

(٥) السَّمْتُ: حُسْنُ الْمَنْظَرِ فِي أَمْرِ الدِّينِ.

(٦) الْهَدْيُ: السَّيْرَةُ وَالطَّرِيقَةُ.

(٧) ابن أم عبد: هو عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -.

(٨) رواه البخاري (٣٧٦٢) و(٦٠٩٧).

(٩) رواه أبو داود (٥٢١٧)، والتَّرمِذِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٣٨٧٢)، والنَّسَائِيُّ فِي «الْكُبْرَى» (٨٣٦٩)،

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - يَرْحَلُونَ إِلَى عُمَرَ - رضي الله عنه - فَيَنْظُرُونَ إِلَى سَمْتِهِ، وَهَدْيِهِ، وَدَلِّهِ، فَيَتَشَبَّهُونَ بِهِ»^(١).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ:

«خَرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: أَنَّ أَصْحَابَ ابْنِ مَسْعُودٍ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى سَمْتِهِ، وَهَدْيِهِ، وَدَلِّهِ، فَيَتَشَبَّهُونَ بِهِ»^(٢).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«كَانُوا إِذَا اتَّوَا الرَّجُلَ؛ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ، نَظَرُوا إِلَى صَلَاتِهِ، وَإِلَى سَمْتِهِ، وَإِلَى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ»^(٣).

وَقَالَ الْأَعْمَشُ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْفَقِيهِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى لِبَاسِهِ وَنَعْلَيْهِ»^(٤).

وَقِيلَ لِابْنِ الْمُبَارِكِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«أَيْنَ تَرِيدُ؟» قَالَ: «إِلَى الْبَصْرَةِ». فَقِيلَ لَهُ: «مَنْ بَقِيَ؟». قَالَ: «ابْنُ عَوْنٍ آخِذٌ مِنْ أَخْلَاقِهِ، آخِذٌ مِنْ آدَابِهِ»^(٥).

(١) «الصَّحَاحُ» (٤/١٦٩٩)، و«اللِّسَانُ» (٣/١٤٢٣). قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «عُمَرُ أَشَبَّهُ النَّاسَ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ - عليه السلام -، وَأَشَبَّهُ النَّاسَ بِعُمَرَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَبِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَالِمٍ» «الْفَتْحُ» (٥١٠/١٠).

(٢) «الْفَتْحُ» (٥١٠/١٠).

(٣) و(٤) و(٥) «الْأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ» (٢/٢٥٥).

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ - أَيْضًا :-

«لَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ ابْنِ عَجَلَانَ، كُنْتُ أَشْبَهُهُ
بِالْيَاقُوتَةِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ»^(١).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ :-

«كُنَّا نَأْتِي الرَّجُلَ، مَا نُرِيدُ عِلْمَهُ، لَيْسَ إِلَّا أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَدْيِهِ وَسَمْتِهِ
وَدَلِّهِ»^(٢).

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ :-

«قَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَقْصِدُونَ الْعَبْدَ الصَّالِحَ لِلنَّظَرِ إِلَى سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ،
لَا لِاقْتِبَاسِ عِلْمِهِ؛ وَذَلِكَ أَنْ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ هَدْيُهُ وَسَمْتُهُ»^(٣).

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

«كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءَ»^(٤) خَمْسَةَ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ، أَقَلُّ مِنْ
خَمْسِمِائَةٍ يَكْتُبُونَ، وَالْبَاقِي يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ حُسْنَ الْأَدَبِ، وَحُسْنَ السَّمْتِ»^(٥).



(١) «الجرح والتعديل» (١/٢٧٣).

(٢) «الأدب الشرعية» (٢/٢٥٥).

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٢١٦).

(٤) زُهَاءُ خَمْسَةَ آلَافٍ: قَدْرُ خَمْسَةِ آلَافٍ.

(٥) «الأدب الشرعية» (٢/٩٧).

الوقارُ



الوقارُ: هو الإمساكُ عن فضول الكلام والعبث، وكثرة الإشارة والحركة فيما يُستغنى عن التحرك فيه، وقلة الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عن الجواب، والتحفُّظ من التسرع، والمباكرة في جميع الأمور^(١).

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، والإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء^(٢) في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»^(٣).

وعنه عن النبي - ﷺ - قال: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار^(٤)، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا»^(٥).

والحُصُولُ عَلَى الوقار يكون بتقوى الله وتوقيره، ومن طلب التوقير من الناس - وهو لا يعظم الله، ولا يوقره - فقد طلب محالاً، والله در العلامة الرباني ابن القيم - يرحمه الله - حين قال: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق، وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها».

(١) تهذيب الأخلاق.

(٢) الخيلاء: الكبر، واحتقار الناس، والعجب عليهم.

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - (٣٣٠١) و(٣٤٩٩) و(٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢).

(٤) قال النووي - يرحمه الله - كما في «الفتح» (١٣٩/٢): «الفرق بين السكينة والوقار: أن السكينة هي التأمين في الحركات، واجتناب العبث، والوقار في الهيئة: كغض البصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات».

(٥) رواه البخاري - واللفظ له - (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

قَالَ - تَعَالَى - : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (سورة نوح: ١٣). أي لا تعاملونه
معاملة مَنْ تَوْقَرُونَهُ، وَالتَّوْقِيرُ: التَّعْظِيمُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَتَوَقَّرُوهُ ﴾
(سورة الفتح: ٩) ^(١).

وَالْوَقُورُ يُدْرِكُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ مِنْ مَعَانِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ.

قَالَ رَجُلٌ يَصِفُ الْإِمَامَ مَالِكًا:

يَدْعُ الْجَوَابَ، وَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةَ ■ ■ ■ وَالسَّائِلُونَ نَوَاصِئُ الْأَذْقَانِ ^(٢)

نُورُ الْوَقَارِ، وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ■ ■ ■ فَهُوَ الْمَهْيَبُ، وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ ^(٣)

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ:

مَنْ كَانَ مُلْتَمَسًا جَلِيسًا صَالِحًا ■ ■ ■ فَلَيَأْتِ حَلَقَةً مِسْعَرِينَ كِدَامَ

فِيهَا السُّكَيْنَةُ وَالْوَقَارُ وَأَهْلُهَا ■ ■ ■ أَهْلُ الْعَفَافِ، وَعَلِيَّةُ الْأَقْوَامِ ^{(٤)(٥)}



(١) «الفوائد» (ص ٣٢٩).

(٢) نَوَاصِئُ الْأَذْقَانِ: مَطَاطِنُ الرَّءُوسِ، وَالْمُفْرَدُ نَاكِسٌ، وَهُوَ مِنَ الْجَمْعِ الشَّاذُّ.

(٣) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) (ص ٧٨).

(٤) عَلِيَّةُ الْأَقْوَامِ: أَشْرَفُهَا وَأَرْفَعُهَا، وَالْمُفْرَدُ عَلِيٌّ، كَصَبِيٍّ وَصَبِيَّةٍ.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧٠).

الرَّفْقُ



الرَّفْقُ: هُوَ لِينُ الْجَانِبِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَالْأَخْذُ بِالْأَسْهَلِ، وَهُوَ ضِدُّ الْعُنْفِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَالْأَنَاءِ، وَالرِّزَانَةِ، وَحِظُّ الْمَرْءِ مِنَ التَّوْفِيقِ بِقَدْرِ حِظِّهِ مِنَ الرَّفْقِ.

قَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُتِنُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩).

وَقَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سورة طه: ٤٣-٤٤).

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»^(١).

وَعنها أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^{(٢) (٣)}.

وَعنها أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، اِرْفَقِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ»^(٤).

(١) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) شَانَهُ: عَابَهُ.

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١٠٤/٦)، ورجاله رجال الصَّحِيح، وهو في «الصَّحِيحَة» (٥٢٣)، ورواه ابن أبي الدنيا في ذمِّ الغضب بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتٍ، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ»، وهذا صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٠٤/١)، و«الصَّحِيحَة» (١٢٣٩).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»^(١).

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَنْ يَحْرَمَ الرَّفْقَ يُحْرَمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

لَوْ سَارَ أَنْفُ مُدَجِّجٍ^(٣) فِي حَاجَةِ هَاهُ هَاهُنَا لَمْ يَقْضِهَا إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَّقُ^(٤)

وَالرَّفْقُ لَا يَكُونُ مَعَ بَنِي الْإِنْسَانِ فَحَسَبَ، بَلْ يَكُونُ حَتَّى مَعَ الْحَيَوَانَ.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - رضي الله عنه - عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ»^(٥)، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَتُحَدِّدُ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ^(٦)، وَتُيْرِحُ ذَبِيحَتَهُ^(٧)»^(٨).

وَقَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - الذُّرْوَةَ فِي رَفْقِهِ بِأُمَّتِهِ، وَلَا غُرُوفَ فَهُوَ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ١٢٨).

(١) رواه الترمذي (٢٠١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٥٥/٢)، و«الصحيح» (٥١٩) و (٨٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢)، بدون كلمة «كله» وهي من زيادة أبي داود.

(٣) المدجج: الفارس الذي قد توارى بالسلاح من كثرتِه.

(٤) «روضة العقلاء» (ص ٢١٦).

(٥) القِتْلَةُ: الهيئة والحالة التي يكون عليها القتل لمن استحقه، وكذلك الذَّبْحَةُ.

(٦) الشَّفْرَةُ: هي حدُّ السكين الذي يكون الذَّبْحُ من جانبه.

(٧) ذبِيحَتُهُ: مذبوحته، سُمِّيَتْ ذبِيحَةً باعتبار ما تُؤَلُّ إليه.

(٨) رواه مسلم (١٩٥٥).

وَمِنْ أَمْثَلَةِ رِفْقِهِ بِأُمَّتِهِ مَا يَلِي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَطَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا»، ثُمَّ قَالَ: «أَعْطُوهُ سِنًا مِثْلَ سِنِّهِ». قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ». فَقَالَ: «أَعْطُوهُ؛ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»^(١).

وَعَنْهُ قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «دَعُوهُ، وَهَرِيْقُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ سَجَلًا»^(٢) مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنْوِبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تَبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٣).

وَعَنْهُ قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ؛ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا». فَقِيلَ: «هَلَكْتَ دَوْسُ»، قَالَ: «اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ»^(٤).

وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَإِنَّا أُرِيدُ إِطْلَاقَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَجَوَّزُ»^(٥) فِي صَلَاتِي؛ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدٍ^(٦) أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ»^(٧).

(١) رواه البخاري - واللفظ له - (٢٣٠٥) و (٢٣٠٦) و (٢٣٩٠) و (٢٣٩٢) و (٢٣٩٣) و (٢٤٠١) و (٢٦٠٦) و (٢٦٠٩)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) السَّجَلُ: الدَّلْوُ الممتلئة ماءً، وكذلك الذَّنُوبُ، ويُقَالُ لَهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ: سَجَلٌ وَلَا ذَنْوِبٌ، وَجَمْعُ سَجَلٍ سَجَالٌ.

(٣) رواه البخاري (٢٢٠) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ورواه مسلم (٢٨٤) و (٢٨٥) عن أنسٍ.

(٤) رواه البخاري (٢٩٣٧) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٥) اتجوز: أخفف ولا أطيل.

(٦) وجد أمه: حزنها وأسأها.

(٧) رواه البخاري (٧٠٩) و (٧١٠)، ومسلم (٤٧٠).

قال منصور بن محمد الكريزي،

الرَّفْقُ أَيَّمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتَّبِعُهُ

والخُرْقُ أَشَامُ شَيْءٍ يُقَدِّمُ الرَّجُلَ^(١)

وَذُو التُّثْبُتِ مِنْ حَمْدٍ إِلَى ظَفَرٍ

مَنْ يَرْكَبِ الرَّفْقَ لَا يَسْتَحْقِبُ^(٢) الزُّلْمَ^(٣)

وقال ابن حبان - يرحمه الله -

«العَاقِلُ يَلْزِمُ الرَّفْقَ فِي الْأَوْقَاتِ، وَالاعْتِدَالَ فِي الْحَالَاتِ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَقْدَارِ فِي الْمُبْتَغَى عَيْبٌ، كَمَا أَنَّ النُّقْصَانَ فِيمَا يَجِبُ مِنَ الْمَطْلَبِ عَجْزٌ، وَمَنْ لَمْ يَصْلِحْهُ الرَّفْقُ لَمْ يَصْلِحْهُ الْعُنْفُ»^(٤).

وقال - أيضاً - : «الرَّافِقُ لَا يَكَادُ يُسَبِّقُ، كَمَا أَنَّ الْعَجَلَ لَا يَكَادُ يَلْحَقُ، كَمَا أَنَّ مَنْ سَكَتَ لَا يَكَادُ يَنْدُمُ، كَمَا أَنَّ مَنْ نَطَقَ لَا يَكَادُ يَسْلَمُ»^(٥).

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَمْ أَرِ مِثْلَ الرَّفْقِ فِي لَيْنِهِ u u أَخْرَجَ لِلْعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِهَا

مَنْ يَسْتَعِينُ بِالرَّفْقِ فِي أَمْرِهِ u u يَسْتَخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا^{(٦)(٧)}

فَعَلَيْكَ - أَخِي فِي اللَّهِ - بِالرَّفْقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا سِيَّامَا إِذَا كُنْتَ قَدْ وُلِّيتَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ.

(١) يَقْدِمُ الرَّجُلُ، يَقُودُهُ وَيَتَقَدَّمُهُ.

(٢) اسْتَحْقَبَ الشَّيْءَ، جَعَلَهُ فِي حَقِيْبَتِهِ، كَأَنَّهُ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ.

(٣) «رُوضَةُ الْعُقَلَاءِ» (ص ٢١٦).

(٤) و (٥) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ (ص ٢١٦).

(٦) جُحْرُهَا، مَخْبِئَتُهَا، وَالْجَمْعُ جِحْرَةٌ، وَأَحْجَارٌ.

(٧) «حَيَاةُ الْحَيَوَانَ» (١/ ٢٧٥).

فَعَنْ عَائِدِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: «أَيُّ بَنِيٍّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ»^(١) الْحَطْمَةَ»^(٢)، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّرَأَتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّرَأَتِي شَيْئًا، فَفَرَّقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»^(٤).

قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ:

وَرَأْفِقِ الرَّفُقَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، فَلَمْ

يَنْدَمَ رَفِيقٌ، وَلَمْ يَذْمُمْهُ إِنْسَانٌ

وَلَا يَغُرَّنَكَ حَظُّ جَرِّهِ خَرْقٌ^(٥)

فَالْخُرْقُ هَدْمٌ، وَرَفُقُ الْمَرْءِ بِنَيَّانٍ^(٦)



(١) الرعءاء: جمع راع.

(٢) الحطمة: هو العنيف برعاية الإبل في السوق، والإيراد، والإصدار، ويلقي بعضها ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السوء القاسي الذي يظلم الرعية.

(٣) رواه مسلم (١٨٣٠).

(٤) رواه مسلم (١٨٢٨).

(٥) الخرق: الجهل، ضد الرفق.

(٦) «جواهر الأدب» (ص ٦٧١).

الرَّحْمَةُ



الرَّحْمَةُ: حَالَةٌ وَجَدَانِيَّةٌ تَعْرِضُ غَالِبًا لِمَنْ بِهِ رِقَّةُ الْقَلْبِ، وَتَكُونُ مُبْدَأً لِلانْعِطَافِ النَّفْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ مُبْدَأُ الْإِحْسَانِ^(١).

فَهِى دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ الصَّدْرِ، وَرِقَّةِ الْقَلْبِ، وَسُمُوِّ النَّفْسِ، وَالرَّجُلُ الَّذِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَرْحَمُ النَّاسَ، بَلْ يَرْحَمُ الْخَلْقَ كَافَّةً.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرْحَمُوا». قَالُوا: «كُلُّنَا رَحِيمٌ، يَا رَسُولَ اللَّهِ!» قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ النَّاسِ رَحْمَةً الْعَامَّةِ»^(٢).

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^(٣).

وَعَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ، وَتَوَادِهِمْ، وَتَعَاطِفِهِمْ - كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عَضْوًا، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى»^(٤).

(١) «الكليات» (٢/٣٧٦).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٤٥٣/١٠): أخرجه الطبراني، ورجاله ثقات. وقال الألباني في «الصحيح» (١/٢٧٠): هو في كتاب «الأدب» للبيهقي حديث (١٦٧).

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - (٦٠١٣) و (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٤) رواه البخاري - واللفظ له - (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «سَدُّوا^(١) ، وقاربوا^(٢) ، وأبشروا؛ فإنه لا يدخلُ أحدًا الجنةَ عملُهُ» . قالوا: «ولا أنت، يا رسولَ اللهِ؟» . قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني^(٣) اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»^(٤) .

وَعَنْهَا قَالَتْ: جَاءَنِي مَسْكِينَةٌ، تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْنِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»^(٥) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَدَّهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»^(٦) .

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»^(٧) .
وَعَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ

(١) سَدُّوا: اطلبوا السَّدَادَ، وهو الصَّوَابُ وَالِاسْتِقَامَةُ.

(٢) الْمُقَارِبَةُ: الْقَصْدُ فِي الْعِبَادَةِ الَّذِي لَا غُلُوَّ فِيهِ، وَلَا تَقْصِيرَ.

(٣) يَتَغَمَّدُنِي: يَغْمُرُنِي.

(٤) رواه البخاري - واللفظ له - (٦٤٦٤) و (٦٤٦٧)، ورواه مسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - .

(٥) رواه مسلم (٢٦٣٠).

(٦) رواه البخاري (٦٠٠٠) و (٦٤٦٩)، ومسلم - واللفظ له - (٢٧٥٢).

(٧) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٦٧/٢).

حَابِسِ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: «إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَالِدِ، مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَتَنْظَرِ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(١).

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بَيْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ^(٢)، يَأْكُلُ الثَّرَى^(٣) مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبَيْرَ، فَمَلَأَ خُفَّهُ^(٤) مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَضَرَ لَهُ». قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لِأَجْرٍ؟». فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٥)،^(٦).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَضَرَ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ،

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ^(٧)، قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ^(٨) مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا^(٩)، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغَضَرَ لَهَا بِهِ»^(١٠).

(١) رواه البخاري - واللفظ له - (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨). قال ابن حجر معلقًا على هذا الحديث: «قال ابن بطال: فيه الحضر على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن، والكافر، والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام، والسعي، والتخفيف في الحمل، وترك التعدي بالضرب». «فتح الباري» (١٠/٤٥٥).

(٢) يلهث: يخرج لسانه من شدة العطش.

(٣) الثرى: التراب الرطب الندي.

(٤) الخف - بالضم - : الخذاء، والجمع خفاف - بكسر الخاء -.

(٥) أي في إرواء كل حي ثواب.

(٦) رواه البخاري (١٧٣) و (٢٣٦٣) و (٢٤٦٦) و (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٧) يطيف بركيبة: يدور حولها، والركبة: البئر، والجمع ركابًا.

(٨) البغي: الزانية.

(٩) الموق: الخف.

(١٠) رواه البخاري (٣٣٢١) و (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

فَشْتَانٌ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَرَأَةِ الْبَغِيَّةِ ذَاتِ الْقَلْبِ الرَّؤُومِ وَالْمَرَأَةِ الَّتِي فِي حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليه وسلم - قَالَ: «عَذِبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» (١) (٢).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ - صلوات الله عليه وسلم - سَبِيٌّ (٣)، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ قَدْ تَحَلَّبَتْ تَدْيِهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ، فَالصَّقَتْهُ بِيَطْنِهَا وَارْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ - صلوات الله عليه وسلم -: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟»، قُلْنَا: «لَا»، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى الْأَطْرَحَةِ. فَقَالَ: «لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا» (٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه وسلم - : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (٥).

وَالْأَحَادِيثُ فِي الرَّحْمَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَهْمِيَّتِهَا، وَعَظِيمِ شَأْنِهَا.

قَالَ الْفَيْرُوزُ أَبَادِي - يَرْحَمَهُ اللَّهُ - :

«الرَّحْمَةُ سَبَبٌ» (٦) وَأَصْلُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ» (٧).

(١) خَشَاشُ الْأَرْضِ: هَوَامُّهَا وَحَشْرَاتُهَا، وَاحِدُهَا خَشَاشَةٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٦٥) وَ (٣٣١٨) وَ (٣٤٨٢)، وَمُسْلِمٌ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٢٢٤٢).

(٣) سَبِيٌّ: أَسْرَى جَمْعُ أَسِيرٍ.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٥٩٩٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٤).

(٥) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٢٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٥٢٢/١)،

وَالصَّحِيحَةُ (٩٢٥).

(٧) «بصائر ذوي التَّمييز» (٥٥/٣).

(٦) سَبَبٌ: حَبْلٌ، وَالْجَمْعُ أَسْبَابٌ.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - يرحمه الله :-

«الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق؛ فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها.

وإذا تدبرت ما شرعه في المعاملات، والحقوق الزوجية، وحقوق الوالدين، والقرابة، والجيران، وسائر ما شرع - وجدت ذلك مبنياً على الرحمة»^(١).

ثم قال:

«لقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين كل موقف رشيد»^(٢).



(١) «الرياض الناضرة، والحدائق النيرة» (ص ٥٠ - ٥١) بتصرف.

(٢) المرجع السابق (ص ٣٥).

التَّوَاضُّعُ



التَّوَاضُّعُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«ذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِهِمْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، وَنَعْوَتُهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهِمْ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَي سَاكِنِينَ مُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ وَلِلْخَلْقِ، فَهَذَا وَصْفٌ لَهُمْ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّوَاضُّعِ لِلَّهِ وَلِعِبَادِهِ»^(١).

والتَّوَاضُّعُ عِلْمَةٌ حُبُّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكُمَّلِ، أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ»^(٢).

(١) «تفسير ابن سعد» (ص ٥٨٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٧٣).

وَوَصَفَ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

وفي تعليل استعمال حرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفسيران:

ففي قول أنه ضَمَنَهُ معنى الحنوِّ والعطفِ، كَأَنَّهُ قَالَ: عاطفينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهِ التَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُّعِ.

وفي قول ثانٍ أَنَّ (عَلَى) تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَقَامِهِمْ، وَأَنَّهُ رَغِمَ فَضْلِهِمْ وَارْتِفَاعُ مَنْزِلَتِهِمْ يَدِلُّونَ وَيَخْضَعُونَ لِمَنْ فَضَّلُوا عَلَيْهِ مَعَ شَرْفِهِمْ، وَعُلُوُّ مَكَانِهِمْ^(١).

وَالتَّوَاضُّعُ سَبَبٌ لِرَفْعَةِ اللَّهِ لِلْمُتَوَاضِعِ، وَمَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي سَيَخْفِضُهُ وَيَضَعُهُ؟! .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- -- قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَاقَةٌ، تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ لَا تُسَبِّقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ^(٣) فَسَبَّقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى عَرَفَهُ فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ الْإِيرْتَفَاعُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»^(٤).

(١) «تفسير البحر المحيط» (٣/٥١٢).
 (٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).
 (٣) القَعُودُ -بالفتح-: هو ما استحقَّ الرُّكُوبَ مِنَ الْإِبِلِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ سِنِّ الثَّانِيَةِ إِلَى السَّادِسَةِ، وَبَعْدَهَا يُقَالُ عَنْهُ جَمَلٌ.
 (٤) رواه البخاري (٢٨٧٢) و (٦٥٠١).

قَالَ ابْنُ الْحَاجِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«مَنْ أَرَادَ الرَّفْعَةَ فَلْيَتَوَاضِعْ لِلَّهِ - تَعَالَى - ؛ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَدْرِ النُّزُولِ ،
أَلَّا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ ، صَعِدَ إِلَى أَعْلَاهَا ، فَكَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَهُ :
مَا صَعَدَ بِكَ هُنَا - أَعْنِي فِي رَأْسِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنْتَ تَحْتَ أَصْلِهَا - ؟ ! ، فَكَأَنَّ لِسَانَ
حَالِهِ يَقُولُ : مَنْ تَوَاضِعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ» (١) .

قَالَ السَّهْلِيُّ :

تَوَاضِعٌ إِذَا كُنْتَ تَبْغِي الْعُلَى (٢) وَكُنْ رَاسِيًا عِنْدَ صَفْوِ الْغَضَبِ ٥ ٥
فَخَفَضُ الْفَتَى نَفْسَهُ رَفْعَةً لَهُ ، وَاعْتَبِرْ بِرُسُوبِ الذَّهَبِ ٥ ٥

وَقَالَ آخَرُ :

تَوَاضِعٌ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحٍ (٣) لِنَاطِرٍ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ ، وَهُوَ رَفِيعٌ ٥ ٥
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ ، وَهُوَ وَضِيعٌ (٤) ٥ ٥

وَقَالَ آخَرُ :

تَوَاضِعٌ إِذَا مَا نِلْتَ فِي النَّاسِ رَفْعَةً فَإِنَّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ يَتَوَاضِعُ (٥) ٥ ٥

وَقَالَ آخَرُ :

وَاحْسِنُ اخْلَاقِ الْفَتَى وَأَتَمُّهَا تَوَاضِعُهُ لِلنَّاسِ ، وَهُوَ رَفِيعٌ (٦) ٥ ٥

(٢) العُلَى : الرُّفْعَةُ وَالشَّرْفُ .

(١) «المدخل» (٢/١٢٢) .

(٣) لَاحٍ : بَرَزَ وَظَهَرَ .

(٤) و (٥) «جواهر الأدب» (ص ٧١٣) .

(٦) «غذاء الألباب» (٢/٢٣٣) .

والتَّوَاضُعُ وَقَايَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الظُّلْمِ، وَحِمَايَةُ مِنَ التَّعَالِيِ وَالتَّفَاخُرِ عَلَى الْآخَرِينَ.

عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ - رَوَاهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا: حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (١).

إِنْ أَرَدْتَ - أَخِي فِي اللَّهِ - نَيْلَ الْكِرَامَةِ وَالشَّرَفِ، وَالْمِقَّةَ (٢) مِنَ الْعِبَادِ، وَكَثْرَةَ الْخُلَّانِ - فَعَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ بَرِيَ مِنْ ثَلَاثِ نَالَ ثَلَاثًا: مَنْ بَرِيَ مِنَ الشَّرَفِ نَالَ الْعِزَّ، وَمَنْ بَرِيَ مِنَ الْبُخْلِ نَالَ الشَّرَفَ، وَمَنْ بَرِيَ مِنَ الْكِبْرِ نَالَ الْكِرَامَةَ» (٣).

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ: «التَّوَاضُعُ مَصَائِدُ الشَّرَفِ» (٤).

وَقِيلَ فِي مَثْوَرِ الْحَكَمِ: «مَنْ دَامَ تَوَاضَعُهُ كَثُرَ صَدِيقُهُ» (٥).

وَضِدُّ التَّوَاضُعِ الْكِبْرُ، وَمَصْدَرُهُ جَهْلُ الْمَرْءِ بِحَقِيقَةِ نَفْسِهِ.

فَهَذَا إِبْلِيسُ أَمْتَعَ عَنِ السُّجُودِ لِأَدَمَ قَائِلًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ

مِنْ طِينٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٢).

وَهَذَا فِرْعَوْنُ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ قَائِلًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (سورة النازعات: ٢٤).

وَهَذَا قَارُونُ لَمْ يَقِيدِ النِّعْمَةَ الَّتِي يَتَقَلَّبُ فِيهَا، بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ

عِنْدِي﴾ (سورة القصص: ٧٨).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) المِقَّة: المحبة، يُقَالُ: وَمَقَّهُ يَمَقُّهُ - بكسر الميم فيهما - : أَحَبَّهُ، فَهُوَ وَامِقٌ، وَالتَّاءُ فِي مِقَّةٍ عِوَضٌ عَنْ فَاءِ الْكَلِمَةِ الْمَحذُوفَةِ - وَهِيَ الرَّوَاءُ - كَعَدَّةٍ، وَرِزَّةٍ.

(٣) و (٤) و (٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٢).

الإخلاق بين الطبع والخلق

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِهِ، فَمَا كَانَ مَصِيرُهُمْ
وَعَاقِبَتُهُمْ؟! ^(١)

لَقَدْ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ وَخِيمَةً، وَالْمُنْقَلَبُ مَشْتُومًا، فَأَمَّا إِبْلِيسُ فَطَرَدَهُ اللَّهُ مِنْ
رَحْمَتِهِ، وَأَمَّا فِرْعَوْنُ فَأَهْلَكَهُ اللَّهُ عَلَى جُرْأَتِهِ، وَأَمَّا قَارُونُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِدَارِهِ
الْأَرْضَ.

مَا أَجْهَلَكَ - أَيُّهَا الْمُتَكَبِّرُ - بِحَقِيقَةِ نَفْسِكَ، فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا عَبْدٌ لِلَّهِ الَّذِي
أَخْرَجَكَ مِنَ الْعَدَمِ، وَرَعَاكَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ؟! .
مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَتَرَفَّعَ عَلَى إِخْوَانِكَ مِنَ الْبَشَرِ، كَأَنَّكَ قَدْ خَرَجْتَ عَنْ طَوْقِ
الْبَشَرِيَّةِ؟! .

هَلَّا تَدَبَّرْتَ مَا فِيكَ مِنْ أَقْدَارٍ وَتَنْنِ، إِذَا لَعَرَفْتَ مَنْ أَنْتَ! .

قَالَ الْمَاوُودِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَلَوْ تَصَوَّرَ الْمُعْجَبُ الْمُتَكَبِّرُ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ مِنْ جِبَلَةٍ ^(١)، وَبُلِيَّ بِهِ مِنْ مَهْنَةٍ ^(٢) -
لِخَفْضِ جَنَاحِ نَفْسِهِ، وَاسْتِبْدَالِ لَيْنًا مِنْ عُسُوَّةٍ، وَسَكُونًا مِنْ نُفُورِهِ» ^(٣).

وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ:

«عَجِبْتُ لِمَنْ جَرَى فِي مَجْرَى الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ كَيْفَ يَتَكَبَّرُ؟!» ^(٤).

وَكَيفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ كَانَ مَصِيرُهُ لِلْمَوْتِ وَالْبِلْيِ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِ الْقَبْرِ يَقُولُ:
ابْنَ آدَمَ، لَا تَتَكَبَّرِ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِي؛ لِأَنَّيْ غَدًا سَوْفَ أَضْمُكَ فِي بَطْنِي.

(١) جِبَلَةٌ: خَلْقَةٌ، وَالْجَمْعُ جِبَلَاتٌ.

(٢) مَهْنَةٌ - بِالْفَتْحِ - : خِدْمَةٌ.

(٣) وَ (٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ» (ص ٢٣٨).

قال الشاعر:

حَقِيقٌ ^(١) بالتَّواضُعِ مَنْ يَمُوتُ ◻◻◻ وَيَكْفِي الْمَرْءَ مِنْ دُنْيَاهُ قُوتٌ ^(٢)
 فَمَا لِلْمَرْءِ يُصْبِحُ ذَا هُمُومٍ ◻◻◻ وَحِرْصٍ، لَيْسَ تُدْرِكُهُ النُّعُوتُ ^(٣)؟
 ووصف أحد الشعراء الإنسان، فقال:

يَا مُظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ ◻◻◻ انْظُرْ خَلَاءَكَ؛ إِنَّ النَّتْنَ تَثْرِيْبُ
 لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ ◻◻◻ مَا اسْتَشَعَرَ الْكِبَرَ شُبَّانٌ، وَلَا شَيْبٌ ^(٤)
 هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرُ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ ^(٥)؟ ◻◻◻ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَقْدَارِ مَضْرُوبٌ ^(٥)
 أَنْفٌ يَسِيلُ، وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكَ ^(٦) ◻◻◻ وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ ^(٧)، وَالثَّغْرُ مَلْعُوبٌ
 يَا بَنَ التُّرَابِ، وَمَأْكُولَ التُّرَابِ غَدًا ◻◻◻ أَقْصِرْ؛ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبٌ ^(٨)

ومن اللطائف ما ذكره الماوردي . يرحمه الله . قال:

«حكي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة ^(٩) ،
 وعليه حلة ^(١٠) يسحبها، ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية
 التي يبغضها الله ورسوله؟!»

- (١) حقيق: خليقٌ وجديرٌ.
 (٢) القوت: ما يسد الرمق من الرزق.
 (٣) «البداية والنهاية» (١٢/٨).
 (٤) شيب: جمع أشيب، وهو الذي ابيض شعره.
 (٥) أي ملازم لها لزوم الدرهم المضروب لِسكته.
 (٦) ريحها سهك: أي كريهة.
 (٧) الرمص - بفتحتين - : وسخ يجتمع في طرف العين مما يلي الأنف، وبأبه فرح.
 (٨) «عيون الأخبار» (٣١٣/١).
 (٩) هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري، قائد قواد الأمويين، ومبيد الخوارج، ومبتدع الركب الجديد، تولى خراسان من قبل عبد الملك بن مروان، وتوفي بها سنة ٨٣ هـ، وقد كان جواداً حكيماً، إلا أن جوابه هذا يعد زلة من زلات الاسترسال.
 (١٠) الحلة: ثوب له ظهارة وبطانة من جنس واحد، والجمع حللٌ.

فَقَالَ الْمُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟! .

فَقَالَ: بَلْ أَعْرَفُكَ، أَوْلَّكَ نُطْفَةَ مَذْرَةٍ، وَآخْرَكَ جِيفَةَ قَذْرَةٍ، وَحَشَوَكَ فِيمَا
بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وَعَذْرَةٌ^(١) .

فَأَخَذَ ابْنُ عَوْفٍ هَذَا الْكَلَامَ، فَنَظَّمَهُ شِعْرًا، فَقَالَ:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ ■■■ وَكَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةَ مَذْرَةٍ
وَفِي غَدٍ - بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ - ■■■ يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةَ قَذْرَةٍ
وَهُوَ عَلَى تَيْهَةٍ^(٢) وَنَخْوَةٍ^(٣) ■■■ مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمَلُ الْعَذْرَةَ^(٤)

وَالتَّكْبِيرُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ .

عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبِ الْخَزَاعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ^(٥) جَوَاطِئٍ^(٦) مُسْتَكْبِرٍ^(٧) .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ
فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٨) .

عَجَبًا لِهَذَا الْمُتَكَبِّرِ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ، كَيْفَ يَتَجَرَّأُ عَلَى خَالِقِهِ مَالِكِ الْمُلْكِ،
وَيُنَازِعُهُ رِدَاءَهُ؟! .

(١) الْعَذْرَةُ: الْغَائِطُ .

(٢) التَّيْهُ - بِالْكَسْرِ - : التَّكْبِيرُ، يُقَالُ: تَاهَ يَتِيهِ تَيْهًا، فَهُوَ أَتِيهِ النَّاسُ .

(٣) النُّخْوَةُ: الْكِبَرُ وَالْعِظْمَةُ، يُقَالُ: انْتَخَى فُلَانٌ عَلَيْنَا، أَي: افْتَخَرَ وَتَعَطَّمَ .

(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ٢٣٦ - ٢٣٧) .

(٥) الْعَتَلُ: الْغَلِيظُ الْفِظُ الْجَافِي .

(٦) الْجَوَاطِئُ: الْجَمْعُ لِلْمَالِ، الْمَنُوعُ لَهُ . وَقِيلَ: الضَّخْمُ الْمُخْتَالُ فِي مِشِيَّتِهِ .

(٧) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩١٨) وَ (٦٠٧١) وَ (٦٦٥٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٥٣) .

(٨) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١) .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنهما - قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - :
«قَالَ اللَّهُ - تعالى - : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزُّ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ» (١).

قال أبو نؤاس:

حَدَّثْتُكَ الْكِبْرَ، لَا يَغْشَاكَ مَبْسِمُهُ ◻◻◻ قَبَانُهُ مَلْبَسٌ نَازَعْتَهُ اللَّهُ

يَا بؤُسَ جِلْدٍ عَلَى جَوْفٍ مُجَوِّفَةٍ (٢) ◻◻◻ يَحْوِي مَقَادِيرَ، إِنْ كَلَّمْتَهُ تَاهَا

إِنِّي لَأَمَقْتُ (٣) نَفْسِي عِنْدَ نَخْوَتِهَا ◻◻◻ فَكَيْفَ آمَنُ مَقَّتَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟

وَلِلْكَبِيرِ صُورٌ وَأَشْكَالٌ عَدَّةٌ، فَتَارَةٌ يَظْهَرُ فِي الْوَجْهِ كَتَّصْعِيرِ الْخَدِّ (٥)، وَبِالنَّظَرِ
شَرْزًا (٦) تَارَةً، وَأُخْرَى بِإِطْرَاقِ الرَّأْسِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ بِإِسْبَالِ الثَّوْبِ عُجْبًا وَبَطْرًا، أَوْ
بِالتَّبَخُّرِ فِي الْمَشْيِ مَعَ الْإِعْجَابِ بِثِيَابِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صُورِ الْكِبْرِ.

قَالَ اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (٧) إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ (سورة لقمان: ١٨).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا،
لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٨).

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) جَوْفُ الْإِنْسَانِ: بَطْنُهُ، وَالْجَمْعُ أَجْوَافٌ.

(٣) الْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ.

(٤) مُجَوِّفَةٌ: فِيهَا تَجْوِيفٌ.

(٥) تَصْعِيرُ الْخَدِّ: الْمِيلُ وَالْإِعْرَاضُ بِهِ عَنِ النَّاسِ تَكْبِيرًا عَلَيْهِمْ.

(٦) نَظَرَ إِلَيْهِ شَرْزًا: أَيِ نَظَرَ إِلَيْهِ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ، وَمُؤَخَّرُ الْعَيْنِ - بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ - وَكَسْرِ الْخَاءِ - : طَرَفُهَا

الَّذِي يَلِي الصَّدْعَ، وَالْجَمْعُ مَآخِرٌ.

(٧) الْمَرَحُ: التَّبَخُّرُ وَالْخِيَلَاءُ وَشِدَّةُ الْفَرَحِ.

(٨) رواه البخاري (٥٧٩١)، ومسلم (٢٠٨٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تَعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مَرَّجُلٌ رَأْسَهُ^(١)، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ^(٢) فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

قَالَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ فِي وَصْفِ الْمُتَكَبِّرِينَ:

وَجُوهُهُمْ مِنْ سَوَادِ الْكِبْرِ عَابِسَةٌ ■ ■ ■ كَأَنَّمَا أُوفِدُوا^(٤) غَضَبًا إِلَى النَّارِ
هَانُوا عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَاءَتْ مَنَاطِرُهُمْ ■ ■ ■ يَا وَيْحَهُمْ مِنْ مَنَاطِرٍ^(٥) وَفَجَّارِ
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا لَاقَيْتَهُمْ عَرَضًا ■ ■ ■ أَهْدُوكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُتْحَفُ السَّارِي^(٦)
مَنْ تَلَّقَ مِنْهُمْ تَقْلًا: لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ■ ■ ■ مِثْلُ النَّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

■ أُمُورٌ تَنَافَى التَّوَاضُّعُ:

١. أَنْ يَرَى الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ حَقًّا عَلَى اللَّهِ لِأَجْلِ تَوَاضُّعِهِ:

وَعَلَّاجُهُ أَنْ يَعْلَمَ الْمَرْءُ أَنَّهُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْحَابِهِ - وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ - : «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ». قَالُوا: «وَلَا أَنْتَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟». قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ»^(٧).

(١) مَرَّجُلٌ رَأْسَهُ: مَسَّرَحَهُ بِالْمُشْطِ.

(٢) يَتَجَلَّجَلُ: يَغْوَسُ فِي الْأَرْضِ حِينَ يَخْسَفُ بِهِ. وَالْجَلْجَلَةُ: حَرَكَةٌ مَعَ صَوْتٍ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٨٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٨).

(٤) أُوفِدُوا: أُرْسِلُوا.

(٥) مَنَاطِرٌ: جَمْعُ مَنَكُودٍ، وَهُوَ الْمَشْتُومُ قَلِيلُ الْخَيْرِ.

(٦) السَّارِي: السَّائِرُ لَيْلًا مِنْ سَرَى يَسْرِي سُرَى.

(٧) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ، وَاللَّفْظُ هُنَا لِمُسْلِمٍ.

قال الشاعر:

ولو أن أنفاس العباد قصائدُ ۝ ۝ حفلت بمدحك في جلالِ علاكا

ما أدركت ما تستحق، وقصرتُ ۝ ۝ عن مجدك الأسمى، وحسن سناكا^(١)

٢. أن يرى لنفسه فضلاً على الناس، وقيمةً على من سواه:

وعلاجُ هذا الأمرِ أن يعلمَ أنه مدينٌ لله في إنعامه، وتفضُّله عليه، كما قال

الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (سورة النحل: ٥٣).

قال الشاعر:

سُبْحَانَ مَنْ لَوْ سَجَدْنَا بِالْجِبَاهِ لَهُ ۝ ۝ عَلَى لُظَى^(٢) الْجَمْرِ، وَالْحَمِي^(٣) مِنَ الْإِبْرِ

لم تبلغ العشرَ من مقدارِ نعمته ۝ ۝ ولا العشرَ ولو عشرَ من العشرِ!

٣. أن يرى في نفسه أنه متواضع:

وعلاجه أن يعلمَ أنه من رأى في نفسه أنه متواضعٌ فهو متكبرٌ؛ لأنَّ الله

- سبحانه وتعالى - يقول: ﴿ فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (سورة النجم: ٣٢).

وقال رسولُ الله - ﷺ - : « لا تُزكُّوا أنفسكم؛ الله أعلمُ بأهلِ البِرِّ منكم، »^(٤).

(١) السنأ: النور الساطع.

(٢) اللظى - بفتحين - : النار.

(٣) الحمي: المشتد الحر.

(٤) رواه مسلم في «الأداب» (٤١٤٢) عن زينب بنت أم سلمة.

٤. الإعجاب بالنفس:

العُجْبُ داءٌ عظيمٌ يدعو إلى الكِبَرِ، فهو أحدُ أسبابِهِ، بلْ هو الدَّرَجَةُ الأولى في سُلْمِ الكِبَرِ؛ فلذلكَ كَانَ العُجْبُ مِنَ المَهْلِكَاتِ، كما قالَ رسولُ اللَّهِ - ﷺ - : «ثلاثُ مَهْلِكَاتٍ: شُحُّ مَطَاعٍ، وهَوَى مُتَّبَعٍ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ»^(١).

وفي حديثِ أبي هريرةَ: «... وأما المَهْلِكَاتُ: فَهَوَى مُتَّبَعٍ، وشُحُّ مَطَاعٍ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ، وهي أشدُّهنَّ»^(٢).

والعُجْبُ بالنفسِ يُطْفِئُ من المحاسنِ ما انتشر، وَيَسْلُبُ مِنَ الفَضَائِلِ مَا اشْتَهَرَ، وَيُبْرِزُ المَسَاوِيَّ، وَيَكْسِبُ الرَّذَائِلَ، وَيُوجِبُ الدَّمَ واللَّوْمَ، وليسَ لمنِ اسْتَوَلَى عليه إِصْغَاءٌ لِنُصْحٍ، ولا قَبُولٌ لتأديبٍ؛ لأنَّ المُعْجَبَ يَسْتَكْبِرُ فَضْلَهُ عنِ اسْتِرَادَةِ المُتَأدِّبِينَ.

قالَ الإمامُ عليٌّ - رضي الله عنه - : «الإعجابُ ضدُّ الصَّوابِ، وآفةُ الألبابِ»^(٣).

وقالَ بزرُّ جَمِهْرُ: «النَّعْمَةُ الَّتِي لا يُحْسَدُ صاحبُها عليها التَّواضِعُ، والبلاءُ الَّذِي لا يَرْحَمُ صاحبُه منه العُجْبُ»^(٤).

قالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ قَدْرًا وَرَفْعَةً ■■■ فَلَنْ وَتَوَاضَعُ، وَاتْرُكِ الكِبْرَ والعُجْبًا^(٥)

(١) رواه الطَّبْرَانِيُّ في «الأوسط» عن ابنِ عُمَرَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٠٤٥/١)، وهو في «الصَّحِيحَةَ» (١٨٠٢).

(٢) حسَّنه الألبانيُّ في «تخريج المشكاة» (٥١٢٢).

(٣) و (٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٣٧).

(٥) «جواهر الأدب» (ص ٧١٣).

٥ . عَدَمُ الْخُضُوعِ لِلْحَقِّ:

وعلاجهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ عَدَمَ الْخُضُوعِ لِلْحَقِّ هُوَ عَيْنُ الْكِبْرِ وَالْبَغْيِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - عَرَّفَ الْكِبْرَ - الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّوَاضُعِ - بِقَوْلِهِ: «الْكِبْرُ: بَطْرُ الْحَقِّ»^(١)،
وَعَمَطُ النَّاسِ^(٢) (٣)

وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ عَنِ التَّوَاضُعِ، فَقَالَ: «يَخْضَعُ لِلْحَقِّ، وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَقْبَلُهُ مِمَّنْ قَالَهُ»^(٤).

وَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ رَضَى اللَّهَ، هَانَ عَلَيْهِ الْانْقِيَادُ لِلْحَقِّ، كَالَّذِي رُوِيَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَغَلَطَ فِيهَا، فَلَمَّا نَبَهَ إِلَى غَلَطِهِ، أَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «إِذَا أُرْجِعُ وَأَنَا صَاعِرٌ، لِأَنَّ أَكُونَ ذَنْبًا فِي الْحَقِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْسًا فِي الْبَاطِلِ»^(٥).

قَالَ الشَّاعِرُ:

فِيَا شَامِخًا، أَقْصِرْ عِنَانَكَ مَقْصِرًا ◻◻◻ ◻◻◻ فإِنَّ مَطَايَا الدَّهْرِ تَكْبُوتُ وَتَعْتَشِرُ
سَتَقْرَعُ سِنًا، أَوْ تَعْضُ نَدَامَةً. ◻◻◻ ◻◻◻ يَدِيكَ، إِذَا خَانَ الزَّمَانُ وَتَبْصِرُ
وَيَلْقَاكَ مُرْشِدٌ - بَعْدَ غَيْبِكَ - وَاعْظُ ◻◻◻ ◻◻◻ وَلَكِنَّهُ يَلْقَاكَ وَالْأَمْرُ مُدِيرُ



(١) بَطْرُ الْحَقِّ: رَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ، وَعَدَمُ قَبُولِهِ مِنْهُ رَغْمَ عِلْمِهِ بِهِ.

(٢) عَمَطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَائُهُمْ، وَمِنْ احْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ دَفَعُ حُقُوقِهِمْ، وَجَحَدَهَا وَاسْتَهَانَ بِهَا.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(٤) «تَهْذِيبُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٢/٦٨٠).

(٥) «تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ» (٧/١٢).

الحلم



الحلم: آية حُسْنِ الخُلُقِ، وعنوانُ علوِّ الهِمَّةِ، فهو من أشرفِ الأخلاقِ، وأحقَّها بذوي الألبابِ؛ لما جعلَ اللهُ فيه من الطَّمَأْنِينَةِ، والسَّكِينَةِ، والحلاوةِ، وسلامةِ العَرَضِ، وراحةِ الجَسَدِ، واجتلابِ الحَمْدِ، ورفعةِ النَّفْسِ عن تَشْفِيهَا بالانتقامِ؛ فلا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَكُونَ مُتَخَلِّقًا بِهَذَا الخُلُقِ العَظِيمِ.

■ فَضْلُ الحِلْمِ وَفَوَائِدِهِ :

١. أَنَّهُ امْتِنَانٌ لِأَمْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي آيَةِ جَامِعَةِ لِحُسْنِ الخُلُقِ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورة الاعراف: ١٩٩).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ - ﷺ - أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ» (١).

٢. أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى -:

قَالَ اللَّهُ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٥).

(١) تقدّم تخريجه.

قال العلامة ابن سَعْدِي. يرحمه الله. في تفسير هذه الآية:

«الحليم: الَّذِي يُدِرُّ عَلَى خَلْقِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مَعَ عَصِيَانِهِمْ، وَكَثْرَةَ زَلَاتِهِمْ، فَيَحْلُمُ عَنْ مُقَابَلَةِ الْعَاصِينَ بِعَصِيَانِهِمْ، وَيَسْتَعْتِبُهُمْ كِي يَتُوبُوا، وَيُمْهَلُهُمْ كِي يُنْبِئُوا»^(١).

٣. أنه من اخلاق الأنبياء والمرسلين - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين -:

لَمْ يُسَمِّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْحِلْمِ فِي كِتَابِهِ أَحَدًا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ، وَإِسْمَاعِيلَ ذَبِيحَهُ.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (سورة هود: ٧٥).

وَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْناه بِغلامٍ حَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات: ١٠١).

وَيَلْغُ نَبِيْنَا - ﷺ - الذُّرُوءَ وَالْغَايَةَ فِي حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ، وَضَبَطَ النَّفْسَ إِزَاءَ^(٢) التَّخْرُصَاتِ وَالْمُفْتَرِيَّاتِ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيْهِ، إِضَافَةً إِلَى الْإِيذَاءِ الَّذِي لَقِيَهُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ: كَامْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ، وَأَبِي جَهْلٍ، وَأَبِي بِنِ خَلْفٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَفْهَاءِ مَكَّةَ.

وَصَفَّتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَتْ: «وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَضْفَحُ»^(٣).

وعنها - أيضاً - قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا أَمْرًا،

وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ. فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يَنْتَهَكَ شَيْئًا مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»^(٤).

(١) «تفسير السَعْدِي» (٥/ ٦٣٠).

(٢) إزاء: حِيَالٍ وَمُقَابِلٍ.

(٣) رواه التِّرْمِذِيُّ (٢٠١٦)، وَصَحَّحَهُ الْإِلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٦٤٠).

(٤) رواه مُسْلِمٌ (٢٣٢٨).

وَجَاءَ فِي وَصْفِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي التَّوْرَةِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «لَيْسَ بَفِظًا، وَلَا غَلِيظًا، وَلَا سَخَابًا»^(١) بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

صَفُوحٌ عَنِ الْإِجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ ◻◻◻ ◻◻◻ مِنَ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى ◻◻◻ ◻◻◻ إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَفْشَ^(٣) بِالْكَرْهِ^(٤) مُسْلِمًا

وَإِلَيْكَ - أَخِي الْكَرِيمِ - هَذَيْنِ الْمَثَالَيْنِ مِنْ سِيرَتِهِ - ﷺ - الدَّالِّينَ عَلَى سَعَةِ حِلْمِهِ:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَحْكِي أَنْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمُوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»»^(٥).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «كَنتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ -، وَعَلَيْهِ بَرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ الْحَاشِيَةُ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ»^(٦) بَرْدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةٍ^(٨) عَاتَقَ^(٩) رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَانْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»^(١٠).

(٢) رواه البخاري (٢١٢٥) و (٤٨٣٨).

(٤) الكره - بالضم - : المشقة.

(٥) رواه البخاري (٣٤٧٧) و (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

(٦) البرد: كساءٌ مخططٌ يلتحفُ به، وجمعه برودٌ، وأبرادٌ.

(٧) الجبذة: الجذبة.

(٩) العاتق: ما بين العنق والكتف.

(١٠) رواه البخاري (٣١٤٩) و (٥٨٠٩) و (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - مُعَلِّقًا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ:

«وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ حِلْمِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَمَالِهِ، وَحُسْنِ خُلُقِهِ، وَصَفْحِهِ الْجَمِيلِ، وَصَبْرِهِ عَلَى الْأَذَى فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَالتَّجَاوُزِ عَلَى جَفَاءِ مَنْ يُرِيدُ تَأْلُفَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلِيَتَأَسَّ بِهِ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ وَالْوَلَاةُ بَعْدَهُ فِي حِلْمِهِ، وَخُلُقِهِ الْجَمِيلِ: مِنْ الصَّفْحِ، وَالْإِغْضَاءِ، وَالْعَفْوِ، وَالدَّفْعِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(١).

قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ:

أَغْرَ^(٢) عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ ◻◻◻ مِنْ اللَّهِ مَيْمُونٌ^(٣) يُلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ◻◻◻ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ^(٤) الْمُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ◻◻◻ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ

٤ - أَنَّهُ سَبَبٌ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَثَوَابِهِ الْجَزَلِ الْعَظِيمِ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤).

(١) «فتح الباري» (٥٠٦/١٠)، و«شرح مسلم» (١٤٦/٧ - ١٤٧).

(٢) أَغْرَى: أبيض، والجمع عُرٌّ، وَغُرَّانٌ.

(٣) ميمون: مبارك، والجمع ميامين.

(٤) الخمس: يعني الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْمَكْتُوبَةِ.

الإختلاف بين الظن واليقين

وعن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليه - قَالَ: «مَنْ كَفَلَ غِيظًا - وهو قادرٌ على أن ينفذَهُ» ^(١) - دَعَا اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَأْسِ الْخَلَائِقِ: حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ الْعَيْنِ شَاءَ» ^(٢) ^(٣) ^(٤).

وعن ابنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليه - قَالَ: «مَنْ كَفَلَ غَضْبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَفَلَ غِيظًا - ولو شاء أن يمضيه أمضًا - ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة» ^(٥).

٥. أن الله يتجاوز عن سيئات أهل الحلم، كما تجاوزوا عن أساء إليهم من عباده؛ فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان:

كَانَ مِسْطَحُ بْنُ أَنَاثَةَ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ قَرِيبًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَيَعِيشُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَفِي حَادِثَةِ الْإِفْكِ لَمْ يَتَوَرَّعْ عَنِ الْخَوْضِ فِيهَا، وَالْخَبْطِ فِي عَرَضِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - الَّتِي يَكْفُلُهُ أَبُوهَا، فَنَسِيَ بِذَلِكَ حَقَّ الْإِسْلَامِ، وَحَقَّ الْقَرَابَةِ، وَحَقَّ الصَّنِيعِ الْقَدِيمِ، فَأَغْضَبَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ، وَجَعَلَهُ يَحْلِفُ أَلَّا يَصِلَ قَرِيبَهُ هَذَا كَمَا كَانَ يَصِلُهُ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ، لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَلَا يَأْتَلِ ^(٦) أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور: ٢٢).

(١) ومنه العفو عند المقدرة.

(٢) الحور: نساء شديداً سواد العيون وبياضها في حسن وملاحة، والمفرد حوراء.

(٣) العين: ضخم العين وحسانها، والمفرد عينا.

(٤) رواه أبو داود - واللفظ له - (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١) و(٢٤٩٣)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وحسنه

الالباني في «صحيح الجامع» (٢/٦٥١٨ و ٦٥٢٢).

(٥) رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الالباني في «صحيح الجامع» (١/١٧٦)، و«الصحيحه» (٩٠٦).

(٦) لا يأتل: لا يحلف، من الألية بمعنى الحلف.

(٧) السعة: الغنى.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَأَرْضَاهُ - : «بَلَى، وَاللَّهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ مُقَابِلَ حَلْفِهِ الْأَوَّلِ: وَاللَّهِ، لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «ارْحَمُوا تَرَحَّمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرْ لَكُمْ»^(٢).

٦. أَنَّهُ يَقَطَعُ خَوَاطِرَ النَّارِ الَّتِي تَسْتَهْلِكُ الْقَلْبَ:

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«مَشْهُدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدُ الْقَلْبِ، وَهَذَا مَشْهُدٌ شَرِيفٌ جَدًّا لِمَنْ عَرَفَهُ، وَذَاقَ حَلَاوَتَهُ، وَهُوَ الْأَشْتِغَالُ قَلْبُهُ وَسِرُّهُ بِمَا نَالَهُ مِنَ الْأَذَى، وَطَلَبُ الْوُصُولِ إِلَى دَرَكِ نَأْرِهِ، وَشَفَاءِ نَفْسِهِ، بَلْ يُفْرِغُ قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَرَى أَنَّ سَلَامَتَهُ وَبَرْدَهُ وَخُلُوهَ مِنْهُ أَنْفَعُ لَهُ، وَاللَّذُّ وَأَطْيَبُ عِنْدَهُ، وَأَعْوَنُ عَلَى مَصَالِحِهِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ فَاتَهُ مَا هُوَ أَهَمُّ عِنْدَهُ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْهُ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَغْبُوتًا^(٣)، وَالرَّشِيدُ لَا يَرْضَى بِذَلِكَ، وَيَرَى أَنَّهُ مِنْ تَصَرُّفَاتِ السَّفِيهِ، فَأَيْنَ سَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنْ امْتِلَانِهِ بِالْغِلِّ وَالْوَسَاوِسِ، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي إِدْرَاكِ الْإِنْتِقَامِ؟!»^(٤).

٧. أَنَّهُ يَقَطَعُ إِحْسَانَ الْجَاهِلِ فِي الظُّلْمِ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (سورة فصلت: ٣٤).

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠) و(٤٧٥٧) و(٦٦٧٩)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه أحمد في «المستد» (٢/١٦٥، ٢١٩)، والبخاري في «الادب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٨٩٧)، و«الصحيح» (٤٨٢).

(٣) المغبون: الخاسر والمفقوس، من الغبن: وهو الشراء بأضعاف الثمن، أو البيع بأقل من ثمن المثل.

(٤) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٦٧٠).

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين - يرحمه الله :-

«جاءت النتيجة ب (إذا الفجائية)؛ لأنَّ (إذا الفجائية) تدلُّ على الحدوث القوري في نيتها: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ولكن ليس كلُّ أحدٍ يوفقُ لذلك، قال: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ (سورة فصلت: ٣٥). (١).

يقول ابن القيم - يرحمه الله :-

«فإنه إذا ترك المقاتلة والانتقام أمن ما هو شرُّ من ذلك، وإذا انتقم وأقعهُ الخوفُ ولأبدٍ، فإنَّ ذلك يزرعُ العداوةَ، والعافلُ لا يأمنُ عدوَّهُ، ولو كان حقيراً، فكَم من حقيرٍ أردى عدوَّهُ الكبيراً».

ولله در محمد اليماني الملقب بنجم الدين حين قال:

لا تحتقر كيد الضعيف فرئماً تموت الأفاعي من سموم العقارب
وقد هدأ قدماً^(٢) عرش بلقيس هدهد وخرب حفر الفأرسد مآرب^(٣)

وقال آخر:

لا تحتقر شيئاً صغيراً يحتقر فرئماً أسالت الدم الإبر^(٤)

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص ٢٦).

(٢) قدماً: قديماً.

(٣) «جواهر الأدب» (ص ٦٩٧).

(٤) المرجع السابق.

ويواصل ابن القيم كلامه السابق فيقول:

«فإِذَا غَفَرَ وَلَمْ يُقَابِلْ، أَمِنَ مِنْ تَوَلُّدِ الْعَدَاوَةِ أَوْ زِيَادَتِهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ عَفْوُهُ وَحِلْمُهُ وَصَفْحُهُ يَكْسِرُ عَنْهُ شَوْكَةَ عَدُوِّهِ، وَيَكْفُ مِنْ جَزَعِهِ بِعَكْسِ الْإِنْتِقَامِ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ أَيْضًا»^(١).

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: «مَنْ غَرَسَ شَجَرَةَ الْحِلْمِ، اجْتَنَى ثَمَرَةَ السَّلْمِ»^(٢) (٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

لَمَّا عَفَوْتُ، وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ ◻◻◻ أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِيهِ ◻◻◻ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبِشْرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغِضُهُ ◻◻◻ كَأَنَّمَا قَدْ حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ
النَّاسِ دَاءٌ دَوَاءُ النَّاسِ قُرْنُهُمْ ◻◻◻ وَفِي اعْتِرَازِهِمْ قَطَعَ الْمَوَدَّاتِ^(٤)

٨. أَنَّهُ يَصُونُ عَرِضَ صَاحِبِهِ، وَيَجْلِبُ لَهُ حَمْدَ النَّاسِ وَنُصْرَتَهُمْ:

قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: «مَا ذَبَّ عَنِ الْأَعْرَاضِ كَالصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ»^(٥).

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَوَّلُ عَوِضِ الْحَلِيمِ عَنِ حِلْمِهِ أَنْ النَّاسَ أَنْصَارُهُ»^(٦).

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٧٠ - ٦٧١).

(٢) السلم - بفتح السين وكسرهما - : الصلح.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥١).

(٤) المرجع السابق (ص ١٨٢).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥١).

(٦) المرجع السابق (ص ٢٥٢).

■ الأسباب الباعثة على الحلم، وضبط النفس عن هيجان الغضب:

ثُمَّ عَشْرَةَ أَسْبَابٍ تَدْعُو إِلَى الْحِلْمِ^(١) :

أحدها - رحمة الجهال، وذلك من خير يوافق رقة:

قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَعِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا

خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٣) .

وقد قيل في منشور الحكم: «مِنْ أَوْكَدِ الْحِلْمِ رَحْمَةُ الْجُهَّالِ» .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَدِمَ عِيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيفَةَ، فَتَنَزَلَ عَلَى ابْنِ

أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ^(٢) أَصْحَابَ

مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كَهَوْلًا^(٣) كَانُوا أَوْ شُبَانًا، فَقَالَ عِيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي،

لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؛ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ عِيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ^(٤)

يَا بْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ، مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ^(٥)، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى

هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ لِنَبِيِّهِ - ﷺ -: ﴿ خذِ الْعَفْوَ

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ سِوَى الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورة الاعراف: ١٩٩) . وَاللَّهِ، مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ

تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ^(٦) .

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٢٥٢ - ٢٥٥) .

(٢) القراء: القراء هنا هم أهل العلم والفقهاء والفهم.

(٣) الكهول: جمع كهل، وهو الذي جاور الثلاثين، وخطه الشيب، ويجمع - أيضًا - على كهل.

(٤) هي: كلمة تنبيه، وتحمل معنى التهديد.

(٥) الجزل: الشيء الكثير.

(٦) رواه البخاري (٤٦٤٢) و(٧٢٨٦) .

فَهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى عُمَرَ نَاصِحًا بِخَيْرٍ، أَوْ طَالِبًا لِحَقٍّ، وَإِنَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي سُلْطَانِهِ؛ لِيَشْتُمَهُ دُونَ مُبَرَّرٍ، وَلِيَسْأَلَهُ عَطَاءً جَزَلًا عَلَى غَيْرِ عَمَلٍ؛ فَلِهَذَا غَضِبَ عُمَرُ وَهَمَّ بِرُدِّعِهِ، فَلَمَّا ذُكِّرَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْجُهَّالِ، أَعْرَضَ عَنْهُ، وَتَرَكَهُ يَنْصَرِفُ سَالِمًا.

والثاني - القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر، وحسن الثقة:

عَقِبَ فَتَحَ مَكَّةَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي الْكَعْبَةِ، ثُمَّ خَطَبَ قُرَيْشًا، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟». قَالُوا: «خَيْرًا، أَخُ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخِ كَرِيمٍ». قَالَ: «فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾» (سورة يوسف: ٩٢). اذْهَبُوا فَانْتُمُ الطُّلُقَاءُ»^(١).

وَكَتَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ فِي كَلَامٍ لِلْمَأْمُونِ: «إِنَّ عَفْوَتَ فَبِفَضْلِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَ فَبِحَقِّكَ». فَوَقَّعَ^(٢) الْمَأْمُونُ: «الْقُدْرَةُ تَذْهَبُ الْحَفِظَةُ»^(٣).

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: «أَحْسَنُ الْمَكَارِمِ عَفْوُ الْمُقْتَدِرِ، وَجُودُ الْمُفْتَقِرِ».

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «لَيْسَ مِنَ الْكِرَمِ عِقُوبَةٌ مَنْ لَا يَجِدُ امْتِنَاعًا مِنَ السُّطُورَةِ»^(٤).

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الصَّفْحَ وَالْحِلْمَ عَمَّنْ أَسَاءَ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ يُوجِبُ الذُّلَّ وَالْمَهَانَةَ - فَقَدْ خَابَ ظَنُّهُ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ - إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّهِ - هُوَ عَيْنُ الْعِزَّةِ وَالرُّفْعَةِ وَالشَّرَفِ، وَهَذَا مُجَرَّبٌ مُشَاهِدٌ، فَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ إِلَّا ذُلًّا.

(١) «الرَّحِيقُ الْمَخْتومُ» (ص ٣٧٢).

(٢) التَّوَقُّيعُ: رَأَى الْحَاكِمُ يَكْتُبُهُ عَلَى مَا يَعْرِضُ عَلَيْهِ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ.

(٣) الْحَفِظَةُ: الْحَمِيَّةُ وَالغَضَبُ.

(٤) السُّطُورَةُ - بِالْفَتْحِ -: الْقَهْرُ بِالْبَطْشِ، وَالْجَمْعُ سَطَوَاتٌ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»^(١).

وَعَنْهُ - أَيْضًا - أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً، أَصْلِبُهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ، مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

قَالَ كَعْبُ بْنُ سَعْدِ الْغَنَوِيُّ:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلِهِ ■ ■ ■ مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ هَيْبٌ^(٣)
وَقَالَ آخَرُ:

وَإِذَا مُذْنِبٌ أَتَاهُ بِهِ الْحَقُّ ■ ■ ■ فَغَطَّاهُ عَفْوُهُ فِي سِتْوَرِهِ
رَاجِيًا لِلثَّوَابِ فِي كُلِّ رُزْءٍ^(٤) ■ ■ ■ مِنْ خَفِيِّ الْأُمُورِ أَوْ مَشْهُورِهِ
فَهُوَ فِي عَاجِلِ الْحَيَاةِ كَرِيمٌ ■ ■ ■ وَمِنْ الْفَائِزِينَ يَوْمَ نُشُورِهِ
خَصْلَةٌ جَزَلَةٌ بِهَا خَصَّهُ اللَّهُ ■ ■ ■ لَزِينِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ كُرُورِهِ^(٥)

فثمة بون شاسع بين من أسقط حقه بترك الانتقام - مع قدرته عليه - رغبة في الإحسان، ومكارم الأخلاق - وبين من ترك الانتقام عن عجز عنه، فالأول حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، والثاني حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة، فالأول محمود، والثاني مذموم، بل لعل الأخذ بثأره، المنتقم لنفسه أحسن حالاً منه.

(٢) تقدم تخريجه .

(٤) الرزء: واحد الأرزاء، وهي المصائب.

(٦) «روضة العقلاء» (ص ٢٨١).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «الحلم» (ص ٦٠).

(٥) الكرور: الرجوع.

قال الشاعر:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ ◦ ◦ ◦ حُجَّةٌ لَاجِئٌ إِلَيْهَا اللَّتَامُ^(١)
وَالثَّلَاثُ - التَّرْفُوعُ عَنِ السَّبَابِ، وَذَلِكَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ، وَعَلَوِ الِهِمَّةِ:

قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: «شَرَفُ النَّفْسِ أَنْ تَحْمِلَ الْمَكَارَةَ، كَمَا تَحْمِلُ الْمَكَارِمَ».

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

إِذَا سَبَّنِي نَذَلُ^(٢) تَزَايِدَتْ رَفْعَةً ◦ ◦ ◦ وَمَا الْعَيْبُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُسَابِيَهُ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَيَّ عَزِيْزَةً ◦ ◦ ◦ لَمَكَّنْتُهَا مِنْ كُلِّ نَذَلٍ تُحَارِبُهُ^(٣)

وَقَالَ عَبْدُهُ مُحَمَّدُ الْعِمَادُ:

تَرْفَعُ عَنِ الشَّتَابِ، وَاتْرُكْ جَوَابَهُ ◦ ◦ ◦ وَلَا تُعْطِهِ بِالرَّدِّ مَا هُوَ يَأْمَلُ
فَغَضُّكَ عَنْ رَدِّ جَمِيلٍ صَنَعْتَهُ ◦ ◦ ◦ وَعَفْوُكَ عَنْهُ لَهُوَ أَحْلَى وَأَجْمَلُ

وَالرَّابِعُ - الِاسْتِهَانَةُ بِالْمَسِيئِ، وَذَلِكَ عَنْ ضَرْبٍ مِنَ الْكِبَرِ وَالِإِعْجَابِ:

حَكِيٌّ عَنْ مُصَنَّبِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ الْعِرَاقَ جَلَسَ يَوْمًا لِعَطَاءِ الْجُنْدِ، وَأَمَرَ
مُنَادِيَهُ، فَنَادَى: أَيْنَ عَمْرُو بْنُ جَرْمُوزٍ؟ وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ الزُّبَيْرَ، فَقِيلَ لَهُ: أَيُّهَا
الْأَمِيرُ، إِنَّهُ قَدْ تَبَاعَدَ فِي الْأَرْضِ. فَقَالَ: أَوْيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنِّي أُقِيدُهُ^(٤) بِأَبِي عَبْدِ
اللَّهِ؟!، فَلِيُظْهِرَ أَمْنًا؛ لِيَأْخُذَ عَطَاءَهُ مُوقِرًا. فَعَدَّ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَحْسِنِ الْكِبَرِ.

وَأَكْثَرَ رَجُلٍ مِنْ سَبِّ الْأَحْنَفِ، وَهُوَ لَا يُجِيبُهُ، فَقَالَ - أَيُّ السَّابِّ -:

«وَاللَّهِ، مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي عَلَيْهِ».

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٦٠).

(٢) النَّذَلُ: الخسيس الحقير، السَّاقِطُ فِي أَصْلِهِ وَدِينِهِ، وَالْجَمْعُ أَنْذَالٌ وَنُذُولٌ.

(٣) «ديوان الشافعي» (ص ٢٩).
(٤) أُقِيدُهُ: أَقْتَلُهُ قِصَاصًا.

قال الشاعر:

أَوْكُلُّمَا طَنَّ الذُّبَابُ طَرَدَتْهُ ۱۹ ۝ ۵ ۝ ۵ ۝ إِنَّ الذُّبَابَ إِذَا عَلِيَّ كَرِيمُ

وقال آخر:

نَجَا بِكَ لَوْمُكَ مَنَجَى الذُّبَابُ ۝ ۵ ۝ ۵ ۝ بِحَمَتِهِ مَقَاذِيرُهُ أَنْ يُنَالَا

والخامس - الاستحياء من جزاء الجواب، وهذا يكون من صيانة النفس، وكمال المروءة:

قال لقيط بن زرارة:

وَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ: فَمَا لِي وَمَا لَكُمْ ۝ ۵ ۝ ۵ ۝ تَرْقُونَ^(١) مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَجْتَقِ ۱۹

أَغْرَكُمْ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ^(٢) ۝ ۵ ۝ ۵ ۝ بَصِيرٌ، وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ^(٣)

وَإِنْ تَكُ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَهَرَقْتَنِي ۝ ۵ ۝ ۵ ۝ هَنِيئًا مَرِيئًا، أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَحْدَقُ^(٤)

والسادس - التفضل على السباب، فهذا يكون من الكرم، وحب التألف:

قِيلَ لِلإِسْكَندَرِ: إِنَّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَنْتَقِصَانِكَ^(٥) وَيَثْلَبَانِكَ؛ فَلَوْ عَاقَبْتَهُمَا فَقَالَ: «هُمَا بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَعْدَرُ فِي تَنْقُصِي وَثَلْبِي». فَكَانَ هَذَا تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَأَلُّفًا.

وَحِكِي عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا عَادَانِي أَحَدٌ - قَطٌّ - إِلَّا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ بِإِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِنْ كَانَ أَعْلَى مِنِّي عَرَفْتُ لَهُ قَدْرَهُ، وَإِنْ كَانَ دُونِي رَفَعْتُ قَدْرِي عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَظِيرِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ». فَأَخَذَهُ الْخَلِيلُ، فَنَظَّمَهُ شِعْرًا، فَقَالَ:

(٢) الشيمة: الخلق، والجمع شيمٌ.

(٤) احندق: ماهر.

(١) ترقون: تستبدون.

(٣) أخرق: جاهل.

(٥) ينتقصانك: يقعان فيك.

سَأَنْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ « » وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ؛ « » شَرِيفٌ، وَمَشْرُوفٌ، وَمِثْلُ مُقَاوِمٍ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ « » وَاتَّبِعْ فِيهِ الْحَقُّ، وَالْحَقُّ لَازِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَأَحْلُمُ دَائِبًا « » أَصُونُ بِهِ عِرْضِي، وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا^(١) « » تَفَضَّلْتُ، إِنْ الْفَضْلُ بِالْفَخْرِ حَاكِمٌ

والسابع - استنكاف السباب، وتطلع السباب، وهذا يكون من الحزم:

حِكْمِي أَنْ رَجُلًا قَالَ لَضَرَّارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ: «وَاللَّهِ، لَوْ قُلْتَ وَاحِدَةً لَسَمِعْتَ
عَشْرًا».

فَقَالَ لَهُ ضَرَّارٌ: «وَاللَّهِ، لَوْ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً».

قال الشاعر:

وَفِي الْحِلْمِ رَدْعٌ لِلسُّفْيِهِ عَنِ الْأَذَى « » وَفِي الْخُرْقِ إِغْرَاءٌ، فَلَا تَكُ أَخْرَقًا
فَتَنْدَمُ إِذْ لَا تَنْفَعُكَ نَدَامَةٌ « » كَمَا نَدِمَ الْمَغْبُوبُونَ لَمَّا تَفَرَّقَا

والثامن - الخوف من العقوبة على الجواب، وهذا يكون من ضعف النفس، وربما

أوجبته الرأي، واقتضاه الحزم:

قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ: «الْحِلْمُ حِجَابُ الْأَفَاتِ».

وقال الشاعر:

ارْفُقْ إِذَا خِضْتَ مِنْ ذِي هَفْوَةٍ خُرْقًا « » لَيْسَ الْحَلِيمُ كَمَنْ فِي أَمْرِهِ خُرْقٌ

(١) هفا، زل وأخطأ.

والتاسع - الرعاية ليد سالفه، وحرمة لازمة، وهذا يكون من الوفاء، وحسن العهد:

قيل في منثور الحكم: «أكرم الشيم أرعاهما للذمم».

وقال الشاعر:

إن الوفاء على الكريم فريضة ۝ ۝ واللؤم^(١) مقرون بذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا ۝ ۝ وترى اللئيم مجانب الإنصاف

والعاشر - المكر، وتوقع الفرص الخلفية، وهذا يكون من الدهاء:

قال الناظم:

فرقع الخرق بلطف واجتهد ۝ ۝ وامكر إذا لم ينفع الصدق وكيد
فهكذا الحازم إذ يكيد ۝ ۝ يبلغ في الأعداء ما يريد^(٢)

وقد قيل في منثور الحكم: «من ظهر غصبه قل كيده».

وقال بعض الأدباء: «غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله».

وقال بعض الحكماء: «إذا سكت عن الجاهل، فقد أوسعته جوابًا، وأوجعته

عقابًا».

وقال إياس بن قتادة:

تعاقب أيدينا، ويحلّم رأينا ۝ ۝ ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

(١) اللؤم: اسم جامع للخصال المذمومة.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٧٩).

قال الماوردي - يرحمه الله -:

«فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم، وبعض الأسباب أفضل من بعض، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولاً ما يقتضي أن تكون نتيجة من الحلم مذمومة، وإنما الأولى بالإنسان أن يدعو للحلم أفضل أسبابه، وإن كان الحلم كله فضلاً، وإن عري^(١) عن أحد هذه الأسباب، كان ذلاً ولم يكن حليماً؛ لأننا قد ذكرنا في حدّ الحلم أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب، فإذا فقد الغضب لسمع ما يغضب، كان ذلك من ذل النفس، وقلة الحمية، وقد قالت الحكماء: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الجواد إلا في العسرة، والشجاع إلا في الحرب، والحليم إلا في الغضب.

وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضى إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر:

من يدعي الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله - ﷺ -:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر^(٢) تحمي صفوه أن يكدر

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر - ﷺ - قوله عليه .

(١) عري: خلا.

(٢) بوادر: جمع بادرة، وهي الحدة عند الغضب، يقال: بدرت منه بوادر غضب: أي خطأ وسقطات عندما احتد.

وَمَنْ فَقَدَ الْغَضَبَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُغْضَبَةِ، حَتَّى اسْتَوَتْ حَالَتَاهُ قَبْلَ الْإِغْضَابِ
وَبَعْدَهُ - فَقَدْ عَدِمَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ الشَّجَاعَةَ، وَالْأَنْفَةَ^(١)، وَالْحَمِيَّةَ، وَالغَيْرَةَ،
وَالدَّفَاعَ، وَالْأَخْذَ بِالثَّأْرِ؛ لِأَنَّهَا خِصَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْغَضَبِ، فَإِذَا عَدِمَهَا الْإِنْسَانُ
هَانَ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِبَاقِي فَضَائِلِهِ فِي النَّفْسِ مَوْضِعٌ، وَلَا لَوْفُورِ حِلْمِهِ فِي
الْقُلُوبِ مَوْقِعٌ.

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ إِغْرَاءً بِتَحَكُّمِ الْغَضَبِ، وَالْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ عِنْدَ
حُدُوثِ مَا يُغْضِبُ، فَيَكْسِبُ بِالْإِنْقِيَادِ لِلْغَضَبِ مِنَ الرِّذَائِلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْلُبُهُ عَدَمُ
الْغَضَبِ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَلَكِنْ إِذَا ثَارَ بِهِ الْغَضَبُ عِنْدَ هُجُومِ مَا يُغْضِبُهُ، كَفَّ
سُورَتَهُ^(٢) بِحَزْمِهِ، وَأَطْفَأَ ثَائِرَتَهُ بِحِلْمِهِ، وَوَكَّلَ مَنْ اسْتَحَقَّ الْمُقَابَلَةَ إِلَيْ غَيْرِهِ^(٣).

ولعل من أحكم ما قيل في تدبير الحلم والغضب قول أبي حاتم:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ۝ ۝ ۝ فَعِرْضُكَ لِلْجُهَالِ غَنَمٌ مِنَ الْغَنَمِ
فَعَمٌ^(٤) عَلَيْهِ الْحِلْمُ وَالْجَهْلُ، وَالْقَهْ ۝ ۝ ۝ بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْعَدَاوَةِ وَالسُّلْمِ
إِذَا أَنْتَ جَازَيْتَ السُّفِيهَ كَمَا جَزَى ۝ ۝ ۝ فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمٍ
وَلَا تُغْضِبِنِ عِرْضَ السُّفِيهِ، وَدَارِهِ^(٥) ۝ ۝ ۝ بِحِلْمٍ، فَإِنْ أَعْيَا عَلَيْكُمْ فَيَا لَصْرْمٍ^(٦)
فَيَرْجُوكَ تَارَاتٍ، وَيَخْشَاكَ تَارَةً ۝ ۝ ۝ وَيَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بُدَاءً مِنَ الْجَهْلِ فَاسْتَعِنْ ۝ ۝ ۝ عَلَيْهِ بِجُهَالٍ، فَذَلِكَ مِنَ الْعَزْمِ^(٧)

(١) الْأَنْفَةُ: عِزَّةُ النَّفْسِ.

(٢) سُورَتُهُ: قُوَّتُهُ، وَوُثُوبُهُ.

(٣) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالِدِّينِ» (ص ٢٥٥ - ٢٥٧).

(٤) عَمٌ: أَخْفِ، وَالْبِسْ.

(٥) دَارِهِ: مِنَ الْمُدَارَاةِ، وَهِيَ الْمُدَاجَاةُ وَالْمُلَايَنَةُ، وَإِخْفَاءُ الْعَدَاوَةِ.

(٦) الصَّرْمُ: الْقَطْعُ وَالذَّهَابُ.

(٧) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالِدِّينِ» (ص ٢٥٧).

يقول الماوردي - يرحمه الله - معقبا على تلك الأبيات:

«وهذا التدبير إنما يستعمل فيما لا يجد الإنسان بدا من مقارنته، ولا سبيل إلى اطراحه ومطاركته، إما لخوف شره، أو للزوم أمره، فأما من أمكن اطراحه، ولم يضر إبعاده - فالهوان به أولى، والإعراض عنه أصوب»^(١).

واعلم - أخي - أن الحلم منه طبع، ومنه تطبع، فمن حرم الحلم طبعاً، فإنه يمكنه أن يناله عن سبيل التطبع، وذلك بالمجاهدة والممارسة.

قال رسول الله - ﷺ - : «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه»^(٢).

وقال - ﷺ - للأشج بن عبد القيس: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة». قال: «أهما خلقان تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟». قال: «بل جبلك الله عليهما». فقال: «الحمد لله الذي جبلني الله على خلقين يحبهما الله ورسوله»^(٣).

فهذا دليل على أن الحلم يكون طبعاً، ويكون تطبعاً، كما قيل:

لعمرك، إن الحلم زين لأهله ◻◻◻ وما الحلم إلا عادة وتحلم^(٤)

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٧).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٩٥/١٩) عن معاوية، والخطيب في تاريخه (١٢٧/٩) عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٢٨/١)، و«الصحيح» (٣٤٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «أقوال مأثورة» (ص ٤٤٠).

الإخلاص بين الطبع والتطبع

وهذا حلِيمُ العَرَبِ الأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ - يرحمه الله - تكلَّفَ الحِلْمَ، حتَّى أَصْبَحَ يَتَمَثَّلُ بِحِلْمِهِ^(١)، وهو القائلُ: «لَسْتُ بِحَلِيمٍ، وَلَكِنِّي أَتَحَلَّمُ»^(٢).

وإنَّ كَانَ الحِلْمُ فِي العَوَامِ جَمِيلًا، فَهُوَ عِنْدَ حَمَلَةِ العِلْمِ أَجْمَلُ.

قَالَ طَارِسُ - يرحمه الله :-

«مَا حَمَلَ العِلْمُ فِي مِثْلِ جِرَابِ^(٣) حِلْمِ»^(٤).

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ - يرحمه الله :-

«مَا ضَمَّ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمَا عَدِمَ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ هُوَ أَوْحَشُ مِنْ عَدَمِ الحِلْمِ فِي العَالَمِ»^(٥).

قَالَ الشَّاعِرُ:

الحِلْمُ وَالعِلْمُ خَلَّتَا كَرَمًا لِلْمَرْءِ زَيْنٌ، إِذَا هُمَا اجْتَمَعَا
صِنَوَانٍ لَا يَسْتَتِمُ حُسْنُهُمَا إِلَّا يَجْمَعُ لِدَا وَذَاكَ مَعَا
كَمْ مِنْ وَضِيعٍ سَمَا بِهِ العِلْمُ وَإِذَا حِلْمٌ، فَنَالَ العِقْلَاءَ وَارْتَفَعَا
وَمِنْ رَفِيعِ البِنَا أَضَاعَهُمَا أَخْمَلَهُ مَا أَضَاعَ فَاتَّضَعَا^(٦)



(١) يَتَمَثَّلُ بِحِلْمِهِ: أَي يُضْرَبُ بِحِلْمِهِ المَثَلُ.

(٢) «الإحياء» (٣/١٧٩).

(٣) جِرَابٌ - بِكسْرِ الجِيمِ وَفَتْحِهَا، وَالكسْرُ أَفْصَحُ -: وَعَاءٌ زَادَ مِنْ جِلْدٍ، وَالجَمْعُ أَجْرِبَةٌ، وَجُرْبٌ.

(٤) الدَّارِمِيُّ (١/١٥٢).

(٥) «روضة العقلاء» (ص ٢١٣).

(٦) «عيون الأخبار» (٢/٥١٩).

الكَرَمُ



الكَرَمُ: لُبَابُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَمَدَارِجُ الْفَضِيلَةِ، وَصِفَتِ الْأَخْلَاقُ بِهِ، وَشُرِّفَتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ لِلْمَوْصُوفِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَشْرَفُ فِي بَابِهِ يُوصَفُ بِهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ - وَفِي رِوَايَةٍ: صَالِحَ - الْأَخْلَاقِ»^(١).

وَحَسْبُكَ أَنَّ الْكَرَمَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ، يُحِبُّ الْكَرْمَاءَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجَوْدَةَ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - جَوَادٌ، يُحِبُّ الْجَوْدَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(٣).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ، يُحِبُّ الْكَرَمَ»^(٤).

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه ابن عساکر والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٨٠٠) و«الصحيح» (١٣٧٨) و(١٦٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٧٤٤)، و«الصحيح» (١٦٢٧).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٨٠١)، و«الصحيح» (١٣٧٨) و(١٦٢٦).

وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنْ رَيْكُمُ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، فِيرُدَّهُمَا صِفْرًا». وَقَالَ: خَائِبَتَيْنِ،^(١).

وَالكَرْمُ - أَيْضًا - مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ.

عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ»^(٢).

وَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَرُدُّ أَحَدًا يَسْأَلُهُ.

عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ شَيْءٍ - قَطُّ - فَقَالَ: لَا»^(٣).

وَأَهْدَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ بُرْدَةً^(٤) - وَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا - فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ! فَاسْتُئْتِيهَا». قَالَ: «نَعَمْ». فَلَامَ الصَّحَابَةُ ذَلِكَ الرَّجُلَ قَائِلِينَ لَهُ: «أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهَا». فَقَالَ: «رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا»^(٥).

قَالَ الشَّاعِرُ:

عَشِقَ الْمَكَارِمَ، فَهُوَ مَعْتَمِدٌ لَهَا ◻ ◻ ◻ وَالْمَكْرُمَاتُ قَلِيلَةُ الْعُشَاقِ
وَأَقَامَ سُوقًا لِلثَّنَاءِ، وَلَمْ تَكُنْ ◻ ◻ ◻ سُوقُ الثَّنَاءِ تُعَدُّ فِي الْأَسْوَاقِ
بَثَّ الصَّنَائِعَ فِي الْبِلَادِ، فَاصْبَحَتْ ◻ ◻ ◻ تُجَبَّى إِلَيْهِ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

(١) تقدّم تخريبه.

(٢) رواه البخاري (٣٠٤٠) و (٦٠٣٣)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٤) البردة: شملة منسوجة فيها حاشيتها، يتلف بها، والجمع برد.

(٥) رواه البخاري (١٢٧٧) و (٥٨١٠) و (٦٠٣٦) عن سهل الساعدي.

والكَرَمُ مُرْتَبِطٌ بِالْإِيمَانِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، فَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ - الْمُؤْمِنَ بِقَوْلِهِ: «الْمُؤْمِنُ غَيْرٌ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَنِيمٌ»^(٣).

وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا»^(٤).

وما سَتَرَ الْعُيُوبَ كَالْكَرَمِ وَالْجُودِ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي الْبِرَايَا ■■■ وَسَرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءٌ

تَسْتَرِبُ بِالسُّخَاءِ، فَكُلُّ عَيْبٍ ■■■ يَغْطِيهِ. كَمَا قِيلَ. السُّخَاءُ^(٥)

فَتَحَلَّ - أَخِي - بِصِفَةِ الْكَرَمِ، وَلِيَكُنْ كَرَمُكَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، تَكُنْ أَطْبَعَ النَّاسِ سَخَاءً، وَأَشْرَفَهُمْ عَطَاءً.

سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ السُّخَاءِ، فَقَالَ: «مَا كَانَ مِنْهُ ابْتِدَاءً، فَمَا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةِ فَحِيَاءٍ»^(٦).

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «أَجَلُ النَّوَالِ^(٧) مَا وَصَلَ قَبْلَ السُّؤَالِ»^(٨).

(١) الْغَيْرُ - بِكَسْرِ الْغَيْنِ - : الَّذِي لَا تَجْرِبَةُ لَهُ وَلَا خِبْرَةٌ، وَالْجَمْعُ أَغْرَارٌ

(٢) الْخَبُّ - بَفَتْحِ الْخَاءِ وَكسْرِهَا -: اللَّثِيمُ الْخِدَاعُ، فَعَلَهُ خَبٌّ يَخَبُّ بِفَتْحِ الْخَاءِ فِيهِمَا.

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٩٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٦٦٥٣/٢)، وَ«الصَّحِيحَةُ» (٩٣٥).

(٤) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٣١١٢) وَ (٣١١٣) وَ (٣١١٤) وَ (٣١١٦) وَ (٣١١٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧٦١٦/٢).

(٥) «دِيْوَانُ الشَّافِعِيِّ» (ص ٢٢).

(٦) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ١٨٨).

(٧) النَّوَالُ: الْعَطَاءُ.

(٨) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ١٨٨).

وقال بعض الشعراء:

وَقَسَيْ خَلَامِينَ مَالِهِ ۝ ۝ وَمِنَ الْمُرُوءَةِ غَمِيرُ خَالِي
أَعْطَاكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ۝ ۝ وَكَفَاكَ مَكْرُوهَ السُّؤَالِ^(١)

ومتى قدرت - أخي - على الكرم والجود، فاغتنم هذه الفرصة، وبأدر
بتعجيله حذر فواته، وخيفة عجزك.

قيل لأتوشروان: «ما أعظم المصائب عندكم؟». قال: «أن تقدر على
المعروف، ولا تصطنعه حتى يفوت»^(٢).

وقال عبد الحميد: «من أصر الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من
فوتها»^(٣).

وقال بعض الشعراء:

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَ فَاغْتَنِمُهَا ۝ ۝ فَإِنْ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْضُلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا ۝ ۝ فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ
وَإِنْ دَرَّتْ نِيَا قُكَ^(٤) فَاحْتَلِبِهَا ۝ ۝ فَمَا تَدْرِي الْفُضَيْلُ^(٥) لِمَنْ يَكُونُ^(٦)

(١) المرجع السابق (ص ١٨٨).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٢).

(٣) المرجع السابق (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٤) نيق - بالكسر - : جمع ناقة.

(٥) الفضيل: وكذا الناقة إذا فصل عن أمه، والجمع فصلان، وفصال.

(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٠٣).

■ واعلم - أخي - أن للمعروف شروطًا لا يتم إلا بها، ولا يكمل إلا معها^(١)، فمن ذلك:

١. ستره عن إذاعة يستحيل لها، وإخفاؤه عن إشاعة يستدل بها:

قال بعض الحكماء: «إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا صنع إليك فأنشره».

وقال دعبيل الخزاعي:

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم ■ ■ ■ وإن أنعموا أنعموا باكتتام
يقوم القعود إذا أقبلوا ■ ■ ■ وتقدم هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره، وأبلغ دواعي نشره؛ لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفي، وإعلان ما كتم.

قال سهل بن هارون:

خل إذا جنته يوما لتسأله ■ ■ ■ أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه^(٢)، والله يظهرها ■ ■ ■ إن الجميل إذا أخفيتَه ظهرا

٢. تصغيره عن أن يراد مستكبرا، وتقليله عن أن يكون مستكثرا؛ لئلا يصير به مديلا بطرا، ومستطيلا أشرا.

قال العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - : «لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال:

تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنثته، وإذا صغرتَه عظمتَه، وإذا سترته أتممتَه.

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٢٠٣ - ٢٠٥).

(٢) الصنائع: جمع صنعة، وهي اليد والإحسان والنعمة.

————— ﴿مَنْ لَمْ يَشْكُرْ لِنِعْمَتِي إِذْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ لَغَافِلٌ﴾ —————
 والحمد لله رب العالمين

إِذَا مَرَّ بِكَ مِنْدِي مَظْلَمًا أَنَّهُ هُنْدُكَ مَحْقُورٌ مَنفِيرٌ
 لَتَنَاسَاهُ مَنَافٍ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ هُنْدُ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَـ سِيرٌ^(١)

١٠ . سُجَّادُ (بِأَنَّ الْأَمْتِنَانَ بَاءً، وَتَرَكَ الْإِعْجَابَ بِنِعْمَاءِهِ، لِمَا فِيهِمَا مِنْ إِسْقَاطِ الشُّكْرِ،
 وَالْحَبَابِ، الْأَجْرُ)

قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
 وَالْأَذَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤).

وَسَمِعَ ابْنَ سِيرِينَ رَجُلًا يَقُولُ لِرَجُلٍ: فَعَلْتُ إِلَيْكَ وَقَعَلْتُ. فَقَالَ ابْنُ
 سِيرِينَ: «اسْكُتْ، فَلَا خَيْرَ فِي الْمَعْرُوفِ إِذَا أَحْصِيَ».

وقال بعض البلغاء: «مَنْ مَنَّ بِمَعْرُوفِهِ، اسْقَطَ شُكْرَهُ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِعَمَلِهِ أَحْبَطَ أَجْرَهُ».

وقال بعض الفصحاه: «قُوَّةُ الْمَنِّ^(٢) مِنْ ضَعْفِ الْمَنِّ^(٣)».

قال بعض الشعراء:

أَفْسُدَتْ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ^(٤) مِنْ حَسَنِ لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَانٍ

وقال أبو نواس:

فَأَمْضِ لَا تَمْنُنْ عَلَيَّ يَدًا^(٥) مَتَى الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدْرَةٍ

(١) «عيون الأخبار» (١٦٢/٣).

(٢) المن - بالكسر - : جمع منة، يُقال: مَنْ عَلَيْهِ يَمْنٌ مِنْهُ: إِذَا عَدَّدَ لَهُ مَا فَعَلَهُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَفَخَرَّ بِهِ عَلَيْهِ.

(٣) المن - بالضم - : جمع منة، وهي القوة.

(٤) اسديت، اعطيت. (٥) اليد، النعمة والإحسان.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -:

لَا تَحْسَبَنَّ لِلْمَنْ يَمُنُّ ◻ ◻ ◻ ◻ مِنَ الْأَنْامِ عَلَيْكَ مِنْهُ ^(١)
 وَاحْتَرِّ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا ◻ ◻ ◻ ◻ وَاصْبِرْ، فَإِنَّ الصَّبْرَ جُنَّةٌ ^(٢)
 مِنَ الرَّجَالِ عَلَى الْقُلُوبِ ◻ ◻ ◻ ◻ بِأَشَدِّ مِنْ وَقَعِ الْأَسِنَّةِ ^(٣)
 وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ الْعَبَّاسِيُّ:

لَيْسَ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي عَطِيَّتَهُ ◻ ◻ ◻ ◻ عَنِ الثَّنَاءِ، وَإِنْ أَعْلَى بِهِ الثَّمَنُ
 بَلِ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي عَطِيَّتَهُ ◻ ◻ ◻ ◻ لِمَا سِوَى اسْتِحْسَانِهِ الْحَسَنَاتِ
 لَا يَسْتَتِيبُ ^(٤) بِبَدْلِ الْعُرْفِ ^(٥) مُحَمَّدَةً ^(٦) ◻ ◻ ◻ ◻ وَلَا يَمُنُّ إِذَا مَا قَلَّدَ الْمِنَّا ^(٧)

٤ . الْأَيُّ يَحْتَقِرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا نَزْرًا ^(٨)، إِذَا كَانَ الْكَثِيرُ مَعْزُومًا، وَكُنْتَ
 عَنْهُ عَاجِزًا، فَإِنَّ مَنْ حَقَّرَ سِيرَهُ فَمَنَعَ مِنْهُ، أَعْجَزَهُ كَثِيرُهُ فَاَمْتَنَعَ عَنْهُ، وَفِعْلُ قَلِيلٍ
 الْخَيْرِ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: «لَا تَسْتَحْ مِنَ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْمَنَعَ أَقْلُ مِنْهُ، وَلَا تَجِبْ
 عَنِ الْكَثِيرِ، فَإِنَّكَ أَكْثَرُ مِنْهُ».
 وَقَالَ الشَّاعِرُ:

اعْمَلِ الْخَيْرَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَإِنْ كَا ◻ ◻ ◻ ◻ نَ قَلِيلًا، فَلَنْ تُحْبِطَ بِكُلِّهِ
 وَمَتَى تَفْعَلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ ◻ ◻ ◻ ◻ يَأْتِي إِذَا كُنْتَ تَارِكًا لِأَقْلِهِ ١٩

(١) الْمِنَّةُ: الْإِحْسَانُ وَالْفَضْلُ.

(٢) جُنَّةٌ - بِالضَّمِّ - : السَّلَاحُ الرَّاقِي، وَالْجَمْعُ جُنُنٌ.

(٣) الْأَسِنَّةُ: أَطْرَافُ الرَّمَاحِ، وَالْمَفْرُدُ سِنَّانٌ.

(٤) لَا يَسْتَتِيبُ: لَا يَسْأَلُ أَنْ يُثَابَرَ.

(٦) الْمُحَمَّدَةُ: الْحَمْدُ.

(٥) الْعُرْفُ: الْمَعْرُوفُ.

(٧) قَلَّدَ الْمِنَّنَ: أَوْلَاهَا، وَالْمِنْنَ - بِالْكَسْرِ - : جَمْعُ مِنَّةٍ، وَهِيَ النُّعْمَةُ.

(٨) الْفَنَّرُ - بفتح فسكون -: الْقَلِيلُ النَّافِهُ، وَبَابُهُ ظَرَّفَ.

وقال عبيد محمد العماد:

فَقِيرٌ عَلَى جُودٍ - وَإِنْ قُلُ رِفْدَةٌ - (١) ۝ ۝ أَعَزُّ وَأَعْلَى مِنْ غَمِّي عَلَى بُخْلِ
طَهَارَةُ نَفْسِ الْمَرْءِ بِالْجُحُودِ تَنْجَلِي ۝ ۝ وَيُظْهِرُ خَبْثَ النَّفْسِ فِي سَاعَةِ الْبَدْلِ

قال الماوردي - يرحمه الله -:

«وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَسَعَ جَمِيعَ النَّاسِ مَعْرُوفَكَ، وَلَا أَنْ تُؤَلِّيَهُمْ
إِحْسَانَكَ، فَأَعْتَمِدْ بِذَلِكَ أَهْلَ الْفَضْلِ مِنْهُمْ وَالْحِفَاطَ، وَأَقْصِدْ بِذَوِي الرِّعَايَةِ
وَالْوِدَادِ؛ لِيَكُونَ مَعْرُوفُكَ فِيهِمْ نَامِيًا، وَصَنِيعُكَ عِنْدَهُمْ رَاكِيًا» (٢).

قال حسان بن ثابت الأنصاري:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً ۝ ۝ حَتَّى يَصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمُصْنَعِ
فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمَلْ بِهَا ۝ ۝ لِلَّهِ، أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ، أَوْ دَعِ (٣)
وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ: «لَا خَيْرَ فِي مَعْرُوفٍ إِلَى غَيْرِ عَرُوفٍ». وَقَدْ ضَرَبَ
الشَّاعِرُ بِهِ مَثَلًا، فَقَالَ:

كَحِمَارِ السُّوءِ، إِنْ أَشْبَعْتَهُ ۝ ۝ رَمَحَ النَّاسَ (٤)، وَإِنْ جَاعَ نَهَقَ (٥)
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «عَلَى قَدْرِ الْمَغَارِسِ يَكُونُ اجْتِنَاءُ الْغَارِسِ».

فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ:

لَعَمْرُكَ، مَا الْمَعْرُوفُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ۝ ۝ وَفِي أَهْلِهِ إِلَّا كَبَعْضِ الْوَدَائِعِ
فَمُسْتَوْدَعُ ضَاعَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ۝ ۝ وَمُسْتَوْدَعُ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِعِ
وَمَا النَّاسُ فِي شُكْرِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَهُمْ ۝ ۝ وَفِي كُفْرِهَا إِلَّا كَبَعْضِ الْمَزَارِعِ

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٠٥).

(١) الرُّفْدُ - بكر الرِّاءِ - : العَطَاءُ وَالصَّلَّةُ.

(٣) المرجع السابق (ص ٢٠٦).

(٤) رمح النَّاسِ: ضَرَبَهُمْ بِرِجْلِهِ، وَبَابُهُ قَطَعَ.

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٠٦).

فَمَزْرَعَةٌ طَابَتْ، وَأَضْعَفُ نَبْتُهَا ۝ ۝ وَمَزْرَعَةٌ أَكْدَتْ^(١) عَلَى كُلِّ زَارِعٍ^(٢)

وَقَالَ آخَرُ:

وَلَا تَصْطَنِعُ إِلَّا الْكِرَامَ؛ فَإِنَّهُمْ ۝ ۝ يُجَازُونَ بِالنُّعْمَاءِ مَنْ كَانَ مُنْعِمًا

وَمَنْ يَتَّخِذُ عِنْدَ اللُّثَامِ صَنِيعَةً ۝ ۝ تَجِدُهُ عَلَى آثَارِهَا مُتَتْنِدِمًا

وَقَالَ:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ ۝ ۝ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

أَخِي، الْإَيَّامُ دَوْلٌ^(٣)، وَالدهرُ قَلْبٌ؛ فَمَنْ الْمُحَالُ دَوَامُ الْإِنْسَانِ عَلَى حَالٍ،
فَإِنْ مَنَعْتَ أَخَاكَ مَعْرُوفَكَ الْيَوْمَ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ غَدًا لَهُ، فَيَمْنَعُكَ كَمَا مَنَعْتَهُ.

قَالَ الْأَضْبُطُ بْنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِيُّ:

لَا تُهَيِّنُ^(٤) الْفَقِيرَ؛ عَلَيْكَ أَنْ ۝ ۝ تَرْكِعَ^(٥) يَوْمًا، وَالدهرُ قَدْ رَفَعَهُ

وَقَالَ آخَرُ:

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ - إِنْ مَنَعْتَهُ ۝ ۝ مِنْ الْيَوْمِ سُؤْلًا - أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدًا

■ وَاَعْلَمْ - أَخِي - أَنَّ الْكَرَمَ لَيْسَ مُقْتَصِرًا عَلَى بَدْلِ الْمَالِ، لَكِنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ

بِكَثِيرٍ، وَلَهُ مَرَاتِبٌ^(٦)، فَمِنْهَا:

(١) أَكْدَتْ: مَنَعَتْ وَخَيَّبَتْ ظَنَّ الزَّارِعِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْكِدْبَةِ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ الْعَلِيظَةُ الصَّلْبَةُ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَجْعَلُ الْفَأْسُ فِيهَا. (٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٠٦).

(٣) دَوْلٌ - بِالضَّمِّ - : جَمْعُ دَوْلَةٍ، أَي يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ لغيرِكَ.

(٤) لَا تُهَيِّنُ: أَصْلُهُ لَا تُهَيِّنُ مِنَ الْإِهَانَةِ، فَحُذِفَ نُونُ التَّوَكُّيدِ الْخَفِيفَةُ تَخْلُصًا مِنَ التَّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَأَبْقِيَ الْفَتْحَةَ دَلِيلًا عَلَيْهَا.

(٥) تَرْكِعُ: تَذَلُّ وَتَخَضُّعٌ، كُنِيَ بِالرُّكُوعِ عَنِ انْحِطَاطِ الْحَالِ.

(٦) انظر «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٤٣ - ٦٤٧)، و«الهدية الإسلامية» (ص ٨٤ - ٨٩)، و«الهمة العالية» (ص ١٧١ - ١٧٧).

١. الجود بالنفس: وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ^(١) الْبَخِيلُ بِهَا ۝ ۝ ۝ وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

٢. الجود بالنفع بالجاه: فيذُلُ في سبيلِ الخيرِ: مِنْ شَفَاعَةِ حَسَنَةٍ، وَإِحْقَاقِ حَقِّ، وَنُصْرَةِ مَظْلُومٍ، وَإِعَانَةِ ضَعِيفٍ، وَمَشِيٍّ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾

(سورة النساء: ٨٥).

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طَلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، قَالَ: «اشْفَعُوا تُوجَرُوا»^(٢).

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

وَأَدْ زَكَاةَ الْجَاهِ، وَاعْلَمَ بِأَنْهَا ۝ ۝ ۝ كَمِثْلِ زَكَاةِ الْمَالِ، تَمَّ نَصَابُهَا^(٣)

وَكَتَبَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلِ كِتَابَ شَفَاعَةٍ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَشْكُرُهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا هَذَا، عَلَامَ تَشْكُرُنَا؟، إِنَّا نَرَى الشَّفَاعَاتِ زَكَاةَ مُرُوءَتِنَا.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فُرِضَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَا مَلَكَتْ يَدِي ۝ ۝ ۝ وَزَكَاةُ جَاهِي أَنْ أُعِينَ وَأَشْفَعَا

فَإِذَا مَلَكَتْ فِجْدُ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ۝ ۝ ۝ فَاجْهَدْ بِوُسْعِكَ كُلَّهُ أَنْ تَنْفَعَا^(٤)

٣. جود الإنسان براحته ورفاهيته، وإجمام^(٥) نفسه: فيجودُ بِهَا تَعَبًا وَكَدًّا فِي

مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ، وَمِنْ هَذَا جُودُ الْإِنْسَانِ بِنَوْمِهِ وَلَذَّتِهِ لِمَسَامِرِهِ، كَمَا قِيلَ:

(١) ضَنَّ: بَخَلَ.

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢) و(٦٠٢٧) و(٦٠٢٨) و(٧٤٧٦)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص ٢٧).

(٤) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٠).

(٥) الإجمام: الراحة.

مُتَيْمٌ^(١) بِالنُّدَى^(٢)، لَوْ قَالَ سَائِلُهُ: ◻◻◻ هَبْ لِي جَمِيعَ كَرَى^(٣) عَيْنَيْكَ، لَمْ يَنْمِ

٤. الْجُودُ بِالْعِلْمِ وَبِذُلِّهِ: وَهُوَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْجُودِ، وَالْجُودُ بِهِ أَفْضَلُ مِنْ
الْجُودِ بِالْمَالِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مِنَ الْمَالِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْأَنْبِيرِيُّ:

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا ◻◻◻ لَعَمْرُكَ، فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْنَا
وَبَيْنَهُمَا - بِنَصِّ الْوَحْيِ - بَوْنٌ ◻◻◻ سَتَعَلَّمُهُ إِذَا طَهَّ قَرَأْتَا

وقال آخر:

الْعِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لَا نَفَادَ لَهُ ◻◻◻ نِعَمَ الْقَرِينُ إِذَا مَا صَاحِبٌ صَحْبًا
قَدْ يَجْمَعُ الْمَرْءُ مَالًا، ثُمَّ يُسَلِّبُهُ ◻◻◻ عَمَّا قَلِيلٍ، فَيَلْقَى الذَّلَّ وَالْحَرِيًّا
وَجَامِعُ الْعِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَدًا ◻◻◻ وَلَا يُحَادِرُ مِنْهُ الْفَوْتُ وَالسَّلْبَا
يَا جَامِعَ الْعِلْمِ نِعَمَ الذُّخْرِ تَجْمَعُهُ ◻◻◻ لَا تَعْدِلُنَّ بِهِ دُرًّا، وَلَا ذَهَبًا

وَالنَّاسُ فِي الْجُودِ بِهِ عَلَى مَرَاتِبٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَتَقْدِيرُهُ
النَّافِذُ أَلَّا يَنْفَعَ بِهِ بِخِيَالًا أَبَدًا.

وَمِنْ الْجُودِ بِهِ أَنْ تَبْذُلَهُ لِمَنْ لَمْ يَسْأَلْكَ عَنْهُ، بَلْ تَطْرَحَهُ عَلَيْهِ طَرْحًا.

وَمِنْ الْجُودِ بِالْعِلْمِ أَنَّ السَّائِلَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا
جَوَابًا شَافِيًّا، لَا يَكُونُ جَوَابُكَ لَهُ بِقَدْرٍ مَا تَدْفَعُ بِهِ الضَّرُورَةَ، كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ
يَكْتُبُ فِي جَوَابِ الْفُتْيَا (نَعَمْ) أَوْ (لَا) مُقْتَصِرًا عَلَيْهَا.

(١) مُتَيْمٌ: مُسْتَعْبَدٌ ذَلِيلٌ.

(٢) النُّدَى: الْجُودُ وَالْكَرَمُ.

(٣) الْكَرَى: النَّوْمُ.

فَمِنْ جُودِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَسْأَلَةِ السَّائِلِ، بَلْ يَذْكُرُ لَهُ نَظَائِرَهَا، وَمَتَعَلَّقَهَا، وَمَأْخَذَهَا، بِحَيْثُ يَشْفِيهِ وَيَكْفِيهِ.

وَقَدْ سَأَلَ الصَّنْحَابَةَ - رضي الله عنها - النَّبِيَّ - صلَّى الله عليه وآله وسلم - عَنِ الْمَتَوَضِّئِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، فَقَالَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»^(١). فَأَجَابَهُمْ عَنِ سُؤْلِهِمْ، وَجَادَ بِمَا لَعَلَّهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَيْهِ أَحْوَجُ مِمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ.

وَكَانُوا إِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الْحُكْمِ، نَبَّهَهُمْ عَلَى عِلَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: «إِنْ بَعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمْرَةً، فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا؛ يَوْمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٢).

٥. الْجُودُ بِنَفْعِ الْبَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وآله وسلم -: «كُلُّ سُلَامَى^(٣) مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ^(٤) بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَيَكُلُّ خَطْوَةَ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتَمْيِطُ^(٥) الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(٦).

(١) رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٤٨/٢)، و«الصحيح» (٤٨٠).

(٢) رواه مسلم (١٥٥٤) عن جابر بن عبد الله.

(٣) سُلَامَى: أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في سائر عظام البدن ومفاصله، والجمع سُلَامِيَاتٌ.

(٤) تَعْدِلُ: تُصَلِّحُ بِالْعَدْلِ.

(٥) تَمْيِطُ: تُزِيلُ وَتُنْحِي.

(٦) رواه البخاري (٢٧٠٧) و(٢٨٩١) و(٢٩٨٩)، ومسلم - واللفظ له - (١٠٠٩).

٦ . ويدخل في الجود مَنْ يَسْعَى فِي حَوَائِجِ النَّاسِ، وَتَفْرِجُ كُرْبَاتِهِمْ:
عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليه - قَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ
انْفَعُهُمْ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - سُرُورُ تَدْخُلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ
كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأنَّ أُمَّشِيَّ مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ
إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظًا
- وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمَضِّيَهُ أَمْضَاهُ - مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رِضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ
فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يُثَبِّتَهَا ^(١) لَهُ، أَثَبَّتَ اللَّهُ - تَعَالَى - قَدَمَهُ يَوْمَ تَزَلُّ الْأَقْدَامُ، ^(٢)

٧ . ويدخل في الجود مَنْ يَسْتَحِقُّ عَلَى عَمَلٍ اجْرًا، فَيَتْرِكُ الْأَجْرَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ.

٨ . وَمِنْ جَمِيلِ الْجُودِ جُودُ الْإِنْسَانِ بِالنُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْتَ كَنْزُ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي ۝ ۝ لُجَّةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكَ
مَحْفَلِ الْأَيَّامِ فِي شَوْقٍ إِلَى ۝ ۝ صَوْتِكَ الْعَالِي، عَسَاهُمْ يَسْمَعُوكَ

٩ . جُودُ الْإِنْسَانِ بِعِرْضِهِ لِمَنْ نَالَ مِنْهُ، أَوْ اسْتَطَالَ عَلَيْهِ:

كَمَا فِي خَبَرِ أَبِي ضَمْضَمٍ قَالَ النَّبِيُّ - صلوات الله عليه - : «أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ
مِثْلَ أَبِي ضَمْضَمٍ - أَوْ ضَمْضَمٍ، شَكََّ ابْنُ عَيْدٍ ^(٣) - كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي قَدْ
تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ، ^(٤)

(١) يثبتها: ينجزها.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦/١)، و«الصحيحة» (٩٠٦).

(٣) هو محمد بن عبيد بن حساب.

(٤) رواه أبو داود (٤٨٨٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٨٠/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥)، وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٦٣/٣)، وكذلك الألباني في «الإرواء» (٣٢/٨)، ولكن له شاهد عند أبي هريرة، أخرجه ابن بشكوال في كتابه «الغوامض والمبهمات» (٤٤٩)، ونصه: «ان رجلاً من المسلمين قال: اللهم، إنه ليس لي مال أتصدق به؛ فأيمأ رجل من المسلمين أصاب من عرضي شيئاً، فهو له صدقة، فأوحى الله إلى النبي - صلوات الله عليه - أنه قد غفر له». صححه ابن حجر في «الإصابة» (٥٠٠/٢).

وَقِيلَ لِلشَّعْبِيِّ: فُلَانٌ يَتَنَقَّصُكَ وَيَسْتَمُكُ. فَتَمَثَّلَ الشَّعْبِيُّ بِقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ (١):

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرِ دَاءٍ مُخَامِرٍ (٢) ■ ■ ■ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ

أَسِيئِي بِنَا، أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ ■ ■ ■ لَدَيْنَا، وَلَا مَقْلِيَةَ إِنْ تَقَلَّتْ (٣) (٤)

١٠. الجود بالصبر، والاحتتمال والإغضاء؛ وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصرُّ، وأملكُ لنفسه، وأشرفُ لها، ولا يقدر عليها إلا النفوسُ الكبارُ.

وفي هذا الجود قال الله - تعالى - ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الشورى: ٤٠).

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذن فيه، ومقام الفضل وتدب إليه، ومقام الظلم وحرمة.

قال الشاعر:

هُمُ النَّاسُ وَالدُّنْيَا، وَلَا بَدُءُ مِنْ قَدَى (٥) ■ ■ ■ يُلِمُّ (٦) بَعَيْنٍ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبًا

وَمِنْ قِلَّةِ الْإِنْصَافِ أَنْكَ تَبْتَغِي الْـ ■ ■ ■ مُهْدَبًا فِي الدُّنْيَا، وَلَسْتَ الْمُهْدَبًا

(١) شاعرٌ مقيمٌ مشهورٌ من أهل الحجاز، معروفٌ بابن أبي جمعة، كان دميم الخلق قصيراً، طوله ثلاثة أشبار؛ فل هذا صغر اسمه، وقد على عبد الملك بن مروان، فازدرى منظره إلى أن عرف أدبه، فرفع مجلسه، وعزة هذه المشهور بها المنسوب إليها - لتغزله فيها - هي عزة بنت جميل أم عمرو الضمرية، وأخباره معها كثيرة، وكان عفيفاً في حبه، توفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ، على المشهور.

(٢) الداء المخامر: الدفن المستر. أي أن ما استحلت عزة من ثلب أعراضنا يحل لها حال كونه هنيئاً غير مسبب لها داء ولا أذى.

(٣) تقلت: تبغضت. وفي البيت التفات من الخطاب إلى الغيبة.

(٤) «بهجة المجالس» (٢/٤٣٦).

(٥) القدى: جمع قذاة، وهي ما يقع في العين، والشراب، والماء من تراب، ووسخ، وغير ذلك.

(٦) يلِمُّ: ينزل.

١١ . الجُودُ بِالْخُلُقِ، وَالْبِشْرُ وَالْبَسْطَةُ، وَمُقَابِلَةُ النَّاسِ بِالطَّلَاقَةِ؛ وَهُوَ فَوْقَ
الجودِ بالصَّبْرِ، وَالْإِحْتِمَالِ وَالْعَفْوِ، وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ،
وَهُوَ أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ - صلوات الله عليه - : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ
شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، ^(١) »

وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ وَالْمَسَارِّ، وَأَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ مَا فِيهِ .

قَالَ الشَّاعِرُ:

لِللَّهِ تِلْكَ الدَّارُ أَيُّ مَحَلَّةٍ ◦ ◦ ◦ لِلجُودِ، وَالْإِفْضَالِ، وَالتَّكْرِيمِ؛
هُم كَالشُّمُوسِ مَهَابَةٌ وَجَلَالَةٌ ◦ ◦ ◦ أَخْلَاقُهُمْ فِي الْحُسْنِ كَالتُّسْنِيمِ

١٢ . وَيَدْخُلُ فِي قَبِيلِ الْأَجْوَادِ مَنْ يَكُونُ لَهُ ذِيْنٌ عَلَى آخِرٍ، فَيَطْرَحُهُ عَنْهُ،

وَيُخْلِى ذِمَّتَهُ مِنْهُ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ الْوَصُولَ إِلَيْهِ دُونَ عَنَاءٍ. وَلَا تَعَبٍ:

كَانَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَبَّادَةَ - رضي الله عنه - مِنَ الْأَجْوَادِ الْمَعْرُوفِينَ، حَتَّى إِنَّهُ مَرَضَ
مَرَّةً، فَاسْتَبَطَّ إِخْوَانَهُ فِي الْعِيَادَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ مِمَّا
لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ، فَقَالَ: أَخْزَى اللَّهُ مَا لَا يَمْنَعُ الْإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ، ثُمَّ أَمَرَ
مُنَادِيًا يُنَادِي: مَنْ كَانَ لَقَيْسٍ عَلَيْهِ مَالٌ، فَهُوَ مِنْهُ فِي حِلٍّ. فَمَا أَمْسَى حَتَّى
كُسِرَتْ عَتَبَةُ بَابِهِ لِكثْرَةِ مَنْ عَادَهُ ^(٢) .

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (٦٤٢/٢).

قَالَ الشَّاعِرُ - يَمْدَحُ كَرِيمًا - :

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتَ لَاءً ۝ ۝ ۝ مَحْرَمَةٌ عَلَيْكَ فَلَا تَحِلُّ
 إِذَا حَضَرَ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ ۝ ۝ ۝ وَإِنْ حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلٌّ
 وَمَا تَدْرِي إِذَا أَنْفَقْتَ مَالًا ۝ ۝ ۝ أَيْكَثُرُ فِي عَطَائِكَ أَمْ يَقِلُّ
 جُزَيْتَ عَنِ الْبَرِيَّةِ كُلِّ خَيْرٍ ۝ ۝ ۝ فَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَطْلُ الْأَجَلُّ
 بِوَجْهِكَ نَسْتَضِيءُ إِذَا سَرَيْنَا ۝ ۝ ۝ جَبِينٌ فِي اللَّيَالِي مُشْمَعِلٌ
 وَذَكَرُكَ فِي الْمَسَامِعِ خَيْرُهُادٍ ۝ ۝ ۝ يُكْرَرُ فِي الْجُمُوعِ فَلَا يَمَلُّ
 فَدَتِكَ نَفْسُنَا عَنْ كُلِّ هَوْلٍ ۝ ۝ ۝ وَيَفْدِيكَ الْحَجِيجُ إِذَا أَهْلُوا ۝

١٣ . وَمِنَ الْجُودِ حَضُّ النَّاسِ عَلَى الْخَيْرِ، وَحَثُّهُمْ عَلَى الْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ فِي

وَجُوهِ الْبِرِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي
 يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (سورة الماعون: ١-٣) .

فَذَكَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ لَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ،
 وَفِي هَذَا أَمْرٌ لِلْعَبْدِ بِأَنْ يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِطْعَامَهُ بِنَفْسِهِ .

١٤ . وَيَدْخُلُ فِي الْجُودِ دَلَالَةُ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْخَيْرِ، وَتَذَكِيرُهُمْ بِطُرُقِهِ:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عَقِبَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

- ﷺ - : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » (١) .

١٥ . وَيَدْخُلُ فِي الْجُودِ شُكْرُ الْأَجْوَادِ، وَالِدُعَاءُ لَهُمْ، وَتَشْجِيعُهُمْ عَلَى مَزِيدِ

مِنَ الْبَدَلِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - نَبِيَّهُ - ﷺ - بِأَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنْ

الْأَغْنِيَاءُ، أَمْرَهُ بِالِدُّعَاءِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (سورة التوبة: ١٠٣).

فَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : ادْعُ لَهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ أَي : طُمَأْنِينَةٌ لِقُلُوبِهِمْ ، وَاسْتِبْشَارٌ لَهُمْ ^(١) .

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْفَقْ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاحًا ^(٢) ◻ ◻ ◻ وَلَا تَطْعُ فِي سَبِيلِ الْجُودِ عُدْالًا ^(٣)

مَنْ جَادَ جَادَ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَاسْتَتَرَتْ ◻ ◻ ◻ عِيُوبُهُ، وَكَفَى بِالْجُودِ سِرِّيَالًا ^(٤)

١٦ . الْجُودُ يَتْرِكُهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ عَلَيْهِمْ: فَلَا يَتَلَفَّتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَسْتَشْرِفُ لَهُ بِقَلْبِهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ بِحَالِهِ وَلَا لِسَانِهِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: «إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَدَلِ».

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«فَلِسَانُ حَالِ الْقَدَرِ يَقُولُ لِلْفَقِيرِ الْجَوَادِ: وَإِنْ لَمْ أُعْطِكَ مَا تَجُودُ بِهِ عَلَى النَّاسِ، فَجُدْ عَلَيْهِمْ بِزُهْدِكَ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ، تَفْضُلٌ عَلَيْهِمْ، وَتُزَاحِمُهُمْ فِي الْجُودِ، وَتَنْفِرِدْ عَنْهُمْ بِالرَّاحَةِ» ^(٥) .

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ:

«عَوْدُ نَفْسِكَ السَّخَاءَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَخَاءٌ: سَخَاوَةٌ نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَسَخَاوَةٌ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ».

(٢) إِفْلَاحًا: افْتِقَارًا، يُقَالُ: أَقَلَّ الرَّجُلُ: إِذَا افْتَقَرَ.

(١) «تفسير ابن سعدي» (٢/٢٨٣).

(٣) عُدْالٌ: جَمْعُ عَادِلٍ، وَهُوَ اللَّائِمُ.

(٤) السَّرِّيَالُ: الْقَمِيصُ السَّابِغُ، وَالْجَمْعُ سَرَايِلُ.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٦٤٧).

وَسَخَاوَةٌ نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَكْثَرُهُمَا، وَأَقْرَبُهُمَا مِنْ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ
 الْمَفَاخِرَةُ، وَتَرَكُهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَمْحَضٌ^(١) فِي التَّكْرُمِ، وَأَبْرَأُ مِنَ الدَّنَسِ وَأَنْزَهُ.
 فَإِنْ هُوَ جَمَعَهُمَا، فَبَدَّلَ وَعَفَّ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْجُودَ وَالكَرَّمَ^(٢).

١٧. وَمِنْ الْجُودِ مُعَامَلَةُ الْكِرَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ
 فَأَكْرَمُوهُ»^(٣).

هَذَا مَا تَيَسَّرَ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ ضَمِنَ الْمَزِيدَ لِلْجَوَادِ،
 وَالْإِتْلَافَ لِلْمُمْسِكِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ
 الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ: فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ، أَعْطِ مَنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ:
 اللَّهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٤).

وَالكَرِيمُ - حَقًّا - مَنْ يُلَاقِي خَدْمَهُ الزَّائِرِينَ وَالْمُسْتَجِدِّينَ^(٥) بِأَدَبٍ جَمِيلٍ،
 وَيَسْتَقْبِلُهُمْ هُوَ بِالْبِشْرِ وَالتَّرْحَابِ؛ حَتَّى يَحْفَظَ لَهُمْ عِزَّتَهُمْ.

قَالَ ابْنُ هُرْمَةَ - يمدح رجلاً -:

هَشْأُ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِبَابِهِ ۝ ۝ ۝ سَهْلُ الْحِجَابِ، مُؤَدَّبُ الْخُدَامِ^(٦)

(١) امحض: أخلص.

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١١١-١١٢).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٢٦٩)، و«الصحيح» (٥/١٢٠٥).

(٤) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٥) المستجدين: جمع مستجد، وهو السائل، يقال: استجداه: أي طلب جدواه، والجدوى: العطيّة.

(٦) «عيون الأخبار» (١/١٢٩).

وَأَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْكَرَمِ أَنْ يَجُودَ الرَّجُلُ بِمَا يُحِبُّ، وَبِمَا هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، فَيَدَعُ حَاجَتَهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، وَذَلِكَ يُسَمَّى الْإِيثَارَ.

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران: ٩٢). وَقَالَ - جَلَّ شَأْنُهُ - : ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١) (سورة الحشر: ٩).

وَحِينَ سَأَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - : «أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟»، قَالَ: «جُهْدُ الْمُقْبِلِ»^(٢).

وَعَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟»، قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ صَاحِبٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْغِنَى»^(٣).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَلَمَّا كَانَتْ مُجَاهِدَةُ النَّفْسِ عَلَى إِخْرَاجِ الْمَالِ مَعَ قِيَامِ مَانِعِ الشُّحِّ دَالًا عَلَى صِحَّةِ الْقَصْدِ، وَقُوَّةِ الرَّغْبَةِ فِي التُّرْبَةِ»^(٥) - كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ نَفْسَ الشُّحِّ هُوَ السَّبَبُ فِي هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ»^(٦).

قَالَ دَعْبِلُ الْخَزَاعِي:

وَلَيْسَ الْفَتَى الْمُعْطَى عَلَى الْيُسْرِ وَحْدَهُ » وَلَكِنَّهُ الْمُعْطَى عَلَى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ^(٧)

(١) الْخَصَاصَةُ: الْفَقْرُ.

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٦٧٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٤٧١).

(٣) الشُّحُّ: الْبُخْلُ مَعَ حِرْصٍ.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤١٩) وَ (٢٧٤٨)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣٢).

(٥) التُّرْبَةُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ.

(٧) «عَيُونَ الْأَخْبَارِ» (١/٣٤٤).

(٦) «فَتْحُ الْبَارِيِّ» (٣/٢٨٥).

وقال آخر:

ليس جودُ الفتيانِ مِنْ فضلِ مالٍ ۝ ۝ إنما الجودُ للمُقلِّ المُواسي^(١)
 وضدُّ الكرمِ البخلُ، وهو خلقٌ مردولٌ يدعو إلى مساوئِ الأخلاقِ.
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «إِيَّاكُمْ
 وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ: أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخَلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ
 فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالضُّجُورِ فَضَجَرُوا.»^(٢)

قال الماوردي - يرحمه الله -:

«وَقَدْ يَحْدُثُ عَنِ الْبُخْلِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ - وَإِنْ كَانَ ذَرِيعَةً إِلَى كُلِّ
 مَذْمَةٍ - أَرْبَعَةٌ أَخْلَاقٍ نَاهِيكَ بِهَا ذَمًّا، وَهِيَ: الْحِرْصُ، وَالشَّرُّ، وَسُوءُ الظَّنِّ،
 وَمَنْعُ الْحُقُوقِ.»

فَأَمَّا الْحِرْصُ فَهُوَ شِدَّةُ الْكَدْحِ، وَالْإِسْرَافُ فِي الطَّلَبِ، وَأَمَّا الشَّرُّ فَهُوَ
 اسْتِقْلَالُ الْكِفَايَةِ، وَالْأَسْتِكْثَارُ لِعِغْرِ حَاجَةٍ، وَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ فَهُوَ عَدَمُ الثِّقَةِ بِمَنْ
 هُوَ لَهَا أَهْلٌ، فَإِنْ كَانَ بِالْحَالِقِ كَانَ شَكًّا يَثُولُ إِلَى ضَلَالٍ، وَإِنْ كَانَ بِالْمَخْلُوقِ
 كَانَ اسْتِخَانَةً يَصِيرُ بِهَا مَخْتَانًا وَخَوَافًا؛ لِأَنَّ ظَنَّ الْإِنْسَانِ بغيرِهِ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ مِنْ
 نَفْسِهِ، فَإِنْ وَجَدَ فِيهَا خَيْرًا ظَنَّهُ فِي غَيْرِهِ، وَإِنْ رَأَى فِيهَا سُوءًا اعْتَقَدَهُ فِي النَّاسِ،
 وَقَدْ قِيلَ فِي الْمَثَلِ: كُلُّ إِنَاءٍ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ، وَأَمَّا مَنْعُ الْحُقُوقِ فَإِنَّ نَفْسَ الْبَخِيلِ لَا
 تَسْمَحُ بِفِرَاقِ مَحْبُوبِهَا، وَلَا تَتَّقَادُ إِلَى تَرْكِ مَطْلُوبِهَا، فَلَا تُدْعِنُ لِحَقِّ، وَلَا
 تُجِيبُ إِلَى إِنْصَافٍ.

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه أبو داود (١٦٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٧٨/١)، و«الصحيح» (١٤٦٢).

وَإِذَا آَلَ الْبَخِيلُ إِلَى مَا وَصَفْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، وَالشِّيمِ اللَّثِيمَةِ - لَمْ يَبْقَ مَعَهُ خَيْرٌ مَرْجُوءٌ، وَلَا صَلَاحٌ مَأْمُوءٌ^(١).

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَتَعَوَّذُ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ مِنَ الْبُخْلِ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ: إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ»^(٢).

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله -:

«إِنَّ الْجَمِيعَ يَتِمَادِحُونَ بِالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ، حَتَّىٰ إِنْ ذَلِكَ عَامَةٌ مَا تَمْدَحُ بِهِ الشُّعْرَاءُ مَمْدُوحَهُمْ فِي شِعْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ يَتَذَامُونَ بِالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ».

ثُمَّ قَالَ: «وَلَمَّا كَانَ صَلَاحُ بَنِي آدَمَ لَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إِلَّا بِالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ - بَيْنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْهُ بِتَرْكِ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ، أَبَدَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ عَنْهُ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ، أَبَدَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (سورة محمد: ٣٨).

ثُمَّ قَالَ - يرحمه الله -:

«وَبِالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَضَّلَ اللَّهُ السَّابِقِينَ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٨٥ - ١٨٦) بتصرف.

(٢) رواه البخاري (٦٣٦٥)، و(٦٣٧٠) و(٦٣٧٤) و(٦٣٩٠) عن سعد بن أبي وقاص.

وَقَدْ ذَكَرَ الْجِهَادَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِهِ، وَمَدَحَهُ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الشَّجَاعَةُ وَالسَّمَاحَةُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَطَاعَةِ رَسُولِهِ^(١).

وَكَمَا أَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالكَرَمَ صِنُوفَانِ لَا يَفْتَرِقَانِ، فَالْبُخْلُ وَالْجُبْنُ قَرِينَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ، فَإِنْ عَدِمَ النَّفْعَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ بِيَدَيْهِ فَهُوَ الْجُبْنُ، وَإِنْ كَانَ بِمَالِهِ فَهُوَ الْبُخْلُ»^(٢).

وَالْبُخْلُ يُرِزُ مَا اسْتَرَ مِنْ عِيُوبِ صَاحِبِهِ.

قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ ◻ ◻ ◻ وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا. سَخَاؤُهُ
تَغْطَى بِأَثْوَابِ السُّخَاءِ، فَإِنِّي ◻ ◻ ◻ أَرَى كُلَّ عَيْبٍ فَالسُّخَاءُ غِطَاؤُهُ^(٣)

وَالْبُخْلُ يَكْسِي صَاحِبَهُ جَلْبَابَ الْمَسْكِنَةِ وَالْفَقْرِ.

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ:

إِنَّ الْبَخِيلَ - وَإِنْ أَقَادَ غِنَى -^(٤) ◻ ◻ ◻ لَتُرَى عَلَيْهِ مَخَايِلُ^(٥) الْفَقْرِ

وَالْبَخِيلُ لَا يَسُودُ قَوْمَهُ.

(١) «الاستقامة» (٢/٢٦٣ - ٢٧٠) باختصار.

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٨٥).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٨٤).

(٤) أقاد غنى: استفاد.

(٥) المخايل: العلامات والأمارات، واحداً مخيلة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ سَيِّدُكُمْ، يَا بَنِي سَلَمَةَ؟». قُلْنَا: «جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَىٰ أَنَا نُبُخْلُهُ». قَالَ: «وَإِي دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ؟»، بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ،^(١)

وفي هذا قال شاعر الأنصار:

وقال رسول الله - والحق قوله - ◻ ◻ ◻
 فمن قال منا: من تسمون سيدي؟
 فقالوا: هو الجدُّ بن قيس على التي ◻ ◻ ◻
 فتي ما تخطى خطوة نحو ربيبة^(٢) ◻ ◻ ◻
 ولا مد في يوم إلى سوءة^(٣) يدا
 فسودَّ عمرو بن الجموح بجوده ◻ ◻ ◻
 وحق لعمره بالندي أن يسوداً
 إذا جاءه السؤال أذهب ماله ◻ ◻ ◻
 وقال: خذوه، إنه عائد غداً

والبخيل ليس له خليل، فبخله يبغضه إلى الناس حتى أولاده.

ولله درُّ أبي محمد إسحاق الموصلي - يرحمه الله - حيث قال:

وأمره بالبخل قلت لها: اقصري ◻ ◻ ◻
 فليس إلى ما تأمرين سبيل
 أرى الناس خلان الجواد، ولا أرى ◻ ◻ ◻
 بخيلاً له في العالمين خليل
 واني رأيت البخل يزري بأهله ◻ ◻ ◻
 فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
 ومن خير حالات الفتى - لو علمته - ◻ ◻ ◻
 إذا نال شيئاً أن يكون ينيل^(٤)

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٠٤/٢).

(٢) ربيبة: شبهة وتهمة، والجمع ريب.

(٣) السوءة: الفاحشة، جمعها سوءات.

(٤) ينيل: يعطي.

عَطَائِي عَطَاءُ الْمُكْثِرِينَ تَكْرُمًا ^(١) وَمَالِي - كَمَا قَدْ تَعْلَمِينَ - قَلِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ، أَوْ أَحْرَمُ الْغِنَى ^(٢) وَرَأَيْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَلِيلًا ^(٣)
وَالْبَخِيلُ إِذَا مَاتَ خَلَفَ مَا جَمَعَهُ لَوَارِثِهِ، وَذَهَبَ هُوَ بِسُوءِ الشَّأْنِ .
قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: «الْبَخِيلُ حَارِسٌ نِعْمَتِهِ، وَخَازِنٌ وَرَثَتِهِ» ^(٤) .
وَقَالَ حَاتِمُ الدِّثَانِيِّ:

إِنَّ الْبَخِيلَ إِذَا مَاتَ يَتْبَعُهُ ^(٥) سُوءُ الشَّأْنِ، وَيَحْوِي الْوَارِثَ الْإِبْرَأَ
وَقَالَ آخَرَ:

إِذَا كُنْتَ جَمَاعًا، لِمَالِكَ مُمَسِكًا ^(٦) فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينُ
تُوَدِّيهِ مَذْمُومًا إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ ^(٧) فَيَأْكُلُهُ عَفْوًَا ^(٨) وَأَنْتَ دَفِينٌ ^(٩)
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ:

يُضْنِي الْبَخِيلُ بِجَمْعِ الْمَالِ مُدَّتَهُ ^(١٠) وَلِلْحَوَادِثِ وَالْوَرَاثِ مَا يَدْعُ
كَدُودَةَ الْقَزْمِ مَا تَبْنِيهِ يَخْنُقُهَا ^(١١) وَغَيْرَهَا بِالَّذِي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ ^(١٢)
وَقَالَ آخَرَ:

وَذِي حِرْصٍ تَرَاهُ يَلْمُ وَقَفْرًا ^(١٣) لَوَارِثِهِ، وَيَدْفَعُ عَنْ حِمَاهُ
كَكَلْبِ الصَّيْدِ يُمْسِكُ - وَهُوَ طَاوٍ - ^(١٤) فَرَيْسَتَهُ لِيَأْكُلَهَا سِوَاهُ ^(١٥)

(١) «وفيات الأعيان» (١/٢٠٤)، والبيتان الأخيران ذكرهما الذمبي في «السيرة»، وذكر أنه أنشدهما الرشيدي، فأمر له بمائة ألف درهم (١١/١١٨ - ١٢١).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٨٥).

(٣) عفوا: أي بغير مسألة.

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٨٥).

(٥) «البداية والنهاية» (١٢/٥٠٢).

(٦) الوفير - بالفتح - : المال الكثير.

(٧) طاو: اسم فاعل للفعل طوي يطوي طوي: إذا جاع وضمم بطنه من الجوع.

(٨) «جواهر الأدب» (ص ٧١٤ - ٧١٥).

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مِثْلِ السَّوِّءِ! .

وَالْبَخِيلُ إِنْ مَاتَ عَزَّتْ وَرَثَتُهُ عَنْهُ كَثْرَةُ مَالِهِ .

قَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ:

أَبْقَيْتَ مَالَكَ مِيرَاثًا لِوَارِثِهِ ٥ ٥ فَلَيْتَ شِعْرِي^(١) مَا أَبْقَى لَكَ الْمَالُ^{١٩}
 الْقَوْمُ بَعْدَكَ فِي حَالِ تَسْرُهُمْ ٥ ٥ فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ حَالَتْ بِكَ الْحَالُ^{١٩}
 مَلُّوا الْبُكَاءَ، فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ ٥ ٥ وَاسْتَحْكَمُ الْقَوْلُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالُ^{١٩}
 وَلْتَهُمْ عَنْكَ دُنْيَا أَقْبَلَتْ لَهُمْ ٥ ٥ وَادْبَرَتْ عَنْكَ، وَالْأَيَّامُ أَحْوَالُ^(٢)

وَأخيراً:

اللَّهُ أَعْطَاكَ، فَابْتَدِلْ مِنْ عَطِيَّتِهِ ٥ ٥ فَالْمَالُ عَارِيَةٌ، وَالْعُمُرُ رَحَالُ^{١٩}
 الْمَالُ كَالْمَاءِ، إِنْ تَحْبَسَ سَوَاقِيهِ ٥ ٥ يَأْسَنُ، وَإِنْ يَجْرِي عَذْبٌ مِنْهُ سَلْسَالُ^{١٩}



(١) ليت شعري: ليتني أعلمُ.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٢٣).

إِكْرَامُ الضَّيْفِ



إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَجَمِيلِ الْخِصَالِ، تَحَلَّى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَحَثَّ عَلَيْهِ الْمُرْسَلُونَ، مَنْ عُرِفَ بِالضِّيَافَةِ عُرِفَ بِشَرَفِ الْمَنْزِلَةِ، وَعُلُوِّ الْمَكَانَةِ، وَانْقَادَ لَهُ قَوْمُهُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ سَادَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، لَمْ يَكُنْ كَمَالُ سُودِّهِ إِلَّا بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ، كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - يَرْحَمَهُ اللَّهُ - :

«وَالْعَرَبُ لَمْ تَكُنْ تَعُدُّ الْجُودَ إِلَّا قِرَى الضَّيْفِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَلَا تَعُدُّ السَّخِيَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذَلِكَ»^(١).

وَقَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ - ﷺ - عَلَى إِكْرَامِ الضَّيْفِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَبْصَرْتُ عَيْنَايَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَسَمِعْتُهُ أُذْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ». قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ»^(٣).

(١) «روضۃ العقلاء» (ص ٢٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٣) . . . البخاري (٦٠١٩) و(٦١٣٥) و(٦٤٧٦)، ومسلم (٤٨).

وفي روايةٍ أُخرى عنه - أيضاً - عن النبي ﷺ - قال: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يومٌ وليلة، ولا يحلُّ لرجلٍ مُسلمٍ أن يقيمَ عندَ أخيه حتى يؤثمه»^(١)، قالوا: «يا رسولَ الله، وكيف يؤثمه؟»، قال: «يقيمُ عندهُ ولا شيءَ له يُقرِّبه به»^(٢).

وقال النبي ﷺ - لعبدِ اللهِ بنِ عمرو - رضي الله عنه: «إن لزورك^(٣) عليك حقاً»^(٤)، ويقرُّ النبي ﷺ - سلمانَ الفارسيَّ على قوله لأبي الدرداء: «إن لضيْفِكَ عليك حقاً»^(٥).

وعن ابنِ عباسٍ - رضي الله عنهما - قال: «خطبَ رسولُ اللهِ - ﷺ - يومَ تبوك، فقال: «ما منَ النَّاسِ مثْلُ رجلٍ أخذَ بعنانِ فرسه»^(٦)، فيجاهدُ في سبيلِ اللهِ، ويجتنبُ شرورَ النَّاسِ، ومثْلُ رجلٍ بادٍ^(٧) في غنمه، يقرِّي ضيفه، ويؤدِّي حقه»^(٨).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: «إني مَجْهُودٌ»^(٩). فأرسلَ إلى بعضِ نساءِه، فقالت: «والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما عندي إلا ماءٌ. ثمَّ أرسلَ إلى أُخرى، فقالت مثْلَ ذلك، حتَّى قلنَ كلُّهنَّ مثْلَ ذلك: «لا والذي بعثَكَ بالحقِّ».

(١) يؤثمه: يُخرجه، والحرَجُ: هو الضيقُ، أي: حتَّى يضيَّقَ عليه.

(٢) رواه مسلمٌ (٤٨). قال النووي - يرحمه الله -: «معناه الاهتمامُ به في اليومِ الأوَّلِ والليلِ، وإتحافُهُ بما يمكنُ من برِّ وألطف، وأمَّا في اليومِ الثاني والثالثِ فَيُطعمُهُ ما تيسَّرَ، ولا يزيدُ على عادته، وأمَّا ما كانَ بعدَ الثلاثةِ فهو صدقةٌ، إن شاءَ فَعَلَّ، وإن شاءَ تَرَكَ».

(٣) الزُّورُ - بالفتح - : الزائرُ، يستوي فيه المفردُ وغيره.

(٤) رواه البخاري (١٩٧٤) و (١٩٧٥) و (٦١٣٤)، ومسلمٌ (١١٥٩).

(٥) رواه الترمذي (٢٤١٣) بإسناد صحيح.

(٦) عِنانُ الفرسِ: اللجامُ الَّذي يوضعُ في رأسِه؛ ليقادَ به، والجمعُ أَعِنَّةٌ، وَعَنَّ.

(٧) بادٍ: مُقيمٌ في الباديةِ، وبأبهُ عداً.

(٨) رواه أحمدٌ في «مسنده» (٣١١/١) بإسناد صحيح.

(٩) مَجْهُودٌ: أصابني الجهدُ - بفتح الجيم - : وهو المشقةُ، والحاجةُ، وسوءُ العيشِ والجوعِ.

الزَّخْرُوفُ بَيْتِ الطَّيْرِ وَالنَّطِيقِ

فَقَالَ: مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟ رَحِمَهُ اللهُ!.. فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَاَنْطَلِقْ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ»^(١). فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: «هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟». قَالَتْ: «لَا، إِلَّا قُوتُ صَبِيَانِي». قَالَ: «فَعَلَّيْهِمْ»^(٢) بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا، فَأَطْفَيْنِي السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ. قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدًا^(٣) عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ!^(٤)

هَلْ رَأَيْتَ - أَخِي فِي اللهِ - إِشَارًا كَهَذَا؟!، وَحَسْبُكَ أَنَّ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تَعَجَّبَ مِنْ صَنِيعَيْهِمَا!.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا يُذَكِّرُ فِي الضِّيَافَةِ: أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - خَرَجَ يُرِيدُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، فَأَصَابَتْهُ السَّمَاءُ وَهُوَ فِي أَرْضٍ قَفْرٍ لَيْلًا، فَرَفَعَتْ لَهُ نَارًا، فَقَالَ لِغُلَامِهِ مَقْسَمًا: اقْصِدْ بِنَا النَّارَ.

فَاتَّاهَا، فَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ أَهْلُهُ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللهِ مِنَ أَجْمَلِ النَّاسِ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْخَ أَعْظَمَهُ، وَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: إِنْ كَانَ هَذَا قُرْشِيًّا، فَهُوَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَإِنْ كَانَ يَمَانِيًّا فَهُوَ مِنْ بَنِي آكَلِ الْمَرَارِ، فَهَيِّئِي لَنَا عَنزَكَ، أَقْضِي بِهَا ذِمَامَهُ.

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إِذَا تَمَوْتُ ابْنَتِي مِنَ الْجُوعِ.

(١) الرَّحْلُ: مَا يُجْعَلُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ لِلرُّكُوبِ، مِثْلُ: السَّرَجِ لِلْفَرَسِ، وَالْإِكَافِ وَالْبَرْدَعَةِ لِلْحِمَارِ، وَالرَّحْلُ أَصْغَرُ مِنَ الْقَتَبِ، وَالْجَمْعُ رِحَالٌ، وَأَرْحَلُ.

(٢) عَلَّاهُ بِالشَّيْءِ تَعْلِيلًا: لَهَا بِهِ.

(٣) غَدًا: ذَهَبَ صَبَاحًا، وَبَابُهُ دَعَا.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٩٨) وَ (٤٨٨٩)، وَمُسْلِمٌ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٢٠٥٤).

قَالَ الشَّيْخُ: الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ اللَّوْمِ، فَأَخَذَ الشُّفْرَةَ، وَقَامَ إِلَى الْعَتْرِ وَهُوَ يَقُولُ:
 قَرِينَتَا لَا تَوْعِظِي بَنِيَهُ ۝
 وَتَنْزِعُ الشُّفْرَةَ مِنْ يَدَيْهِ ۝
 فَذَبَحَهَا وَحَدَّثَ عُيَيْدَ اللَّهِ حَتَّى نَضَجَتْ، فَأَكَلَ عُيَيْدُ اللَّهِ مِنْهَا، وَبَاتَ لَيْلَتَهُ،
 فَلَمَّا قَرُبَ الرَّحِيلُ، قَالَ لِمَقْسَمٍ: كَمْ مَعَكَ مِنْ نَفَقَتِنَا؟.

قَالَ: خَمْسَةَ مِائَةِ دِينَارٍ.

قَالَ: أَلْقَهَا إِلَى الشَّيْخِ.

قَالَ مَقْسَمٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنْ مَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ تُضَاعِفَ لَهُ ثَمَنَ عَتْرِهِ، وَاللَّهُ
 مَا يَعْرِفُكَ، وَلَا يَدْرِي مَنْ أَنْتَ.

قَالَ: لَكِنِّي أَعْرِفُ نَفْسِي، وَأَدْرِي مَنْ أَنَا، هَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ هَذِهِ
 الْعَتْرِ، فَجَادَلْنَا بِهَا وَهُوَ لَا يَعْرِفُنَا، فَخَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ، وَأَعْطَيْنَاهُ بَعْضَ دُنْيَانَا، فَهُوَ
 أَجْوَدُ مِنَّا.

وَسَارَ عُيَيْدُ اللَّهِ حَتَّى قَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ:
 يَا مَقْسَمُ، مَرَّبْنَا عَلَى الشَّيْخِ نَنْظُرُ كَيْفَ حَالَهُ، فَإِذَا إِبِلٌ عَظِيمَةٌ، وَأَنْشَدَهُ الشَّيْخُ
 شِعْرًا قَالَ فِيهِ:

تَوَسَّمْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً ۝
 عَلَيْهِ وَقُلْتُ: الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وَلَا أَفْمِنُ مِنَ الْمَرَارِفِ إِنَّهُمْ ۝
 مَلُوكُ مَلُوكٍ مِنَ مَلُوكِ خَضَارِمٍ

فَقُمْتُ إِلَى عَتْرِ بَقِيَّةِ أَعْتَرٍ ۝
 فَادْبَحَهَا فَعَلَ امْرَأُ غَيْرَ عَاتِمِ^(١)

(١) عَاتِمٌ: أَبِي غَيْرِ مَبْطُونٍ.

الإخلاق (في بيت الطير والظبع)

فَعَوَّضَنِي مِنْهَا غِنَايَ وَلَمْ تَكُنْ ◻ ◻ ◻ تَسَاوِي عِنَايِي ^(١) غَيْرَ خَمْسِ دَرَاهِمِ
 فَكَلْتُ لِعَرْسِي - فِي الْخَلَا - وَصَبِيَّتِي ◻ ◻ ◻ أَلْحَقُ هَذَا أَوْ هُوَ أَضْفَاتُ حَالِمِ
 فَقَالُوا جَمِيعًا: لَا بَلِ الْحَقُّ هَذَا ◻ ◻ ◻ يَخْبَ بِهَا الرُّكْبَانُ وَسَطَ الْمَوَاسِمِ
 بِخَمْسِ مِائِينَ مِنْ دَنَانِيرَ عَوَّضْتُ ◻ ◻ ◻ مِنَ الْعَنْزِ مَا جَاءَتْ بِهَا كَفَأُ حَاتِمِ ^(٢)
 فَلَمَّا ارْتَحَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ سَارَ الشَّيْخُ فِي الْعَرَبِ بِالَّذِي صَنَعَ عُبَيْدُ اللَّهِ، وَبَلَغَ
 ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اللَّهُ عُبَيْدُ اللَّهِ، مِنْ أَيِّ بَيْضَةِ خَرَجَ، وَمِنْ أَيِّ عُشٍّ دَرَجَ؟
 وَهَذَا لِعَمْرِي مِنْ فَعَلَاتِهِ ^(٣).

قَالَ ابْنُ شِبْرُومَةَ:

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ، إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا ◻ ◻ ◻ وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا، وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
 وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا ◻ ◻ ◻ وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدْرُوهَا، وَلَا كَدُّوا ^(٤)
 وَعَلَى الْمُضِيفِ عَدَمُ احْتِقَارِ الْقَلِيلِ، بَلْ يَجُودُ بِالْمَوْجُودِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَقَدْ
 نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنِ احْتِقَارِ الْقَلِيلِ.
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا
 تَحْقِرَنَّ جَارَةً لَجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسِينَ شَاةٍ» ^(٥).

وعنه - أيضاً - قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ لِلْمَسَاكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، يَنْقَلِبُ ^(٦) بِنَا،

(١) العناق: العنز الصغيرة.
 (٢) حاتم: أي حاتم الطائي.
 (٣) «لِبَابِ الْأَدَابِ» (ص ٩٩).
 (٤) «الْأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ» (١/٤٠٦).
 (٥) تقدم تخريجه.
 (٦) يَنْقَلِبُ: يَرْجِعُ.

فَيَطْعَمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ لِيُخْرِجَ الْعُكَّةَ^(١)، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَنَشْتَقُهَا،
فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا،^(٢).

وَمَا أَبَالِي إِذَا ضَيَّفْتُ ضَيْفِي ۝ ۝ مَا كَانَ عِنْدِي إِذَا أَعْطَيْتُ مَجْهُودِي
جُهْدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ مُصْطَبِرًا ۝ ۝ وَمَكْثِرٌ مِنْ غِنَىٰ سَيِّانٍ فِي الْجُودِ^(٣)

قَالَ ابْنُ حَبَّانٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ ابْتِغَاءُ الْأَضْيَافِ، وَبَذْلُ الْكَسْرِ؛ لِأَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ إِذَا لَمْ تُصَنِّ بِالْقِيَامِ فِي حَقُوقِهِمَا، تَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَتْ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُ مَنْ زَالَتْ عَنْهُ التَّلَهُّفُ عَلَيْهَا، وَلَا الْإِفْكَارُ فِي الظَّفْرِ بِهَا، وَإِذَا رَأَى حَقَّ اللَّهِ فِيهَا، اسْتَجَلَبَ النَّمَاءَ وَالزِّيَادَةَ، وَاسْتَذَخَرَ الْأَجْرَ فِي الْقِيَامَةِ، وَاسْتَقَصَرَ إِطْعَامَ الطَّعَامِ.

وَعَنْصَرِ قَرَى الضَّيْفِ هُوَ تَرْكُ اسْتِحْقَاقِ الْقَلِيلِ، وَتَقْدِيمُ مَا حَضَرَ لِلأَضْيَافِ؛ لِأَنَّ مَنْ حَقَّرَ مَنْعَ مَنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ بِمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَتَرَكَ الْأَدْخَارَ عَنْهُ، وَقَدْ سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا إِكْرَامُ الضَّيْفِ؟ قَالَ: طَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَطِيبُ الْكَلَامِ»^(٤).

قُلْتُ: انظُرْ - أَخِي فِي اللَّهِ - إِلَىٰ فَهْمِ هَذَا الْإِمَامِ الَّذِي جَعَلَ إِكْرَامَ الضَّيْفِ فِي طَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَطِيبِ الْكَلَامِ، وَقَارِنَ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ زَمَانِكَ، فَالضِّيَافَةُ - عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ - هِيَ بِتَكْثِيرِ الطَّعَامِ، حَتَّىٰ إِنَّكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَمْتَنِعُ عَنِ الْقَرَى لِعَدَمِ وَجُودِ اللَّحْمِ فِي حَالِ وَجُودِ الضَّيْفِ، وَالْقَاصِدُ لَوْجَهَ اللَّهِ يَجُودُ بِالْمَوْجُودِ، وَلَا يَتَكَلَّفُ التَّكَلُّفَ الَّذِي هُوَ فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ

(١) الْعُكَّةُ: وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ مُسْتَدِيرٌ مُخْتَصٌّ بِالسَّمَنِ وَالْعَسَلِ، وَهُوَ بِالسَّمَنِ أَخْصُ، وَالْجَمْعُ عِكَاكٌ، وَعِكَاكٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٠٨) وَ (٥٤٣٢).

(٣) «عَيُونُ الْأَخْبَارِ» (٣/ ١٨٠).

(٤) «رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ» (ص ٢٦١)، بِتَصْرُفٍ.

الإخلاقيات الطبخ والظنح

به، بل هو محمود لقول الله - سبحانه وتعالى - في شأن إبراهيم خليله لما أتاه الأضياف - : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (سورة الذاريات: ٢٦).

وقال - تعالى - : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (سورة هود: ٦٩).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: خرج رسول الله - ﷺ - ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالوا: «الجوع، يا رسول الله». قال: «وانا والذي نفسي بيده، لأخرجنني الذي أخرجكُمَا، قوموا». فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: «مرحباً وأهلاً وسهلاً»، فقال رسول الله - ﷺ - : «أين فلان؟» قالت: «ذهب يستعذب»^(١) لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله - ﷺ - وصاحبه، ثم قال: «الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني». قال: فانطلق فجاءهم بعذق^(٢)، فيه بسر، وتمر، ورطب، فقال: «كلوا من هذه، وأخذ المدينة»^(٣)، فقال له رسول الله - ﷺ - : «إياك والحلوب»^(٤). فدبج لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا،^(٥).

ومن تمام الضيافة أن تفرح بمقدم ضيفك، وتظهر له البشر، وأن تلاطفه بحسن الحديث، وتشكره على تفضله ومجيئه، وتقوم بخدمته، وتظهر له الغنى وبشاشة الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى. وقد نظم بعضهم هذا الكلام بأبيات فقال:

(١) يستعذب: يطلب الماء العذب، وهو الطيب.

(٢) العذق - بالكسر - : هو الغصن من النخل، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب.

(٣) المدينة - بضم الميم، وقد تكسر - : السكين، والجمع مديات، ومدى.

(٤) الحلوب: ذات اللبن.

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٨).

إِذَا الْمَرْءُ وَافَى ^(١) مَنْزِلًا مِنْكَ قَاصِدًا

قِرَاكَ، وَأَرَمْتَهُ ^(٢) لَدَيْكَ الْمَسَالِكُ

فَكُنْ بِاسْمَا فِي وَجْهِهِ مُتَهَلِّلًا

وَقُلْ: مَرْحَبًا أَهْلًا وَيَوْمٌ مُبَارَكٌ

وَقَدِّمْ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْقَرَى

عَجُولًا، وَلَا تَبْخُلْ بِمَا هُوَ هَالِكٌ

فَقَدْ قِيلَ بَيْتَ سَالِفٍ مُتَقَدِّمٌ

- تَدَاوَلَهُ زَيْدٌ، وَعَمَرُو، وَمَالِكُ -:

بَشَاشَةً وَجْهِ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنَ الْقَرَى

فَكَيْفَ يَمُنُّ يَأْتِي بِهِ وَهُوَ ضَاحِكٌ؟ ^(٣)

وَقَالَ آخِرُ:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَأَرْتَنِي ۝ ۝ شَيْءٌ كَطَارِقَةِ الضُّيُوفِ النَّزْلِ ^(٤)

مَا زِلْتُ بِالْتَّرْحِيبِ حَتَّى خَلِيتَنِي ^(٥) ۝ ۝ ضَيْفًا لَهُمْ، وَالضُّيُوفُ رَبُّ الْمَنْزِلِ

أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

يَا ضَيْفَنَا، لَوْ زَرْتَنَا لَوَجَدْتَنَا ۝ ۝ نَحْنُ الضُّيُوفُ وَأَنْتَ رَبُّ الْمَنْزِلِ ^(٦)

وَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ابْنُ حَمْدَانَ:

مَنْزِلُنَا رَحْبٌ ^(٧) لَمَنْ زَارَهُ ۝ ۝ نَحْنُ سَوَاءٌ فِيهِ وَالطَّارِقُ

وَكُلُّ مَا فِيهِ حَالِلٌ لَهُ ۝ ۝ إِلَّا الَّذِي حَرَّمَهُ الْخَالِقُ ^(٨)

(١) وافى: أتى.

(٣) «بهجة المجالس» (١٥/١).

(٥) خلّيتني: حسبّني.

(٧) رحب - بالفتح - : واسع.

(٢) أرمته: ألقته.

(٤) النزّل: النازلين، جمع نازل.

(٦) «بهجة المجالس» (١٦/١).

(٨) «بهجة المجالس» (١٦/١).

وقال دعبل الخزاعي:

وإني لعبد الضيف من غير ذلة ۞ ۞ وما في إلا تلك من شيمة العبد^(١)

قال ابن حبان - يرحمه الله -:

«ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً»^(٢).

وكرام الناس وسادتهم يقضون هذا الحق، فيقبلون على ضيوفهم، ويرفعون من قدرهم، ويعلمون من منزلتهم.

والتقرب، وتجميل الحديث، والبسط، والتأنيس، والتلقي بالبشر - من حقوق القرى، ومن تمام الإكرام.

وقالوا: «من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المأكلة»^(٣).

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق،

فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن أئبل:

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله ۞ ۞ ونشيعه بالبشر من وجه ضاحك

وقال حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان^(٤) - يا أم مندر - إذا ما أتاني بين ناري ومجزري^(٥)

هل ابسط له وجهي، انه أول القرى ۞ ۞ وأبدل معروف له دون منكري^(٦)

(١) «روضة العقلاء» (ص ٢٦١).

(٢) «المأكلة - بفتح الكاف وضمتها - : الموضع الذي منه تأكل».

(٣) «البيان والتبيين» (١ / ١٠).

(٤) «الغرثان: الجائع، والجمع غرثى».

(٥) «مجزري: - بوزن المجلس - : مكان جزر الإبل وذبحها».

(٦) «شرح حماسة أبي تمام» (٢ / ٩٧٦).

وقال مسكين الدارمي:

لحافي^(١) لحاف الضيف، والبيت بيته ◻ ◻ ◻ ولَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُقَنَّعُ^(٢)
أُحَدِّثُهُ، إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى ◻ ◻ ◻ وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ^{(٣) (٤)}

وَقَالَ آخَرَ:

وإني لَطَلُّقُ الْوَجْهِ لِلْمُبْتَغِي الْقِرَى ◻ ◻ ◻ وَإِنْ فِنَائِي^(٥) لِلْقِرَى لِرَجِيْبِ^(٦)
أُضَاحِكُ ضَيْفِي عِنْدَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ◻ ◻ ◻ فَيُخْصِبُ عِنْدِي، وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقِرَى ◻ ◻ ◻ وَلَكِنَّمَا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبُ^(٧)

وهنا فائدة مهمّة، وهي إذا كان معك - أخي المضيف أكثر من ضيف، فأقبل على كل واحد منهم بوجهك، ولا تخصّ أحداً دون الآخر بحديثك، أو شيء من ضيافتك، وحاول أن تلتمس رضى كل واحد منهم، فقد كان رسول الله - ﷺ - أكرم الناس لضيوفه، فقد كان يعطي كل واحد من ضيوفه نصيبه، ولا يحسب ضيفه أن أحداً أكرم عليه منه^(٨).

(١) اللِّحَافُ - بالكسر - : ما يُلتَحَفُ وَيُتَغَطَّى بِهِ، وَالْجَمْعُ الْخِيفَةُ، وَالْحُفُّ.

(٢) يُرِيدُ بِالْغَزَالِ مُقَنَّعٌ: امْرَأَتُهُ.

(٣) يَهْجَعُ: يَنَامُ لَيْلاً.

(٤) «عيون الأخبار» (٢٣٨/٣). ويروى البيت: طعامي طعام الضيف، والرحل رحله... قاله ابن عبد

البر، قالوا: وهو أحسن شيء في الضيافة. انظر «بهجة المجالس» (١/٢٩٦).

(٥) الضيافة: المتسع أمام الدار، والجمع أفنية.

(٦) رحيب: واسع.

(٧) «روضة العقلاء» (ص ٢٦١ - ٢٦٢).

(٨) انظر «دلائل النبوة» (ص ٥٥٥).

قال الشاعر:

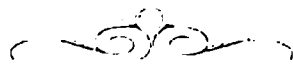
أَتَاكَ رَسُولُ الْمَكْرُمَاتِ مُسْلِمًا يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ أَعْظَمَ مُتَّقِي
فَأَقْبَلَ يَسْعَى فِي الْبِسَاطِ فَمَا دَرَى إِلَى الْبَحْرِ يَسْعَى، أَمْ إِلَى الشَّمْسِ يَرْتَقِي

وَأَعْلَمُ - أَخِي فِي اللَّهِ - أَنْ الْإِكْفِهْرَارَ وَالْعُبُوسَ، وَكَثْرَةَ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ
لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَنَهْرَ الْأَطْفَالِ أَوْ الْخَادِمِ بِحَضْرَةِ الضُّيُوفِ - دَلِيلُ الشُّحِّ، وَأَمَارَةُ
الْبُخْلِ، وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ بَخِيلٍ، كَمَا قِيلَ:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ^(١) عَلَى عَمْدٍ^(٢)

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي ذَمِّ الْبُخْلِ، وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ الضُّيْفِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا أَرَدْتَ إِخْرَاجَهُ فَارْفَعْ يَمِينَكَ عَنْ طَعَامِهِ
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ عِنْدَهُ مِنْ مَضْغِ ضَيْفٍ وَالتَّقَامِهِ
سِيَّانِ كَسْرُ رَغِيْفِهِ أَوْ كَسْرُ شَيْءٍ مِنْ عِظَامِهِ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِبَابِهِ فَاحْفَظْ رَغِيْفَكَ مِنْ غُلَامِهِ



(١) الأكيل: الذي يُوَاكَلُهُ.

(٢) «عيون الأخبار» (٣/٢٢١).

أَدَبُ الضِّيَافَةِ



آدابُ المضيف:

وللضيافةِ أدبٌ، فمن ذلك آدابُ المضيفِ أن يُحدِّثَ أضيافَهُ بما تميلُ إليه نفوسُهُمْ، وأن لا يُحدِّثَ بما يروعهُم به؛ فينبغي للمضيفِ أن يراعيَ خواطرَ أضيافِهِ كَيْفَمَا أَمَكَّنَ، ولا يَغْضَبَ عَلَى أَحَدٍ بِحُضُورِهِمْ، ولا يَنْغَصُ عَيْشَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ^(١)، ولا يَعْسُ بِوَجْهِهِ، ولا يُظْهِرُ نَكْدًا، ولا يَنْهَرُ أَحَدًا، ولا يُوبِّخُهُ بِحَضْرَتِهِمْ، فَذَلِكَ إِمَارَةُ الشَّحِّ وَدَلِيلُ الْبُخْلِ، بَلْ يَدْخُلُ عَلَى قُلُوبِهِمُ السُّرُورَ بِكُلِّ مَا أَمَكَّنَ.

وَعَلَيْهِ - أَيْضًا - أَلَّا يَتَأَخَّرَ عَنِ أَضْيَافِهِ وَلَا يَمْنَعُهُ عَنِ ذَلِكَ قَلَّةَ مَا فِي يَدِهِ، بَلْ يُحْضِرُ إِلَيْهِمْ مَا وَجَدَ.

وَلَا يَنْتَظِرُ الْغَائِبَ حَتَّى لَا يُثْقَلَ عَلَى الضَّيْفِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ بَعْدَ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ، فَقَدْ قِيلَ: ثَلَاثَةٌ تَضْنِي: سِرَاجٌ لَا يَضِيءُ، وَرَسُولٌ بَطِيءٌ، وَمَائِدَةٌ يَنْتَظِرُ لَهَا مَنْ يَجِيءُ.

(١) من لطيف ما يُذكرُ أن بعضَ العربِ دعا جَمَاعَةً إِلَى بُسْتَانِهِ، وَكَانَ لَهُ وَلَدٌ فَكَانَ الْوَلَدُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ يَخْدُمُ الْقَوْمَ، وَيَأْتِسُونَ بِهِ، فَفِي آخِرِ النَّهَارِ صَعَدَ إِلَى السَّطْحِ، فَسَقَطَ فَمَاتَ لَوْتَهُ، فَحَلَفَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ أَنْ لَا تَصْرُخَ وَلَا تَبْكِي إِلَى أَنْ تُصْبِحَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ سَأَلَهُ أَضْيَافُهُ عَنْ وَلَدِهِ فَلَمْ يُخْبِرْهُمْ بِحَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ، قَالَ لَهُمْ: إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُصَلُّوا عَلَى وَلَدِي فَإِنَّهُ بِالْأَمْسِ سَقَطَ مِنْ عَلَى السَّطْحِ فَمَاتَ لِسَاعَتِهِ، فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا أَخْبِرْتَنَا حِينَ سَأَلْنَاكَ، فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَنْغَصَّ عَلَى أَضْيَافِهِ فِي التَّذَاهِمِ وَلَا يَكْدُرُ عَلَيْهِمْ فِي عَيْشِهِمْ.

آداب الضيف:

وَأَمَّا آدَابُ الضَّيْفِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوَافِقَ المضيفَ وَلَا يُعَاكِسَهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَسْأَلَ صَاحِبَ المَنْزِلِ عَن شَيْءٍ مِّن دَارِهِ سِوَى القِبْلَةِ وَمَوْضِعِ قِضَاءِ الحَاجَةِ، وَأَنْ لَا يُخَالِفَهُ إِذَا أَجْلَسَهُ فِي مَكَانٍ أَكْرَمَهُ بِهِ، وَإِذَا رَأَى صَاحِبَ المَنْزِلِ قَدْ تَحَرَّكَ بِحَرَكَةٍ فَلَا يَمْنَعُهُ مِنْهَا.

لَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ أَنْ يُعْتَرِضَ ◻◻◻ إِنْ كَانَ ذَا حِزْمٍ وَطَبِيعٍ لَطِيفٍ
فَالأَمْرُ لِلإِنْسَانِ فِي بَيْتِهِ ◻◻◻ إِنْ شَاءَ أَنْ يُنْصِفَ أَوْ يَحِيفَ

مِمَّا يُعَابُ عَلَى الضَّيْفِ:

يُعَابُ عَلَى الضَّيْفِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ ذَكَرَهَا أَهْلُ الأَدَبِ، أَقْتَصِرُ مِنْهَا عَلَى مَا يَأْتِي:

■ فَمِنْهَا: الأَكْلُ المَفْرُطُ.

■ وَمِنْهَا: أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ.

■ وَمِنْهَا: قُبْحُ المُواكَلَةِ، وَقَدْ عَدَّ فِيهَا عِيُوبٌ كَثِيرَةٌ:

■ فَمِنْهَا: المِتَشَاوِفُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحْكِمُ جُوعَهُ قَبْلَ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ، فَلَا تَرَاهُ إِلَّا مُتَطَلِّعًا إِلَى نَاحِيَةِ البَابِ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَا دَخَلَ هُوَ الطَّعَامُ.

■ وَمِنْهَا: الرِّشَافُ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ اللُّقْمَةَ فِي فِيهِ وَيَرْتَشِفُهَا، فَيُسْمَعُ لَهَا حِينَ البُلْعِ حِسٌّ لَا يَخْفَى عَلَى جُلَسَائِهِ وَهُوَ يَلْتَذُّ بِذَلِكَ.

■ وَمِنْهَا: النِّفَاضُ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ اللُّقْمَةَ فِي فِيهِ وَيَنْفُضُ أَصَابِعَهُ فِي الطَّعَامِ.

■ وَمِنْهَا: القَسَامُ، وَهُوَ الَّذِي يَأْكُلُ نِصْفَ اللُّقْمَةِ وَيُعِيدُ بَاقِيهَا فِي الطَّعَامِ.

■ ومنها: المرنخ، وهو الذي يرنخ اللقمة في المرق فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية.

■ ومنها: المرشش، وهو الذي يفسخ الدجاجة بغير خبرة فيرش على مواكليه.

■ ومنها: المنشف، وهو الذي ينشف يديه بالخبز ونحوه ثم يأكلها.

■ ومنها: الصبّاغ، وهو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى أخرى ليبرده.

■ ومنها: النفاخ، وهو الذي ينفخ في الطعام.

■ ومنها: المهندس، وهو الذي يقول لمن يضع الطعام: ضع هذا هنا وهذا هنا، حتى يأتي قدامه ما يحب.

■ ومن الأضياف: من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفاً والإبريق في يده والناس ينتظرونه.

■ ومنهم: من يدخل الدار فيستدي بالهندسة أولاً، فيقول: كان ينبغي أن يكون باب المجلس من هاهنا والإيوان كان ينبغي أن يكون هاهنا.



المُرُوَّةُ



المُرُوَّةُ: هي جَمَاعُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَدَابِ، وَكَمَالِ الرَّجُولَةِ، فَهِيَ تَبْعُثُ عَلَى إِجْلَالِ صَاحِبِهَا، وَأَمْتِلَاءِ الْأَعْيُنِ بِمَهَابَتِهِ، وَمِنْ الْحِكْمِ السَّائِرَةِ: «ذُو الْمُرُوَّةِ يُكْرَمُ وَإِنْ كَانَ مُعْدِمًا»^(١)، كَالْأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا^(٢)، وَمَنْ لَا مُرُوَّةَ لَهُ يَهَانُ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا، كَالْكَلْبِ يَهَانُ وَإِنْ طَوَّقَ^(٣) وَحُلِّيَ بِالذَّهَبِ»^(٤).

وَحَقِيقَةُ الْمُرُوَّةِ: هِيَ قُوَّةٌ لِلنَّفْسِ، مَبْدَأٌ لِصُدُورِ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ عَنْهَا، الْمُسْتَبَعَةَ لِلْمَدْحِ شَرْعًا، وَعَقْلًا، وَعُرْفًا^(٥).

قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عَيِّنَةَ: «قَدْ اسْتَنْبَطْتَ مِنَ الْقُرْآنِ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ الْمُرُوَّةُ؟».

فَقَالَ: «فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾».

(سورة الأعراف: ١٩٩).

ففيه المُرُوَّةُ، وَحُسْنُ الْأَدَابِ، وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ.

فَجَمَعَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ صِلَةَ الْقَاطِعِينَ، وَالْعَفْوَ عَنِ الْمُدْنِيِّينَ، وَالرَّقَّةَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُطِيعِينَ.

(١) مُعْدِمًا: فَقِيرًا، يُقَالُ: أَعْدَمَ الرَّجُلُ: أَيِ افْتَقَرَ.

(٢) رَابِضًا: مُقِيمًا وَسَاكِنًا.

(٣) طَوَّقَ: أَلْبَسَ الطَّوْقَ، وَهُوَ الْقِلَادَةُ.

(٤) «الْمُرُوَّةُ وَخَوَارِمُهَا» (ص ٤١).

(٥) «التعريفات» (ص ١١١).

وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَتَقْوَى اللَّهِ فِي الْحَلَالِ
وَالْحَرَامِ، وَغَضُّ الْأَبْصَارِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِدَارِ الْقَرَارِ.

وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الْحِصُّ عَلَى التَّخَلُّقِ بِالْحِلْمِ،
وَالِإِعْرَاضُ عَنِ أَهْلِ الظُّلْمِ، وَالتَّنَزُّهُ عَنِ مُنَازَلَةِ السُّفَهَاءِ، وَمُسَاوَاةِ الْجَهْلَةِ
وَالْأَغْيَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْمُرُوءَةَ لَيْسَ يُدْرِكُهَا أَمْرٌ ◻◻◻ وَرِثَ الْمُرُوءَةَ عَنْ أَبِي قَاضِعِهَا
أَمْرَتُهُ نَفْسٌ بِالِدَّنَاءَةِ وَالْخَنَاءِ^(٢) ◻◻◻ وَنَهَتْهُ عَنْ سُبُلِ الْعُلَى قَاطِعِهَا
فَإِذَا أَصَابَ مِنَ الْأُمُورِ عَظِيمَةً ◻◻◻ يَبْنِي الْكَرِيمُ بِهَا الْمُرُوءَةَ بَاعِهَا

وَالْمُرُوءَةُ لَهَا حَدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَحَدُّهَا كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: «هِيَ اسْتِعْمَالُ مَا
يَجْمَلُ الْعَبْدَ وَيَزِينُهُ، وَتَرْكُ مَا يَدْنِسُهُ وَيَسِيئُهُ»^(٣).

وَقِيلَ: «الْمُرُوءَةُ: اسْتِعْمَالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَاجْتِنَابُ كُلِّ خُلُقٍ قَبِيحٍ»^(٤).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَحَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ: تَجَنُّبُ لِلدَّنَايَا وَالرَّذَائِلِ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ.

فَمُرُوءَةُ اللُّسَانِ: حَلَاوَتُهُ، وَطَيِّبُهُ، وَلِينُهُ، وَاجْتِنَاءُ الثُّمَارِ مِنْهُ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ.

وَمُرُوءَةُ الْخُلُقِ: سَعَتُهُ، وَبَسْطُهُ لِلْحَبِيبِ وَالْبَغِيضِ.

(٢) الْخَنَاءُ: الْفُحْشُ.

(١) «عَيْنُ الْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ» (ص ١٣٢ - ١٣٣).

(٣) وَ (٤) «تَهْذِيبُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٢/٦٩٧).

ومروءة المال: الإصَابَةُ بِبَدَلِهِ مَوَاقِعُهُ الْمَحْمُودَةُ عَقْلًا، وَعُرْفًا، وَشَرَعًا.

ومروءة الجاه: بَدَلُهُ لِلْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ.

ومروءة الإحسان: تَعْجِيلُهُ، وَتَيْسِيرُهُ، وَتَوْفِيرُهُ، وَعَدَمُ رُؤْيَتِهِ حَالَ وَقُوعِهِ،

وَنَسْيَانُهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ، فَهَذِهِ مَرْوَةٌ الْبَدَلِ.

أما مروءة التُّرْكِ: فَتَرْكُ الْخِصَامِ، وَالْمُعَاتَبَةِ، وَالْمُطَالَبَةِ، وَالْمَمَارَاةِ، وَالْإِغْضَاءِ عَنِ عَيْبِ مَا يَأْخُذُهُ مِنْ حَقِّكَ، وَتَرْكُ الْإِسْتِقْصَاءِ فِي طَلْبِهِ، وَالتَّغَافُلُ عَنْ عَشْرَاتِ النَّاسِ، وَإِشْعَارُهُمْ أَنَّكَ لَا تَعْلَمُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَثْرَةً، وَالتَّوْقِيرُ لِلْكَبِيرِ، وَحِفْظُ حُرْمَةِ النَّظِيرِ، وَرِعَايَةُ أَدَبِ الصَّغِيرِ، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدرجة الأولى - مروءة المرء مع نفسه: وهي أَنْ يَحْمِلَهَا قَسْرًا عَلَى مَا يُجَمَلُ وَيَزِينُ، وَتَرْكُ مَا يَدْنُسُ وَيَشِينُ؛ لِيَصِيرَ لَهَا مَلَكَةً فِي الْعَلَانِيَةِ، فَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا فِي سِرِّهِ وَخَلْوَتِهِ، مَلَكَهُ فِي جَهْرِهِ وَعَلَانِيَتِهِ، فَلَا يَكْشِفُ عَوْرَتَهُ فِي الْخَلْوَةِ، وَلَا يَتَجَشَّأُ بِصَوْتِ مُزَعِجٍ مَا وَجَدَ إِلَى خِلَافِهِ سَبِيلًا، وَلَا يَجْشَعُ وَبَيْنَهُمْ عِنْدَ أَكْلِهِ وَحْدَهُ.

وبالجملة: فَلَا يَفْعَلُ خَالِيًا مَا يَسْتَحْيِي مِنْ فِعْلِهِ فِي الْمَلَأِ، إِلَّا مَا لَا يَحْظُرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْوَةِ: كَالْجَمَاعِ، وَالتَّخَلِّيِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الدرجة الثانية - المروءة مع الخلق: بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمْ شُرُوطَ الْأَدَبِ وَالْحَيَاءِ، وَالخُلُقِ الْجَمِيلِ، وَلَا يُظْهِرَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُهُ هُوَ مِنْ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَكَيْتَخَذَ النَّاسَ مِرَاةً لِنَفْسِهِ، فَكُلُّ مَا كَرِهَهُ وَنَفَرَ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ، أَوْ خُلُقٍ - فَلْيَجْتَنِبْهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَهُ فَلْيَفْعَلْهُ.

وَصَاحِبُ هَذِهِ الْبَصِيرَةِ يَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ خَالَطَهُ وَصَاحِبُهُ مِنْ كَامِلٍ وَنَاقِصٍ،
وَسَيِّئِ الْخُلُقِ وَحَسَنِهِ، وَعَدِيمِ الْمُرُوءَةِ وَغَزِيرِهَا.

الدرجة الثالثة - المروءة مع الحق - سبحانه وتعالى - بالاستحياء من نظره
إليك، وأطلاعك عليك في كل لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد
الإمكان؛ فإنه قد اشتراها منك، وأنت ساع في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن،
وليس من المروءة تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملاً، أو
رؤية منته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولي له لا أنت، فيغنيك الحياء منه عن
رُسوم^(١) الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب
غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعالك وصلاحك^(٢).

قال الشاعر:

وَمِنَ الْمُرُوءَةِ لِفَتَى - مَا عَاشَ - دَارُ فَاخِرَةٍ
فَأَقْنَعُ مِنَ الدُّنْيَا بِهَا - وَأَعْمَلُ لِدَارِ الْآخِرَةِ^(٣)

■ ثلاث رسائل لحفظ المروءة:

ذَكَرَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - ثَلَاثَ رَسَائِلَ لِحِفْظِ الْمُرُوءَةِ، وَهِيَ:

الأولى - صون النفس: وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويؤذي بها
عند الله - عز وجل -، وملائكته، وعباده المؤمنين، وسائر خلقه، فإن من كرمت
عليه نفسه، وكبرت عنده، صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى

(١) رُسُومٌ: آثار، والمرد رَسَمٌ - بالفتح -.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٦٩٧ - ٦٩٩).

(٣) «عين الأدب والسياسة» (ص ١٣٥).

المحَالُّ، وَزَاخَمَ بِهَا أَهْلَ الْعَزَائِمِ وَالْكَمَالَاتِ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَصَغُرَتْ عِنْدَهُ، أَلْقَاهَا فِي الْبُرْدَائِلِ، وَحَلَّ زِمَامَهَا وَأَرْخَاهُ، وَدَسَّاهَا وَلَمْ يَصْنُهَا عَنْ قَبِيحٍ، فَأَقْلُ مَا فِي تَجَنُّبِ الْقَبَائِحِ صَوْنُ النَّفْسِ.

وثانيها - توفير الحسنات: ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما - توفير زمانه على اكتساب الحسنات: فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها.

والثاني - توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها بموازنة السيئات وحبوطها: وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها، فلا بد أن تضعفها قطعاً؛ فتجنبها يوقر ديوان الحسنات، وذلك بمنزلة من له مال حاصل، فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين، أو يكثره، أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواءً.

وثالثها - صيانة الإيمان: وذلك لأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وقد حكاها الشافعي وغيره عن الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود، فإن العبد - كما جاء في الحديث - إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر، صقل قلبه، وإن عاد فأذنب، نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه، وذلك الرآن الذي قال الله - تعالى -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) (سورة المطففين: ١٤).

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجة (٤٢٤٤) عن أبي هريرة، وصححه ابن حبان (٢٤٤٨)، والحاكم (٥١٧/٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٦٧٠).

فَالْقَبَائِحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِئُ نُورَهُ، وَالْإِيمَانُ هُوَ نُورُ الْقَلْبِ، وَالْقَبَائِحُ
تَذْهَبُ بِهِ، أَوْ تُقَلِّلُهُ قَطْعًا، فَالْحَسَنَاتُ تَزِيدُ نُورَ الْقَلْبِ، وَالسَّيِّئَاتُ تُطْفِئُ نُورَ
الْقَلْبِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّ كَسْبَ الْقُلُوبِ سَبَبٌ لِلرَّانِ الَّذِي
يَعْلُوهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْكَسَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَسَبُوا، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾
(سورة النساء: ٨٨).

وَأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ سَبَبٌ لِتَقْسِيَةِ الْقَلْبِ، فَقَالَ:
﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا
مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (سورة المائدة: ١٣).

فَجَعَلَ ذَنْبَ النَّقْضِ مُوجِبًا لِهَذِهِ الْآثَارِ: مِنْ تَقْسِيَةِ الْقَلْبِ، وَاللَّعْنَةِ،
وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ، وَنِسْيَانِ الْعِلْمِ.

فَالْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ كَالْمَرَضِ، وَالْحُمَى لِلْقُوَّةِ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ السَّلْفُ:
«الْمَعَاصِي بَرِيدٌ»^(١) الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْحُمَى بَرِيدُ الْمَوْتِ»^(٢).

قال شاعر النيل محمد حافظ بن إبراهيم:

إِنِّي لَتُطْرِينِي الْخِلَالُ^(٣) كَرِيمَةً ■■■ طَرِبَ الْغَرِيبَ بِأَوْيَةٍ^(٤) وَتَلَاقَ
وِيَهْزُنِي ذِكْرُ الْمَرْوَةِ وَالنَّدَى ■■■ بَيْنَ الشَّمَائِلِ هِزَّةٌ^(٥) الْمُشْتَاقِ^(٦)

(١) بريند: رسول.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (١/٤٦٤ - ٤٦٦)، و«المروءة وخوارمها» (ص ٢٩٩).

(٣) الخلال: جمع خلة، وهي الخصلة والصفة.

(٤) أويّة: رجعة.

(٥) الهزة - بالكسر -: النشاط والارتياح.

(٦) «جواهر الأدب» (ص ٤٩٤).

الصَّبْرُ



الصَّبْرُ سَيِّدُ الْأَخْلَاقِ^(١)، وَرَفِيقُ الدَّرَبِ، وَالطَّرِيقُ إِلَى الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ^(٢)، وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَمَا مِنْ خُلُقٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِلَّا وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الصَّبْرِ، فَالصَّبْرُ أَسَاسُ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَبَدْرُ الْخَيْرِ، وَجَمَاعَةُ الْأَمْرِ.

وَأَصْلُ كَلِمَةِ الصَّبْرِ: هِيَ الْمَنْعُ وَالْحَبْسُ، فَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ، وَاللِّسَانِ عَنِ التَّشَكِّي، وَالْجَوَارِحِ عَنِ لَطْمِ الْخُدُودِ، وَشَقِّ الْجُيُوبِ، وَنَحْوِهَا^(٣).

وَحَقِيقَةُ الصَّبْرِ: خُلُقٌ فَاضِلٌ مِنْ أَخْلَاقِ النَّفْسِ، يُمْتَنَعُ بِهِ مِنْ فِعْلِ مَا لَا يَحْسُنُ وَلَا يَجْمَلُ، وَهُوَ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى النَّفْسِ الَّتِي بِهَا صَلَاحُ شَأْنِهَا، وَقَوَامُ أَمْرِهَا.

وَحِينَ سُئِلَ الْجُنَيْدُ عَنِ الصَّبْرِ قَالَ: «تَجْرَعُ الْمَرَارَةَ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ».

وَقِيلَ: «الصَّبْرُ: هُوَ الْوُقُوفُ مَعَ الْبَلَاءِ بِحُسْنِ الْأَدَبِ»^(٤).

(١) قال الإمام ابن القيم - يرحمه الله - في كتابه «عدة الصَّابرين» (ص ٢٧-٢٨): «الصَّبْرُ سَيِّدُ الْأَخْلَاقِ، وَبِهِ تَرْتَبُطُ مَقَامَاتُ الدِّينِ، فَمَا مِنْ خُلُقٍ فَاضِلٍ إِلَّا يَمُرُّ بِقَنْطَرَةٍ مِنَ الصَّبْرِ، وَإِنْ تَحَوَّلَ إِلَى اسْمٍ آخَرَ، فَإِنْ كَانَ الصَّبْرُ عَنْ شَهْوَةٍ فَرَجٌ مُحَرَّمَةٌ سُمِّيَ عَفْوًا، وَإِنْ كَانَ عَنْ فَضُولٍ عَشِقَ سُمِّيَ رُهْدًا، وَإِنْ كَانَ عَنْ دَوَاعِي غَضَبٍ سُمِّيَ حِلْمًا، وَإِنْ كَانَ صَبْرًا عَنْ دَوَاعِي الْفِرَارِ وَالْهَرَبِ سُمِّيَ شَجَاعَةً، وَإِنْ كَانَ عَنْ دَوَاعِي الْإِنْتِقَامِ سُمِّيَ عَفْوًا، وَإِنْ كَانَ عَنْ إِجَابَةِ الْإِمْسَاكِ وَالْبُخْلِ سُمِّيَ جُودًا . . . وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَخْلَاقِ، فَلَهُ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ وَتَرَكَ اسْمٌ يَخْصُهُ بِحَسَبِ مَتَلَقِهِ، وَالْإِسْمُ الْجَامِعُ لِذَلِكَ كُلُّهُ (الصَّبْرُ)، فَكُرِّمَ بِهِ مِنْ خُلُقٍ!، وَمَا أَوْسَعَ مَعْنَاهُ، وَأَعْظَمَ حَقِيقَتُهُ!».

(٢) قال ابن القيم - أيضاً - في كتابه «مدارج السَّالِكِينَ» (٢/١٥٤): «سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ. ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ - تَعَالَى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

(٤) المرجع السابق (ص ٢٩).

(٣) «عدة الصَّابرين» (ص ٢٧).

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الصَّبْرَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي نَيْفٍ ^(١) وَتَسْعِينَ مَوْطِنًا تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهِ ^(٢) ، وَأَضَافَ أَكْثَرَ الدَّرَجَاتِ وَالْخَيْرَاتِ إِلَى الصَّبْرِ ، وَجَعَلَهَا ثَمَرَةً لَهُ ، وَجَمَعَ لِلصَّابِرِينَ بَيْنَ أُمُورٍ لَمْ يَجْمَعَهَا لِغَيْرِهِمْ ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ^(٣) (سورة البقرة: ١٥٧) .

وَقَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٥) .

وَقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(٤) (سورة البقرة: ١٥٣) .

وَبَشَّرَنَا نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ - ﷺ - بِقَوْلِهِ : «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ^(٥) ، وَلَا وَصْبٍ ^(٦) ، وَلَا هَمٍّ ، وَلَا حَزَنٍ ، وَلَا أَذَى ، وَلَا غَمٍّ . حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا . إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» ^(٧) .

وَالْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ . قَالَ : «الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي

(١) النَيْفُ - بوزن الهَيْنِ يُخَفَّفُ وَشُدُّدٌ - : الزِّيَادَةُ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى التَّسْعَةِ ، وَنَيْفٌ فَلَانٌ عَلَى السَّبْعِينَ : أَي زَادَ .

(٢) قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١٥٢/٢) : «وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ» .

(٣) انظُر «عِدَّةُ الصَّابِرِينَ» (ص ٩٨) .

(٤) انظُر «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (٩/١٠) .

(٥) نَصَبٌ : تَعَبٌ ، وَبَابُهُ فَرِحَ .

(٦) وَصَبٌ : مَرَضٌ ، وَبَابُهُ فَرِحَ ، وَالْجَمْعُ أَوْصَابٌ .

(٧) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٥٦٤١) وَ (٦٤٢) ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ .

دينه صلْبًا^(١)، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّةٌ، ابتلي على حسب دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئته،^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قلت: «يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟»، قال: «الأنبياء»، قلت: «يا رسول الله، ثمَّ من؟»، قال: «ثمَّ الصَّالِحون، لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة، يجوبها^(٣) فيلبسها، ويبتلى بالقمل^(٤) حتى يقتله، ولأحدهم كان أشدَّ فرحاً بالبلاءِ من أحدكم بالعطاء»^(٥).

قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه^(٦) ويحمد منه الصبرُ مما يصيبه
فمن قلَّ فيما يتقيه اضطباره^(٧) لقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبه^(٧)

فالعبدُ إن لم يبلغ ما كتب له بعلمه، ابتلي حتى يصل إلى منزلة عظيمة عند الله، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ له المنزلةُ عندَ الله، فما يبلغها بعمل، فلا يزالُ اللهُ يبتليه بما يكره؛ حتى يبلغه إياها»^(٨).

(١) صلْبًا: شديدًا.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٩٩٢)، و«الصحيحه» (١٤٣).

(٣) يجوبها: يقطع وسطها ليلبسها.

(٤) القمل: هو أمُّ الرأس، الواحدة قملة، وقمل رأسه من باب طرب.

(٥) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٩٩٥)، و«الصحيحه» (١٤٤).

(٦) خطوب: جمع خطب، وهو الأمر العظيم المكره.

(٧) «جواهر الأدب» (ص ٧١١).

(٨) رواه الحاكم في «المستدرک»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٦٢٥)، و«الصحيحه» (٢٥٩٩).

وعن جابر - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «لَيُودَنَّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ جَلُودَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ؛ مِمَّا يَرُونَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ»^(١).

قال الشاعرُ:

اصْبِرْ، فَفِي الصَّبْرِ خَيْرٌ، لَوْ عَلِمْتَ بِهِ ٥ ٥ ٥ لَكُنْتَ بَارِكْتَ . شُكْرًا . صَاحِبَ النُّعْمِ
واعلمُ بأنك إن لم تصْطبرْ كرمًا ٥ ٥ ٥ صَبَرْتَ قَهْرًا عَلَى مَا خُطَّ بِالْقَلَمِ^(٢)

وقال آخرُ:

أَيَا صَاحِبِي، إِنْ رُمْتَ^(٣) أَنْ تَكْسِبَ الْعُلَى ٥ ٥ ٥ وَتَرْقَى إِلَى الْعَلِيَاءِ^(٤) غَيْرَ مُزَاحِمِ
عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ فِي كُلِّ حَالَةٍ ٥ ٥ ٥ فَمَا صَابِرٌ فِيمَا يَرُومُ بِنَادِمِ^(٥)

وقال آخرُ:

اصْبِرْ قَلِيلًا، وَكُنْ بِاللَّهِ مُعْتَصِمًا ٥ ٥ ٥ لَا تَعْجَلَنَّ؛ فَإِنَّ الْعَجْزَ بِالْعَجَلِ
الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ^(٦) ٥ ٥ ٥ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ^(٧)

وَقَدْ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ الصَّبْرَ ذِلَّةٌ لِصَاحِبِهِ، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ مُؤَكَّدًا: «وَلَا ظَلَمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ - عَزَّوَجَلَّ - عِزًّا»^(٨).

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٨٤/٢)، و«الصحيح» (٢٢٠٦).

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٧١١).

(٣) رُمْتَ: طَلَبْتَ وَارَدْتَ، وَبَابُهُ قَالَ.

(٤) الْعَلِيَاءُ: كُلُّ مَكَانٍ مُشْرِفٍ.

(٥) «جواهر الأدب» (ص ٧١١).

(٦) نَائِبَةٌ: مُصِيبَةٌ، وَالْجَمْعُ نَوَائِبُ.

(٧) «جواهر الأدب» (ص ٧١١).

(٨) رواه الترمذي (٢٣٢٥) عن أبي كبشة الأنماري، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٤/١).

وَقَدْ أَوْذِيَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ
وَأَعْدَلُهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَذَى فَصَبَرُوا، وَأَوْذِيَ نَبِيًّا - ﷺ - بِأَشَدِّ مِنْ ذَلِكَ ^(١).

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ ^(٢) فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا
رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (سورة التوبة: ٥٨).

وَقَالَ: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾
(سورة طه: ١٣٠).

قال علي بن الجهم:

«هِيَ النَّفْسُ، مَا حَمَلَتْهَا تَتَحَمَّلُ» ■ ■ ■ وللدُّهْرَايِمُ تَجُورٌ ^(٣) وَتَعْدِلُ
وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ ■ ■ ■ وَأَحْسَنُ أَخْلَاقِ الرُّجَالِ التَّفَضُّلُ
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحُرْنِعْمَةِ ■ ■ ■ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجْمَلُ ^(٤)

(١) قال ابن القيم - يرحمه الله - في كتابه «مفتاح دار السعادة» (١/٣٠١): «إِذَا جِئْتَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَأَمَّلْتَ سِيرَتَهُ مَعَ قَوْمِهِ، وَصَبْرَهُ فِي اللَّهِ، وَاحْتِمَالَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلُهُ نَبِيُّ قَبْلَهُ، وَتَلَوْنَ الْأَحْوَالَ عَلَيْهِ مِنْ سِلْمٍ وَخَوْفٍ، وَغَنَى وَفَقْرٍ، وَأَمْنٍ وَإِقَامَةٍ فِي وَطَنِهِ وَظَعْنٍ عَنْهُ، وَتَرْكِهِ لِلَّهِ، وَقَتْلِ أَحْبَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَذَى الْكُفَّارِ لَهُ بِسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَذَى: مِنَ الْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، وَالسُّحْرِ، وَالْكَذْبِ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ وَالْبُهْتَانِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ صَابِرٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، فَلَمْ يُؤْذِ نَبِيٌّ مَا أَوْذِيَ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ فِي اللَّهِ مَا احْتَمَلَهُ، وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ مَا أُعْطِيَ، فَرَفَعَ اللَّهُ لَهُ ذِكْرَهُ، وَجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَسَيْلَةً، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَهُ جَاهًا، وَأَسْمَعَهُمْ عِنْدَهُ شَفَاعَةً، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمِحْنُ وَالْإِبْتِلَاءُ عَيْنَ كِرَامَتِهِ، وَهِيَ مِمَّا رَادَهُ اللَّهُ شَرْقًا وَفَضْلًا، وَسَاقَهُ بِهَا إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ».

(٢) يَلْمِزُكَ: يَعْيَبُكَ وَيَتَّقَدُّ عَلَيْكَ، وَأَصْلُ اللَّمَزِ الْإِشَارَةُ بِالْعَيْنِ وَنَحْوَهَا، وَبَابُهُ ضَرْبٌ وَنَصْرٌ.

(٣) تَجُورٌ: مِنَ الْجَوْرِ، وَهُوَ الظُّلْمُ.

(٤) التَّجْمَلُ: النَّصِيرُ.

(٥) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ٣٣٢).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ كَثِيفِ النَّبْهَانِيِّ:

- تَعَزَّى^(١)، فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ ٥ ٥ وليس عَلَى رَبِّبِ الزَّمَانِ مَعْوَلٌ^(٢)
 فلو كان يُغْنِي أَنْ يَرَى الْمَرْءُ جَازِعًا ٥ ٥ لحادثة، أو كان يُغْنِي التَّدَلُّ
 لكان التَّعَزِّيُّ^(٣) عِنْدَ كُلِّ مُصِيبَةٍ ٥ ٥ ونائبة بِالْحُرِّ أَوْلَى وَأَجْمَلُ
 فكيف وكلُّ لَيْسَ يَعْدُو^(٤) حِمَامَةً^(٥) ٥ ٥ وما لِمَرِيٍّ عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَرَحَلُ؟
 فَإِنْ تَكُنْ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ ٥ ٥ يَبْؤُسَى وَنُعْمَى، وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ
 فما لَيْنَتْ مِنْنا قَنَاءٌ^(٦) صَلِيبَةً ٥ ٥ ولا ذَلَّلْتَنَا لِلَّتِي لَيْسَ تُجَمَلُ
 وَلَكِنْ رَحَلْنَاها نُفُوسًا كَرِيمَةً ٥ ٥ تُحْمَلُ ما لا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ
 وَقَيْنَا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنْنا نُفُوسَنَا ٥ ٥ فَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ، وَالنَّاسُ هُزْلٌ^(٧)

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فِي الْهَجَاءِ:

- دَبَبَتْ^(٨) لِلْمَجْدِ، وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَّغُوا ٥ ٥ جَهْدَ النُّفُوسِ، وَأَلْقَوْا دُونَهُ الْأَزْرَأَ^(٩)
 وكابدوا المجد، حتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ٥ ٥ وعانقَ المجدَ مَنْ أَوْقَى، وَمَنْ صَبَرَ
 لا تَحْسَبِ المجدَ تَمْرًا أَنْتِ آكِلُهُ ٥ ٥ لَنْ تَبْلُغِ المجدَ حتَّى تَلْعَقِ الصَّبْرَ^(١٠-١١)

(١) تَعَزَّى: تَصَبَّرَ وَتَجَلَّدَ عَلَى ما يَحْدُثُ لَكَ مِنْ مِصائِبِ الْحَيَاةِ.

(٢) مَعْوَلٌ: مِنْ عَوَّلَ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَانَ بِهِ.

(٣) التَّعَزِّيُّ: التَّصَبُّرُ وَالتَّلَيُّ عَلَى الْمِصائِبِ.

(٤) يَعْدُو: يَتَجَاوَزُ وَيَتَعَدَّى.

(٥) حِمَامَةٌ: الْمَرادُ بِها هُنَا الْقَامَةُ، وَبِلِينِها الضُّعْفُ وَالانْحِلالُ.

(٦) قَنَاءٌ: جَوَاهِرُ الْأَدبِ (ص ٥١٨-٥١٩).

(٧) الدَّبِيبُ: السَّيْرُ بِلِينٍ وَبُطْءٍ.

(٨) الْأَزْرَأُ: جَمْعُ إِزَارٍ، وَهُوَ ما يُلْفُ حَوْلَ النُّصْفِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْجِسْمِ.

(٩) الصَّبْرُ - بِكسْرِ الباءِ -: عَصَاةٌ شَجَرٍ مَرُّهُ يُسْتَخْدَمُ دَوَاءً.

(١٠) «إِنْبَاءُ الرُّوَاةِ» (٣/ ٣٦٢ - ٣٦٣).

إِنَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي تَعْزِيَةِ وَتَسْلِيَةِ أَهْلِ الْمَصَائِبِ قَوْلَ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - لِلأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَلَمُ وَأَنْتَ مَا جُورُ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَلَمُ وَأَنْتَ مَا زُورُ».

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ، فَقَالَ:

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي التُّعَازِي لِأَشْعَثَ ■ ■ ■ - وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ الْمَائِمِ :-

أَتَصْبِرُ لِلْبَلَوَى عَزَاءً وَخَشِيَةً ■ ■ ■ فَتُؤَجَّرُ، أَوْ تَسْلُو سُلُوَ الْبِهَائِمِ؟^(١)

■ أَسْبَابُ تَهْوِينِ الْمَصَائِبِ^(٢) :

لتسهيلِ الْمَصَائِبِ، وتخفيفِ الشَّدَائِدِ أَسْبَابٌ، إِذَا قَارَنْتَ حَزْمًا، وَصَادَقْتَ عَزْمًا، هَانَ وَقَعُهَا، وَقَلَّ تَأْثِيرُهَا وَضَرَرُهَا، فَمِنْهَا:

١ - إِشْعَارُ النَّفْسِ بِمَا تَعَلَّمَهُ مِنْ نُزُولِ الْفَنَاءِ، وَتَقْضِي الْمَسْرِ، وَأَنَّ لَهَا آجَالًا مُنْصَرِمَةً^(٣)، وَمُدَدًا^(٤) مُنْقَضِيَةً، إِذْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا حَالٌ تَدُومُ، وَلَا لِمَخْلُوقٍ فِيهَا بَقَاءٌ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا

وَمَا لِي!». وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كِرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتِظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا،^(٥)

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٨٨).

(٢) انظر «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٩١ - ٢٩٦).

(٣) مُنْصَرِمَةٌ: مُنْقَطِعَةٌ.

(٤) الْمُدَدُ: جَمْعُ مُدَّةٍ، وَهِيَ الْفَتْرَةُ الزَّمَنِيَّةُ.

(٥) رواه أحمد في «المسند»، والحاكم في «المستدرک»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»

(٢/٥٦٦٩)، و«الصحيح» (٤٣٩).

وَسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - عَنِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: «تَغْرُوتُ وَتَضْرُوتُ وَتَمُرُّ.
وَقَالَ أَنُو شِرْوَانُ: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَلَّا تَغْتَمَّ، فَلَا تَقْتَنِ مَا بِهِ تَهْتَمُّ».

فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ ٥ ٥ يَكْدُرُ مَا أَعْطَى، وَيَسْلُبُ مَا أَسْدَى ١٩
فَمَنْ سَرَّهُ الْأَيْرَى مَا يَسُوءُهُ ٥ ٥ فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

٢ - أَنْ يَتَّصِرَ انْجِلَاءَ الشَّدَائِدِ، وَانْكَشَافِ الهُمُومِ، وَأَنَّهَا تُقَدَّرُ بِأَوْقَاتٍ لَا
تَنْصَرِمُ قَبْلَهَا، وَلَا تَسْتَدِيمُ بَعْدَهَا، فَلَا تَقْصُرُ بِجَزَعٍ، وَلَا تَطُولُ بِصَبْرٍ، وَأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ
يَمُرُّ بِهَا يَذْهَبُ مِنْهَا بِشَطْرٍ، وَيَأْخُذُ مِنْهَا بِنَصِيبٍ، حَتَّى تَنْجَلِيَ وَهوَ عَنْهَا غَافِلٌ.

حِكْمِي أَنَّ الرَّشِيدَ حَبَسَ رَجُلًا، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ بَعْدَ زَمَانٍ، فَقَالَ لِلْمَتَوَكِّلِ بِهِ:
«قُلْ لَهُ: كُلُّ يَوْمٍ يَمِضِي مِنْ نَعْمِهِ، يَمِضِي مِنْ بُؤْسِي مِثْلَهُ، وَالْأَمْرُ قَرِيبٌ،
وَالْحُكْمُ لِلَّهِ - تَعَالَى -».

فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ:

لَوْ أَنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ يَدُومُ لَكُمْ ٥ ٥ ظَنَنْتُ مَا أَنَا فِيهِ دَائِمًا أَبَدًا
لَكُنِّي عَالِمٌ أَنِّي وَأَنْتُمْ ٥ ٥ سَنَسْتَجِدُّ^(١) خِلَافَ الْحَالَتَيْنِ غَدًا

وَأَنشَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ رِيكَ لَيْسَ تُحْصَى ٥ ٥ أَيَادِيهِ^(٢) الْحَدِيثَةُ وَالْقَدِيمَةُ
تَسَلُّ عَنِ الْهُمُومِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ ٥ ٥ يُقِيمُ، وَلَا هُمُومُكَ بِالْمُقِيمَةِ
لَعَلَّ اللَّهَ يَنْظُرُ بَعْدَ هَذَا ٥ ٥ إِلَيْكَ بِنَظَرَةٍ مِنْهُ رَحِيمَةً

(١) سَنَسْتَجِدِّي: سَنَصِيرُ إِلَى حَالَةٍ جَدِيدَةٍ.

(٢) الْأَيَادِي: النَّعْمُ.

٣ - أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا^(١)، وكُفي من الحوادث^(٢) ما هو أعظم من رزيتيه، وأشد من حادثته؛ ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع.

قيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين: خير منشور، وشر مستور.
وقال بعض الشعراء:

لا تكره المكروه عند حلوله ■■■ إن العواقب لم تزل متباينة^(٣)
كم نعمة لا تستقل^(٤) بشكرها ■■■ لله في طي المكاره كأمينه

٤ - أن يتأسى بذوي الغير^(٥)، ويتسلى بأولي العبر، ويعلم أنهم الأكثرون عدداً، والأسرعون مدداً^(٦)، فيستجد من سلوة الأسي، وحسن العزا ما يخفف شجوه^(٧)، ويقل هلعه.

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «ألصقوا بذوي الغير، تتسع قلوبكم».

وعلى مثل ذلك كانت مرآتي الشعراء، قالت الخنساء ترثي أختها لأبيها صخرًا:
يذكُرني طلوعُ الشمسِ صخرًا ■■■ وأذكُرُه لكلِّ غروبِ شمسِ
فلولا كثرةُ الباكينِ حولي ■■■ على إخوانهم، لقاتلت نفسي

(١) الرزايا: المصائب، مفردا رزية.

(٢) الحوادث: الشدائد والكوارث، مفردا حادث.

(٣) متباينة: مختلفة.

(٤) تستقل: تنهض.

(٥) الغير: أحوال الدهر المتغيرة، مفردا غيره - بكسر الغين - .

(٦) المدد: النصرة والعون والغوث.

(٧) الشجوة: الحزن والهَمُّ، وبأبه عداً.

ولسكن لا ازال اذى مَجْبُولاً^(١) .. وناحمة تنوح ليوم نحس^(٢)
 هما مكلتاهاهما تهنى احاها .. عشيبة رزليه، او هيب^(٣) أمس^(٤)
 وما ييمكين مثل الحي، ولسكن .. أسلي النفس عنه بالتأسى
 ففقد ودعت يوم فراق منظر .. أبي حسبان لذاتي وأنسى
 فيا لهضي^(٥) عليه، ولهف أمني .. أيصبح في الضريح^(٦)، وفيه يمسي^(٧)

وقال البحتري:

فلا عجب للأسد إن ظفرت بها .. كلاب الأعداي من فصيح وأعجمي
 فخرية^(٨) وحشي سقت حمزة الردى^(٩) .. وموت علي من حسام^(١٠) ابن ملجم^(١١)

(١) المَجْبُول، التي مات ولدتها صغيراً.

(٢) نحس، شؤم.

(٣) هيب، أمس - بكسر الفين -: عقيب.

(٤) أمس، هو اليوم الذي قبل يومك، فإذا عُرِفَ بالالف واللام، قُصِدَ به أي يوم مَضَى، وهذه هي الكلمة الوحيدة في اللغة العربية التي إذا نكَّرت عُرِفَتْ، وإذا عُرِفَتْ نكَّرت.

(٥) اللهفة، الحسرة، والحزن.

(٦) الضريح، القبر.

(٧) «جواهر الأدب» (ص ٣٩٧).

(٨) الخرية، واحدة الخراب، وهي كالرمح.

(٩) الردى، الهلاك والموت.

(١٠) الحسام، السيف القاطع، وكان ابن ملجم - قَبَّحَهُ اللهُ - قد اشتراه بالف، وشحذَهُ أربعين صباحاً، وسمَّه بالف.

(١١) ابن ملجم، هو عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، فإتاك نائر من أشد الفرسان، أدرك الجاهلية، وهاجر في خلافة عمر، وشهد فتح مصر وسكنها، كان من شيعة علي، وشهد معه صفين، ثم خرج عليه، فقد كان ممن عارضوا التحكيم، وليأخذ بنار إخوانه من أهل النهروان - والنهروان اسم للموضع الذي دارت فيه المعركة بين علي والخوارج - الذين قتلهم علي؛ تربص لعلي سحر يوم الجمعة ساعة خروجه لصلاة الصبح، فضربه بالسيف على قرن رأسه، فسأل دمه على لحية فخضبها، وكان ذلك لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان على الأصح سنة ٤٠ هـ.

وَقَالَ أَبُو نُؤَاسٍ:

المرءُ بينَ مصائبٍ لا تنقضي ◻◻◻ حتى يُوَارَى ^(١) جسمه في رمسه ^(٢)
فمُؤَجَّلٌ يلقى الردى في أهله ◻◻◻ ومُعَجَّلٌ يلقى الردى في نفسه

٥ - أن يعلم أن النعم زائرة، وأنها - لا محالة - زائلة، وأن السرور بها إذا
أقبلت مشوب ^(٣) بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحاً حتى
تعقب بفراقها ترحاً ^(٤)، فعلى قدر السرور يكون الحزن.

قيل في منشور الحكم: «المفروح به هو المحزون عليه».

وقيل: «من بلغ غاية ما يحب، فليتوقع غاية ما يكره».

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ نَائِبَةٍ إِلَى انْقِضَاءِ، حَسَنَ عَزَاؤُهُ عِنْدَ
نَزُولِ الْبَلَاءِ».

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي ◻◻◻ وَيَحْمَدُ غَيْبَ السَّيْرِ ^(٥) مَنْ هُوَ سَائِرٌ

وقيل للحسن البصري - يرحمه الله -: «كيف ترى الدنيا؟». قال: «شغلني
توقع بلائها عن الفرح برحائها».

فَأَخَذَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ، فَقَالَ:

تزيدهُ الأيامُ إنْ أَقْبَلَتْ ◻◻◻ شِدَّةَ خَوْفٍ لَتَصَارِيْفِهَا
كَأَنَّهَا فِي حَالِ إِسْعَافِهَا ^(٦) ◻◻◻ تُسْمِعُهُ وَقْعَةَ تَخْوِيفِهَا

(١) يُوَارَى: يُخْفِي وَيُغَيِّبُ.

(٢) الرَّمْسُ - بِالْفَتْحِ -: تُرَابُ الْقَبْرِ، وَالْجَمْعُ أَرْمَاسٌ، وَرُمُوسٌ.

(٣) مَشُوبٌ: مَخْلُوطٌ.

(٤) التَّرْحُ - بِفَتْحَتَيْنِ -: الْحُزْنُ، وَالْجَمْعُ أُنْرَاحٌ، وَبَابُهُ فَرِحَ.

(٥) غَيْبُ السَّيْرِ: عَاقِبَتُهُ.

(٦) إِسْعَافُهَا: إِجْمَادُهَا وَمَسَاعِدَتُهَا.

٦ - أن يَعْلَمَ أَنَّ سُرُورَهُ مَقْرُونٌ بِمَسَاءَةٍ غَيْرِهِ، وكذلك حزنه مقرونٌ بسُرُورِ غَيْرِهِ، إِذْ كَانَتْ الدُّنْيَا تُنْقَلُ مِنْ صَاحِبٍ إِلَى صَاحِبٍ، وَتَصِلُ صَاحِبًا بِفِرَاقِ صَاحِبٍ، فَتَكُونُ سُرُورًا لِمَنْ وَصَلَتْهُ، وَحُزْنًا لِمَنْ فَارَقَتْهُ.

قَالَ الْبُحْتَرِيُّ:

مَتَى أَرَتِ الدُّنْيَا نَبَاهَةً خَامِلٍ^(١) ◻◻◻ فَلَا تَرْتَقِبُ إِلَّا خُمُولَ نَبِيهِ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي:

بَدَا قَضَتْ الأَيَّامَ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا ◻◻◻ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ قَوَائِدُ

وَقَالَ صَاحِبُ «العقدِ الفريدِ» أحمدُ بنُ عبدِ رَبِّهِ القُرْطُبِيُّ - يَصِفُ الدُّنْيَا -:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا نَضَارَةٌ^(٢) أَيْكَةٌ^(٣) ◻◻◻ إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ، جَفَّ جَانِبٌ

فَلَا تَفْرَحَنَّ مِنْهَا لِشَيْءٍ تُفِيدُهُ ◻◻◻ سَيَذْهَبُ يَوْمًا مِثْلَمَا أَنْتَ ذَاهِبٌ

هِيَ الدَّارُ مَا الأَمَالُ إِلَّا فَجَائِعُ ◻◻◻ عَلَيْهَا، وَلَا اللِّدَاتُ إِلَّا مَصَائِبُ

فَلَا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ^(٤) ◻◻◻ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا؛ فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

(١) الخامل: الساقط الذي لا نباهة له، وبأبه دخل.

(٢) النضارة: الحسن والرونق.

(٣) الأيكة: الشجرة، والجمع أيك.

(٤) العبيرة - بالفتح -: الدفعة قبل أن تفيض.

٧ - أن يَعْلَمَ أَنَّ طَوَارِقَ^(١) الْإِنْسَانِ مِنْ دَلَائِلِ فَضْلِهِ، وَمَحَنُهُ مِنْ شَوَاهِدِ نُبُلِهِ^(٢)، وَلِذَلِكَ إِحْدَى عِلَّتَيْنِ: إِمَّا لِأَنَّ الْكَمَالَ مُعْوِزٌ^(٣)، وَالنَّقْصَ لَا زِمٌ، فِإِذَا تَوَاتَرَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ، صَارَ النَّقْصُ فِيمَا سِوَاهُ، وَقَدْ قِيلَ: «مَنْ زَادَ فِي عَقْلِهِ، نَقَصَ مِنْ رِزْقِهِ».

وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

مَا جَاوَزَ الْمَرْءُ مِنْ أَطْرَافِهِ طَرْفًا ◻◻◻ إِلَّا تَخَوَّنَهُ النُّقْصَانُ مِنْ طَرْفٍ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَلَالٍ الْكَاتِبُ:

إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ امْرُئَيْنِ صِنَاعَةً ◻◻◻ فَأَحْبَبْتَ أَنْ تَدْرِي الذِّي هُوَ أَحْدَقُ^(٤)

فَلَا تَتَفَقَّدُ مِنْهُمَا غَيْرَ مَا جَرَتْ ◻◻◻ بِهِ لَهُمَا الْأَرْزَاقُ حِينَ تَفْرُقُ

فَحَيْثُ يَكُونُ النَّقْصُ فَالرِّزْقُ وَاسِعٌ ◻◻◻ وَحَيْثُ يَكُونُ الْفَضْلُ فَالرِّزْقُ ضَيِّقٌ

وَإِمَّا لِأَنَّ ذَا الْفَضْلِ مَحْسُودٌ، وَبِالْأَذَى مَقْصُودٌ، فَلَا يَسْلَمُ فِي بَرِّهِ مِنْ مُعَادٍ،

وَاشْتِطَاطُ^(٥) مَنَاوٍ^(٦).

قَالَ الصَّنَوْبَرِيُّ:

مِحْنُ الْفَتَى يُخْبِرُنَ عَنْ فَضْلِ الْفَتَى ◻◻◻ كَالنَّارِ مُخْبِرَةٌ بِفَضْلِ الْعَنْبَرِ^(٧)

(١) طوارق: مصائب، المفرد طارقة.

(٢) النُّبْلُ - بِالضَّمِّ -: الْفَضْلُ وَالذِّكَاةُ وَالنَّجَابَةُ، وَيَابَهُ ظَرْفٌ.

(٣) مُعْوِزٌ: مَنْ أَعْوَزَهُ الشَّيْءُ: إِذَا احْتَجَّ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

(٤) أَحْدَقٌ: مَاهِرٌ فِي صِنْعَتِهِ.

(٥) اشْتِطَاطٌ: جَوْرٌ وَظُلْمٌ.

(٦) مَنَاوٍ: مُعَادٍ.

(٧) الْعَنْبَرُ: مَادَةٌ صَلْبَةٌ تَبْعَثُ مِنْهَا رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ إِذَا أُحْرِقَتْ.

وَقَلَّمَا تَكُونُ مِحْنَةً فَاضِلٍ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ نَاقِصٍ، وَبَلَوَى عَالِمٍ إِلَّا عَلَى يَدِ
جَاهِلٍ؛ وَذَلِكَ لِاسْتِحْكَامِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا بِالْمُبَايَنَةِ، وَحُدُوثِ الْإِنْتِقَامِ لِأَجْلِ التَّقَدُّمِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا غَرَوُ أَنْ يُمْنَى^(١) عَلِيمٌ بِجَاهِلٍ ■ ■ ■ فَمِنْ ذَنْبِ التَّنِينِ تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ

٨ - مَا يِعْتَاضُهُ^(٢) مِنَ الْارْتِيَاضِ بِنَوَائِبِ عَصْرِهِ، وَيَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْحِنْكَةِ^(٣) بِبِلَاءِ
دَهْرِهِ، فَيَصْلُبُ عَوْدَهُ، وَيَسْتَقِيمُ عَمُودَهُ، وَيَكْمَلُ بِأَدْنَى شِدَّتِهِ وَرِخَائِهِ، وَيَتَّعِظُ
بِحَالَتِي عَفْوِهِ وَبِلَائِهِ.

حِكْمِي عَنْ ثَعْلَبٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ، وَعَلَيْهِ
خِلْعٌ^(٤) الرُّضَى بَعْدَ النَّكْبَةِ، فَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ^(٥)، قَالَ لِي: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ،
اسْمَعْ مَا أَقُولُ:

نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَدَّبَتْ نِي ■ ■ ■ وَأَنْمَاءُ يُوعِظُ الْأَدِيبُ
قَدْ دُقْتُ حُلُوقًا، وَدُقْتُ مُرًّا ■ ■ ■ كَذَاكَ عَيْشُ الْفَتَى ضُرُوبُ
لَمْ يَمْضِ بُؤْسٌ، وَلَا نَعِيمٌ ■ ■ ■ إِلَّا وَلِي فِيهِمَا نَصِيبُ
كَذَاكَ مَنْ صَاحَبَ اللَّيَالِي ■ ■ ■ تَغْدُوهُ مِنْ دَرِّهَا الْخُطُوبُ

(١) يُمْنَى: يُتَلَى.

(٢) يِعْتَاضُ: يَسْتَعِضُ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ.

(٣) الْحِنْكَةُ: التَّجْرِبَةُ.

(٤) الْخِلْعُ: الْمَلَابِسُ.

(٥) مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ: انْتَصَبْتُ قَائِمًا.

٩ - أن يختبر أمورَ زمانه، ويتنبه على صلاح شأنه فلا يغترُّ برخاءه، ولا يطمع في استواءه، ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حاله، أو تخلو من تقلبٍ واستحالة؛ فإنَّ من عرف الدنيا، وخبر أحوالها، هان عليه بُسؤها وتعيمها.

قال أبو العتاهية:

إني رأيتُ عواقبَ الدنيا فتركتُ ما أهوى لما أخشى
فكرتُ في الدنيا وعالمها فإذا جميعُ أمورها تفتنى
وبلوتُ^(١) أكثرَ أهلها، فإذا كلُّ امرئٍ في شأنه يسعى
أسنى^(٢) منازلها وأرقعها في العزِّ أقربها من المهوى
تعفومساويها محاسنها لا فرق بين النعي^(٣) والبشرى
ولقد مررتُ على القبور، فما ميزتُ بين العبدِ والمولى^(٤)
أتراك تدري كم رأيتُ من الأ حياء، ثم رأيتهم موتى؟

فإذا ظفر المصابُ بأحدِ هذه الأسبابِ، تخففتُ عنه أحزانه، وتسهلتُ عليه أشجانه^(٥)، فصار وشيك السلوة، قليل الجزع، حسن العزاء.

قال بعض الحكماء: «من حاذر لم يهلع، ومن راقب لم يجزع، ومن كان متوقفاً لم يكن متوجعاً».

(٢) أسنى: أرقع.

(١) بلوت: اخترتُ وجربتُ.

(٣) النعي: خبر الموت.

(٤) المولى: السيد والرئيس.

(٥) الأشجان: جمع شجن - بفتحين - وهو الحزن، وبأبه فرح.

وقال بعض الشعراء:

ما يكون الأمر سهلاً كله ◻◻ ◻◻ إنما الدنيا سرورٌ وحزونٌ
هونُ الأمرِ تعيشُ في راحةٍ ◻◻ ◻◻ قل ما هونت إلا سيهون
تطلبُ الراحةَ في دارِ الفنا ◻◻ ◻◻ ضلُّ من يطلبُ شيئاً لا يكونُ

فإن أغفل نفسه عن دواعي السلوة، ومنعها من أسباب النصر - تضاعف عليه من شدة الأسى، وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبراً، ولا يجد عنه سلواً.
وقال ابن الرومي:

إن البلاء يُطاق غير مضاعفٍ ◻◻ ◻◻ فإذا تضاعف صار غير مُطاق
فإذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه، وأمدّه هلعهُ بالذرائع^(١) الداعية إليه - فقد سعى في حتفه^(٢)، وأعان على تلفه، فمن أسباب ذلك:
١ - تذكرُ المصابِ حتى لا يتناساه، وتصوره حتى لا يعزب^(٣) عنه، ولا يجد من التذكارِ سلوةً، ولا يخلطُ مع التصورِ تعزيةً.

وسل نفسك تسلو في منازلها ◻◻ ◻◻ هل الدموعُ تردُّ الغائبَ الغالي؟

وقد قال عمرُ بنُ الخطابِ - رضي الله عنه - : «لا تستفزوا الدموعَ بالتذكُّر».

٢ - الأسفُ وشدةُ الحسرة، فلا يرى من مصابه خلفاً، ولا يجدُ لفقده بدلاً، فيزداد بالأسفِ ولها^(٤)، وبالْحَسْرَةَ هلعاً؛ ولذلك قال الله - تعالى - :
﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: ٢٣).

(١) الذرائع: الوسائل، مفرداً ذريعةً.

(٢) الحتف، الموت، والجمع حتوف.

(٣) يعزب، يغيب.

(٤) اوله، ذهاب العقل والتحير من شدة الوجع، وبابه فرح.

وقال بعض الشعراء:

إذا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللَّهِ، وَارْضَ بِهِ ۝ ۵ ۝ ۵ إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ
 إِذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسْلِمِ لِقُدْرَتِهِ ۝ ۵ ۝ ۵ مَا لَأَمْرِي حَيْلَةٌ^(١) فِيمَا قَضَى اللَّهُ
 الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ۝ ۵ ۝ ۵ لَا تَيْأَسَنَّ؛ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللَّهُ

٣ - كَثْرَةُ الشُّكْوَى، وَبَثُّ الْجَزَعِ.

قَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي جَبَلَةَ فِي قَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ
 - ﷺ -: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (سورة يوسف: ١٨). قَالَ: «لَا شُكْوَى فِيهِ»^(٢).

وَحِكْمِي أَنْ أَعْرَابِيَّةٌ دَخَلَتْ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَسَمِعَتْ صُرَاخًا فِي دَارٍ، فَقَالَتْ: مَا
 هَذَا؟ فَقِيلَ لَهَا: مَاتَ لَهُمْ إِنْسَانٌ. فَقَالَتْ: مَا أَرَاهُمْ إِلَّا مِنْ رَبِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ،
 وَيَقْضَاهُ يَتَبَرَّمُونَ^(٣)، وَعَنْ ثَوَابِهِ يَرْغَبُونَ^(٤)».

وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ: «مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لِسَانُهُ».

وَإِنَّمَا تُنَافِي الصَّبْرَ الشُّكْوَى إِلَى الْعِبَادِ لَا إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ نَبِيُّ
 اللَّهِ يَعْقُوبُ - ﷺ -: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي^(٥) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (سورة يوسف: ٨٦).

(١) الْحَيْلَةُ: بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ هُنَا، وَالْجَمْعُ حَيْلٌ.

(٢) «عِدَّة الصَّابِرِينَ» (ص ١٢٧).

(٣) يَتَبَرَّمُونَ: يَتَضَجَّرُونَ.

(٤) رَغِبَ عَنِ الشَّيْءِ: كَرِهَهُ وَتَرَكَّهُ. وَرَغِبَ فِي الشَّيْءِ: أَحَبَّهُ وَأَرَادَهُ، وَبَابُهُ فَرِحَ.

(٥) الْبَثُّ: الْحَالُ وَالْحُزْنُ وَالْهَمُّ.

وانشدَ بعضُ أهلِ العلمِ:

لا تُكثِرِ الشُّكُوى إلى الصُّديقِ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
وَأرجِعْ إلى الخَالِقِ، لا المَخْلُوقِ

لا يُخْرِجُ الفَرِيقُ بالفَرِيقِ

وقالَ بعضُ الشعراءِ:

لا تَشْكُ دَهْرَكَ ما صَحَحَتْ بِهِ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
إِنَّ الغِنَى هُوَ صِحَّةُ الجِسمِ

هَبِكَ الخَلِيفَةُ كُنْتَ مُنْتَفِعًا ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
بِغَضَارَةِ الدُّنْيَا مَعَ السُّقْمِ^(١)

فكُنْ . أَخِي . كَمَا قَالَ المُنْتَبِي:

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ^(٢) ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
ما دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ^(٣)

فَمَا يَدُومُ سُرُورُ ما سُرُرتَ بِهِ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَوائِدِ الحَزَنُ

٤ - اليأسُ من جبرِ مُصائبِهِ، ودَرَكَ طَلابِهِ، فيقتَرِنُ بحُزْنِ الحادِثَةِ قُنُوطُ
الإيَّاسِ، فلا يَبْقَى مَعَهَا صَبْرٌ، وَلَا يَتَّسِعُ لَهَا صَدْرٌ، وَقَدْ قِيلَ: «المُصِيبَةُ بِالصَّبْرِ
أَعْظَمُ المُصِيبَتِينَ».

وانشدَ شَبِيبُ بنُ شَيْبَةَ للمَهْدِيِّ:

وَلئنِ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فاصْبِرْ لَهَا ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
عَظُمَتِ مُصِيبَةٌ مُبْتَلٍ لا يَصْبِرُ

وقالَ ابنُ الرُّومِيِّ:

اصْبِرِي . أَيُّهَا النُّفْسُ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
سُ . فَإِنَّ الصَّبْرَ أَحْجَى

رُبَّمَا خَابَ رَجَاءُ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
وَأَتَى ما لَيْسَ يُرْجَى

(١) السُّقْمُ: المَرَضُ، والجمعُ أسقامٌ، وبابه فَرِحَ.

(٢) مُكْتَرِثٌ: مُبَالٌ ومُهْتَمٌ.

(٣) يقول: لا تُبَالِ الزَّمانَ وصرُوفَهُ ما دُمْتَ حَيًّا؛ فَإِنَّ الشَّدَّةَ والرِّخاءَ يتعقبانِ فِيهِ على الحَيِّ، فلا يَأْسَ مَعَ الحَيَاةِ.

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

إذا يسر الله الأمور تيسرت ٥ ٥ ولأنت قواها، واستقاد عسيرها
فكم طامع في حاجة لا ينالها ٥ ٥ وكم أيسر منها أتاه بشيرها
وكم خائف صار الخيف، ومقتير^(١) ٥ ٥ تمول^(٢)، والأحداث يحلو مريها
وقد تغدر الدنيا، فيمسي غنيها ٥ ٥ فقيرا، ويغنى بعد عسر فقيرها
وكم قد رأينا من تكدر عيشة ٥ ٥ وأخرى صفا بعد انكدار غديرها^(٣)

وأنشد بعض أهل العلم:

أتحسب أن البؤس للحردائم ٥ ٥ ولو دام شيء عدّه الناس في العجب
لقد عرفتك الحادثات ببؤسها ٥ ٥ وقد أدبت، إن كان ينفعك الأدب
ولو طلب الإنسان من صرف دهره^(٤) ٥ ٥ دوام الذي يخشى، لأعياه ما طلب

٥ - أن يغرى^(٥) بملاحظة من حيطت سلامته، وحريست نعمته، حتى التحف بالأمن والدعة^(٦)، واستمتع بالثروة والسعة، ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويا، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيا، فلا يستطيع صبرا على بلوى، ولا يلزم شكرا على نعمى، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية، وسأواه في الحادثة - لتكافأ الأمران، فهان عليه الصبر، وحان منه الفرج.

(١) المقتير: الفقير، يُقال: أقتَر الرجلُ: أي افتقر.

(٢) تمول: صار ذا مال.

(٣) الغدير: أصله الماء يجتمع بعد السيل، والجمع غدران، وغدر.

(٤) صرف الدهر: حوادثه ومصائبه، والجمع صروف.

(٥) يغرى: يولع، وبابه فرح.

(٦) الدعة: الهدوء والاطمئنان، يُقال: ودع - بضم الدال - الرجلُ فهو وديع، ووَادعُ أيضا.

أُنشِدَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ:

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، صَبِرًا ۝ ۝ ۝ إِنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا
 كَمْ رَأَيْنَا الْيَوْمَ حُرًّا ۝ ۝ ۝ لَمْ يَكُنْ بِالْأَمْسِ حُرًّا
 مَلِكَ الصَّبْرِ فَاضْحَى ۝ ۝ ۝ مَا الْكَأْخَيْرُ وَشَرًّا
 اشْرَبِ الصَّبْرَ، وَإِنْ كَا ۝ ۝ ۝ نَ مِنَ الصَّبْرِ أَمْرًا

وَأُنشِدَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ:

يُرَاعُ^(١) الْفَتَى لِلخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ ۝ ۝ ۝ فَيَأْسَى^(٢)، وَفِي عُقْبَاهُ يَأْتِي سُورُهُ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا تَرَكَ كَمَتَ ۝ ۝ ۝ دُجَاهُ^(٣)، بَدَأَ وَجْهَ الصَّبَّاحِ وَنُورُهُ
 فَلَا تَصْحَبِنِ الْيَأْسَ إِنْ كُنْتَ عَالِمًا ۝ ۝ ۝ لَبِيبًا، فَإِنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

■ وَالصَّبْرُ الْمَشْرُوعُ لَهُ ثَلَاثَةٌ شُرُوطٌ:

■ الْأَوَّلُ - الْإِخْلَاصُ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (سورة الرعد: ٢٢).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: «أَيُّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ،

فَقَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ»^(٤).

(١) يُرَاعُ: يَفْرَعُ، وَيَخَافُ

(٢) يَأْسَى: يَحْزَنُ.

(٣) الدُّجَى: جَمْعُ دُجْيَةٍ، وَهِيَ الظُّلْمَةُ.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٠٦).

وقال العلامة ابن سعدى. يرحمه الله. في تفسيرها:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها، والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلة بعدم تسخطها.

ولكن يشترط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربه، ورجاءاً للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلّد، ومنتهاه الفخر - فهذا يصدر من البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة^(١).

قال الشاعر:

واني لأغضي^(٢) مقلتي^(٣) على القذى ◻◻◻ وأبس ثوب الصبر أبيض أبلجاً^(٤)
واني لأدعو الله، والأمر ضيق ◻◻◻ علي، فما ينفك أن يتفرجاً
وكم من فتى سدت عليه وجوهه ◻◻◻ أصاب لها في دعوة الله مخرجاً

■ الثاني - عدم شكوى الله إلى العباد:

شكوى الله إلى العباد تنافي الصبر، وتخرجه إلى التسخط والجزع.

(١) تفسير ابن سعدى (ص ٤١٧).

(٢) الإغضاء: انطباق الجفنين.

(٣) المقلّة: شحمة العين الجامعة للبياض والسواد، والجمع مقل.

(٤) الأبلج: المضيء المشرق.

قال رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه: قال الله - سبحانه وتعالى -: إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عواده^(١)، أطلقتُه من أساري، ثم أبدلتُه لحمًا خيراً من لحمه، ودمًا خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل^(٢).

وقال الشاعر:

وإذا عرتك^(٣) بليّة فاصبر لها صبر الكريم، فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم^(٤)

وقال المتنبّي:

ولا تشك^(٥) إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغريبان والرخم^(٦)

وقال آخر:

لا تشكون إلى صديق حالة تأتيك في السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة في القلب مثل شماتة الأعداء

(١) عواده: زواره، والمفرد: عائد.

(٢) رواه الحاكم (٣٤٩/١)، والبيهقي (٣٧٥/٣)، وإسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٣) عرتك: أصابتك.

(٤) «تهذيب مدارج السالكين» (٥٦٦/٢).

(٥) تشك: مضارع من التشكى، أصله تشكى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، ثم حذفت حرف العلة - وهو الألف - للجازم.

(٦) الرخم - بفتحين - : جمع رخمّة، وهي طائر أبقع (أي فيه سواد وبياض) يشبه النسر في الخلقّة.

(٧) يقول: لا تشك إلى أحد ما ينزل بك من ضر؛ لئلا تشمته بشكوكك، فيكون حالك كحال الجريح الذي يشكو جراحه إلى الطيور التي ترقب موته لتأكله.

■ الثالث - أن يكون في ساعة المصيبة:

الصَّبْرُ المَحْمُودُ المَاجُورُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مَا كَانَ فِي أَوَانِهِ^(١)، أَمَا إِذَا فَاتَ الْأَوَانَ
فَلَا فَائِدَةَ مِنْهُ.

عَنْ أَبِي أَمَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ -: ابْنُ
آدَمَ، إِنْ صَبَّرْتَ وَاحْتَسَبْتَ^(٢) عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ،^{(٣)(٤)}
قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ:.

«المعنى أن الصَّبْرَ الَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مَا كَانَ عِنْدَ مُفَاجَأَةِ الْمُصِيبَةِ،
بِخِلَافِ مَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسْلُو»^(٥).

وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: «اتَّقِي
اللَّهَ وَاصْبِرِي». قَالَتْ: «إِلَيْكَ»^(٦) عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي. وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا:
إِنَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَابِينَ، فَقَالَتْ: «لَمْ أَعْرِفْكَ»،
فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٧).

(١) أَوَانُهُ: وَقْتُهُ، وَالْجَمْعُ أَوَانَةٌ كَزَمَانَ وَأَزْمِنَةٌ.

(٢) احْتَسَبْتُ: رَجَوْتُ ثَوَابَ صَبْرِكَ عَلَى مُصَابِكَ مِنَ اللَّهِ، وَادَّخَرْتُهُ عِنْدَهُ.

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٩٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٩٧).

(٤) انظر «تسلية أهل المصائب» (ص ٣٦).

(٥) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).

(٦) إليك: اسم فعل أمر بمعنى ابتعد وتّنع.

(٧) رواه البخاري - واللفظ له - (١٢٥٢) و(١٢٨٣) و(١٣٠٢) و(٧١٥٤)، ومسلم (٩٢٦).

قال أحد العلماء:

ولقد ذكرتُ الله ساعةَ خوفِهِ ۝ ۝ للباسِلينَ^(١) معَ القَنَا^(٢) الخطَّارِ^(٣)
فَنَسِيتُ كُلَّ لَدَائِدِ جِيَاشَةٍ ۝ ۝ يَوْمَ الوَغَى^(٤) لِلوَاحِدِ القَهَّارِ

وقال المتنبِّي:

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ^(٥) حَتَّى ۝ ۝ فُوَادِي فِي غِشَاءِ^(٦) مِنْ نِبَالِ^(٧)
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ ۝ ۝ تَكْسَرَتِ النَّصَالُ^(٨) عَلَى النَّصَالِ^(٩)
فَعِشْتُ وَلَا أَبَالِي بِالرِّزَايَا؛ ۝ ۝ لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي

الأسبابُ المعينةُ على الصبرِ:

وئمةٌ أسبابٌ تُعينُ العبدَ وتُصبره عندَ نزولِ المُصيبةِ أو البلاءِ، وهي ما يأتي:
السببُ الأولُ - شهودُ جزائها وثوابها.
السببُ الثاني - شهودُ تكفيرها للسَّيئاتِ ومحوها لها.

(١) الباسلون: الشجعان الأبطال وبابه ظرف.

(٢) القنا: جمع قنّاء، وهي الرمح، ويُجمع - أيضاً - على قنّات.

(٣) يُقال: رمحٌ خطّارٌ - بالتشديد - : أي ذو اهتزاز.

(٤) الوغى: الحرب، سُميت بذلك لما فيها من الصوتِ والجلبةِ.

(٥) الأرزاء: المصائب، والمفرد رزءٌ.

(٦) الغشاء - بالكسر - : الغلاف والغطاء، والجمع أغشية.

(٧) النبال - بالكسر - : جمع نبل - بالفتح - وهي السهامُ العربيّة، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، وتُجمع - أيضاً - على أنبال.

(٨) النصال: الحدائد التي في رأس السهام، مفردُها نصلٌ، وتُجمع - أيضاً - في الكثرة على نُصول، وفي القلة على أنصل.

(٩) يقول: كسرت عليّ مصائب الدهر، حتى لم يبق من قلبي موضعٌ إلاّ أصابه سهمٌ منها، فصار في غلاف من السهام، فصرت - بعد ذلك - إذا أصابني سهامٌ من تلك المصائب، لا تجدُ موضعاً تنفذُ منه إلى قلبي، وإنما تقعُ نصالها على نصالِ السهامِ التي قبلها، فتتكسر عليها.

السَّبَبُ الثَّالِثُ - شُهُودُ الْقَدْرِ السَّابِقِ الْجَارِي بِهَا، وَأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ فِي أُمَّ الْكِتَابِ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ فَلَا بُدَّ مِنْهَا، فَجَزَعُهُ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا بَلَاءً.

السَّبَبُ الرَّابِعُ - شُهُودُ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْبَلَوَى، وَوَاجِبُهُ فِيهَا الصَّبْرُ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ الْأُمَّةِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ - شُهُودُ تَرْتُّبِهَا عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠) فَهَذَا عَامٌ فِي كُلِّ مُصِيبَةٍ دَقِيقَةٍ وَجَلِيلَةٍ، فَشَغَلَهُ شُهُودُ هَذَا السَّبَبِ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دَفْعِ تِلْكَ الْمُصِيبَةِ.

السَّبَبُ السَّادِسُ - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ ارْتَضَاهَا لَهُ وَاخْتَارَهَا وَقَسَمَهَا، وَأَنَّ الْعِبُودِيَّةَ تَقْتَضِي رِضَاهُ بِمَا رَضِيَ لَهُ بِهِ سَيِّدُهُ وَمَوْلَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ الْمَقَامِ حَقَّهُ فَهُوَ لَضَعْفِهِ، فَلْيَنْزِلْ إِلَى مَقَامِ الصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَإِنْ نَزَلَ عَنْهُ نَزَلَ إِلَى مَقَامِ الظُّلْمِ وَتَعَدَّى الْحَقَّ.

السَّبَبُ السَّابِعُ - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ هِيَ دَوَاءٌ نَافِعٌ سَاقَهُ إِلَيْهِ الطَّيِّبُ الْعَلِيمُ بِمَصْلَحَتِهِ الرَّحِيمُ بِهِ، فَلْيَصْبِرْ عَلَى تَجَرُّعِهِ وَلَا يَتَّقِيَاهُ بِتَسَخُّطِهِ وَشُكْوَاهُ فَيَذْهَبُ نَفْعُهُ بَاطِلًا.

السَّبَبُ الثَّامِنُ - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فِي عُقْبَى هَذَا الدَّوَاءِ مِنَ الشُّفَاءِ وَالْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ وَزَوَالِ الْأَلَمِ تَحْصُلُ بِدُونِهِ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ - أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُصِيبَةَ مَا جَاءَتْ لِتُهْلِكَهُ وَتَقْتُلُهُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لَتَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَتَبْتَلِيَهُ.

السَّبَبُ الْعَاشِرُ - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُرَبِّي عَبْدَهُ عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالنُّعْمَةِ وَالْبَلَاءِ^(١).

(١) انظر «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص ٢٧٦).

الانتصار



العَفْوُ لَيْسَ مَحْمُودًا مُطْلَقًا، بَلْ مِنْهُ مَا يَكُونُ مَحْمُودًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مَذْمُومًا، فَيَكُونُ مَحْمُودًا إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّهِ، وَيَكُونُ مَذْمُومًا إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَإِلَيْكَ التَّفْصِيلُ:

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (٢) فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَّا انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ ﴿ (سورة الشورى: ٣٩-٤١).

فَجَعَلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - العَفْوَ مَقْرُونًا بِالْإِصْلَاحِ، فَإِذَا كَانَ العَفْوُ غَيْرَ إِصْلَاحٍ، فَالْإِنْتِصَارُ أَفْضَلُ.

وَيُوضِّحُ الإِمَامُ ابْنُ العَرَبِيِّ هَذَا التَّسْأُولَ: «إِنْ كَانَ البَاغِي مُعْلِنًا بِالفُجُورِ، وَقِحًا فِي الجُمهُورِ، مُؤَذِيًا لِلصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ - فَيَكُونُ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُ أَفْضَلَ».

(١) ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾: أَي يَنْتَقِمُونَ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَلَا يَسْتَسْلِمُونَ لِظُلْمِ المَعْتَدِي.

(٢) «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»: أَي جَزَاءُ العُدْوَانِ أَنْ يَنْتَصِرَ المَظْلُومُ مِمَّنْ ظَلَمَهُ بِمِثْلِ عُدْوَانِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ.

(٣) قَالَ العَلَامَةُ ابْنُ سَعْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»:

«يَجْزِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، وَثَوَابًا كَثِيرًا، وَشَرَطَ اللَّهُ فِي العَفْوِ الإِصْلَاحَ فِيهِ؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الجَانِي لَا يَلِيقُ العَفْوُ عَنْهُ، وَكَانَتِ المَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَقْتَضِي عِقُوبَتَهُ - فَلِإِنَّهُ فِي هَذِهِ الحَالِ لَا يَكُونُ مَامُورًا بِهِ». وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»: «الَّذِينَ يَجْتُنُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ ابْتِدَاءً، أَوْ يُقَابِلُونَ الجَانِي بِأَكْثَرِ مِنْ جَنَابَتِهِ، فَالزِّيَادَةُ ظُلْمٌ». «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٧٦٠).

وَيَصِفُ الْحَالَةَ الْمُقْتَضِيَةَ لِلْعَفْوِ، فَيَقُولُ: «أَنْ تَكُونَ الْفَلْتَةَ، أَوْ يَقَعُ ذَلِكَ مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِالزَّلَّةِ، وَيَسْأَلُ الْمَغْفِرَةَ - فَالْعَفْوُ هَا هُنَا أَفْضَلُ»^(١).

وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَوَافَقَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَنْ أَفْضَلِيَّةَ الْإِنْتِصَارِ تَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ عَنِ السَّلَفِ:

«كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ، فَتَجَتَرَى عَلَيْهِمُ الْفُسَاقُ»^(٢).

وَخَصَّصَ الْعَفْوَ فِيمَا إِذَا كَانَ الْجَانِي نَادِمًا مُقْلَعًا.

وَاسْتَحْسَنَ الْقُرْطُبِيُّ هَذَا التَّفْصِيلَ وَأَقْرَهُ، وَحَمَلَ الْغُفْرَانَ عَلَى غَيْرِ الْمُصْرِ، وَقَالَ: «فَأَمَّا الْمُصْرُ عَلَى الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ فَالْأَفْضَلُ الْإِنْتِصَارُ مِنْهُ»^(٣).

وَهَا هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَنْتَصِرُ مِنْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا شَعَرَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقْرُهَا عَلَى هَذَا الْإِنْتِصَارِ.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِيَ فِي مِرْطِي^(٤)، فَأَذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلَنَنِي إِلَيْكَ، يَسْأَلُنَكَ الْعَدْلَ^(٥) فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ.

(١) «تفسير القرطبي» (٣٩/١٦).

(٢) رواه البخاري.

(٣) «تفسير القرطبي» (٣٩/١٦).

(٤) المرطد: واحد المروط، وهي أكسية من صوف أو خز - أي حرير - كان يؤتزر بها.

(٥) قال بعض العلماء: أي يطلبن منك العدل في المحبة القلبية، إذ كن يشعرن أن لها في قلبه منزلة

ليست لغيرها، وكن يرين هدايا الناس تأتي حين يكون في بيت عائشة.

وانا ساكئة، قالت: فقال لها رسول الله - ﷺ -: «أَيُّ بِنْيَةٍ أَلَسْتَ تُحِبِّينَ مَا أَحَبُّ؟». فقالت: «بَلَى». قال: «فَأَحِبِّي هَذِهِ». قالت: فقامت فاطمة حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَرَجَعَتْ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - ﷺ -، فَأَخْبَرْتَهُنَّ بِالَّذِي قَالَتْ، وبِالَّذِي قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَقُلْنَ لَهَا: «مَا نَرَاكَ أَغْنَيْتِ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ، فَارْجِعِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَمَقُولِي لَهُ: «إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنْشُدُنَّكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ». فقالت فاطمة: «والله، لا أَكَلِمُهُ أَبَدًا».

قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: فَارْسَلِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ - ﷺ - زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ زَوْجِ النَّبِيِّ - ﷺ -، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي ^(١) مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَلَمْ أَرَأِ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَاتَّقَى اللَّهُ، وَاصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِدَاءً لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ، وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى -، مَا عَدَا سُورَةَ مِنْ حِدَةٍ ^(٢) كَانَتْ فِيهَا، تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةُ ^(٣)، قَالَتْ: فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مَعَ عَائِشَةَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا وَهِيَ بِهَا، فَأَذِنَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلَنَنِي إِلَيْكَ، يَسْأَلُنَّكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ». قَالَتْ: ثُمَّ وَقَعْتُ بِي ^(٤)، فَاسْتَطَالَتْ عَلَيَّ، وَأَنَا أَرْقُبُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، وَأَرْقُبُ طَرْفَهُ ^(٥)، هَلْ يَأْذَنُ لِي فِيهَا.

(١) تُسَامِينِي: أَي تُعَادِلُنِي وَتُضَاهِينِي فِي الْخُطُورَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، مَاخُوذٌ مِنَ السُّمُوِّ، وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالْإِرْتِفَاعُ.

(٢) سُورَةٌ مِنْ حِدَةٍ: هِيَ شِدَّةُ الْخُلُقِ وَثَوْرَانِهِ.

(٣) الْفَيْئُ: الرَّجُوعُ مَصْدَرٌ فَأَاءَ يَفِيءُ. وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّهَا كَامِلَةٌ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّ فِيهَا شِدَّةَ خُلُقٍ، وَسُرْعَةَ غَضَبٍ، تُسْرِعُ مِنْهَا الرَّجُوعُ، أَي إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهَا رَجَعَتْ عَنْهُ سَرِيعًا، وَلَا تُصِرُّ عَلَيْهِ. وَفِي كَلَامِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَدَبُ النَّبُوَّةِ، فَمَعَ مَبَادِئَهَا بِالسَّبَابِ لَمْ تَتَجَاوَزْ حَدَّ الْعَدْلِ، وَلَمْ تَغْمِطْهَا حَقًّا.

(٤) وَقَعْتُ بِي: نَالَتْ مِنِّي.

(٥) الطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الْجَفْنِ، أَوْ تَحْرِيكُ الْعَيْنِ.

قَالَتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَا يَكْرَهُ أَنْ انْتَصِرَ. قَالَتْ: فَلَمَّا وَقَعَتْ بِهَا لَمْ أَنْشَبْهَا^(١) حِينَ^(٢) أَنْحَيْتُ عَلَيْهَا^(٣). قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَتَبَسَّمَ: «إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ»^(٤).

■ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ:

أَيُّ أَخِي فِي اللَّهِ، اعْلَمْ - عَلَّمَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ! - أَنْ بَعْضَ انْتِصَارِكَ مِنْ أَخِيكَ الْمَسِيءِ إِلَيْكَ قَدْ يَزِيدُ الشَّرَّ، فَقَدِّرِ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ بِقَدْرِهَا، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ انْتِصَارَكَ سَوْفَ يُجْعَلُهُ يَعُودُ إِلَى رُشْدِهِ، وَيَقْمَعُ شَرَّهُ، فَانْتَصِرْ مِنْهُ، وَإِلَّا فَعَلَيْكَ أَنْ تَسُدَّ أَبْوَابَ الشَّيْطَانِ.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسُبُّ أَبَا بَكْرٍ فَأَذَاهُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ أَذَاهُ الثَّانِيَةَ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ أَذَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - - حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «أَوْجَدْتَ عَلِيَّ^(٥)، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ»^(٦).

(١) لَمْ أَنْشَبْهَا: لَمْ أَمْهَلْهَا.

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخِ (حَتَّى) بَدَلَ (حِينَ)، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

(٣) أَنْحَيْتُ عَلَيْهَا: قَصَدْتُهَا وَاعْتَمَدْتُهَا بِالْمُعَارَضَةِ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٤٤٢).

(٥) وَجَدَ: وَجَدَ الشَّيْءَ: أَصَابَهُ. وَوَجَدَ الْمَالَ: اسْتَفْتَى بِهِ. وَوَجَدَ عَلَيْهِ: غَضِبَ. وَوَجَدَ لَهُ: حَزَنَ عَلَيْهِ.

وَوَجَدَ بِفُلَانٍ: أَحَبَّهُ حُبًّا قَرِيبًا.

(٦) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٩٦)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢/٦٧٥٨)، وَ«الصَّحِيحَةُ» (٢٣٧٦).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ . يَرْحَمُهُ اللَّهُ . فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ :

«إِنَّمَا وَقَعَ الشَّيْطَانُ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ؛ فَإِنَّ انْتِصَارَهُ يُغْيِي صَاحِبَهُ، سَيِّئًا وَقَدْ بَدَأَ الشَّرُّ مِنْهُ بِتَكَرُّرِ الْإِسَاءَةِ بِالتَّزْيِيدِ وَالتَّمَادِي، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَفَاقُمِ الْخَطْبِ»^(١) .

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ^(٢) أَخْلَاقُنَا . شَرَفًا . ◯ ◯ ◯ أَن نَبْتَدِي بِالْأَدَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِينَا

بِضُ صِنَائِعُنَا^(٣) ، سَوْدٌ وَقَائِعُنَا^(٤) ◯ ◯ ◯ خُضْرٌ مَرَابِعُنَا^(٥) ، حُمْرٌ مَوَاضِينَا^(٦)

■ فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْانْتِصَارِ:

قَالَ الْعَلَمَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ . يَرْحَمُهُ اللَّهُ .:

«وَإِنِّي بِهِذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَوْدُّ أَنْ أُنَبِّهَ عَلَى مَسْأَلَةٍ يَفْعَلُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِقَصْدِ الْإِحْسَانِ، وَهِيَ: أَنْ تَقَعَ حَادِثَةٌ مِنْ شَخْصٍ، فَيَهْلِكُ بِسَبَبِهَا شَخْصٌ آخَرٌ، فَيَأْتِي أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ، فَيُسْقِطُونَ الدِّيَةَ عَنِ هَذَا الْجَانِي الَّذِي فَعَلَ الْحَادِثَ، فَهَلْ إِسْقَاطُهُمُ لِلدِّيَةِ مَحْمُودٌ، وَتَعْتَبَرُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، أَمْ فِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ؟»

(١) «شرح سنن أبي داود معالم السنن» (٢٠٤/٥).

(٢) أَبَتْ: كَرِهَتْ وَرَفَضَتْ.

(٣) الصِّنَائِعُ: جَمْعُ صَنِيعَةٍ، وَهِيَ النِّعْمَةُ وَالْإِحْسَانُ.

(٤) الْوَقَائِعُ: جَمْعُ وَقِيعَةٍ، وَهِيَ الْمَعْرَكَةُ.

(٥) الْمَرَابِيعُ: جَمْعُ مَرَبِعٍ، وَهُوَ مَنَزِلُ الْقَوْمِ فِي الرَّبِيعِ خَاصَّةً.

(٦) الْمَوَاضِي: السُّيُوفُ الْقَاطِعَةُ.

في ذلك تفصيل: فلا بُدَّ أن نتأمل ونفكر في حالِ الجاني الذي وقع منه الحادث، هل هو من الناس المعروفين بالتهور، وعدم المبالاة؟، هل هو من الطراز^(١) الذي يقول: أنا لا أبالي أن أدهس شخصاً؛ لأنَّ ديتَه في الدرج^(٢) - والعياذُ بالله - ؟ .

أم أنه رجلٌ حصلت منه هذه الحادثة مع كمالِ التعقل، وكمالِ الاتزان، ولكنَّ الله قد جعل لكلِّ شيءٍ مقدراً؟ .

وإن كان من هذا الطراز الأخير، فالعفو في حقه أولى، ولكن - حتى وإن كان من هذا الطراز المتعقل المتزن - يجب قبل أن نعفو عنه أن ننظر هل على الميت دين؟، فإذا كان على الميت دين، فإنه لا يمكن أن نعفو، ولو عفونا فإن عفونا لا يُعتبر، وهذه مسألةٌ ربما يغفل عنها كثير من الناس، ونحن نقول ذلك؛ لأنَّ الورثة يتلقون الاستحقاق لهذه الدية من الميت الذي أُصيب بالحادث، ولا يردُّ استحقاقهم إلا بعد قضاء الدين، إن كان الميت مديناً، ولهذا لما ذكر الميراث قال: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (سورة النساء: ١١)^(٣) .

■ فائدة:

قد يكون الرجل مغلوباً على أمره^(٤)، فهذا عليه أن يتأسى بنوح - عليه السلام -، فحينما عجز عن قومه، توجه بالدعاء إلى ربه، قال الله - تعالى - حاكياً عنه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (سورة القمر: ١٠) .

(١) الطراز: النوع والنمط، والجمع أطرزة وطرز.

(٢) الدرج: الخزانة، جمعه درجة، وأدرج، ودروج.

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص ٢٨).

(٤) مغلوباً على أمره: أي غير قادرٍ على الانتصار ممن ظلمه.

فهذا - لعمري - أعظم الانتصار، فالرجل المغلوب على أمره ينصره الله، ألا ترى كيف استجاب الله دعاء نوح، فاتاه سؤله بأن انتصر له من قومه، قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُوسِرٍ (١) ﴾ (سورة القمر: ١١-١٣).

فَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ سِتْرٌ أَوْ تَأْخِيرٌ.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ - وَإِنْ كَانَ كَافِرًا» (٢) - ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ» (٣).

وعن خزيمه بن ثابت - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، يَقُولُ اللَّهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» (٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ» (٥) (٦).

(١) الدُّوسِرُ: الخِيوطُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا أَلْوَاحُ السَّفِينَةِ. وَقِيلَ: هِيَ الْمَسَامِيرُ، وَالْمُفْرَدُ دِسَارٌ بِالْفَتْحِ.
(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله -: «فليس كلُّ مَنْ مَتَّعَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ وَنَصَرَ - إِمَّا إِجَابَةَ لِدُعَاةِهِ، وَإِمَّا بَدُونَ ذَلِكَ - يَكُونُ مِمَّنْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُؤَالِيهِ، بَلْ هُوَ - سَبْحَانَهُ - يَرْزُقُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَالْبِرَّ وَالْفَاجِرَ، وَقَدْ يُجِيبُ دُعَاءَهُمْ، وَيُعْطِيهِمْ سُؤْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ». «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤١٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٥٣/٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٩/١)، و«الصحيح» (٧٦٧).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، و«الصحيح» (٨٦٨).

(٥) الشَّرَارَةُ - بِالْفَتْحِ - : وَاحِدَةُ الشَّرَارِ، وَهُوَ مَا يَتَطَايَرُ مِنَ النَّارِ.

(٦) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢٩/١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٨/١)، و«الصحيح» (٨٧١).

وَوَصَفَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَقَالَ:

وَسَارِيَةَ لَمْ تُسِرْ فِي الْأَرْضِ تَبْتَغِي ٥ ٥ مَحَلًّا، وَلَمْ يَقْطَعْ بِهَا الْبَيْدَ ^(١) قَاطِعُ
 سَرَتْ حَيْثُ لَمْ تُسِرِ الرُّكَّابَ ^(٢) وَلَمْ تُنَخَّ ^(٣) ٥ ٥ لَوْرِدٍ، وَلَمْ يَقْصُرْ لَهَا الْقَيْدَ مَانِعُ
 تَظَلُّ وَرَاءَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلُ سَاقِطٌ ٥ ٥ بِأَوْرَاقِهِ، فِيهِ سَمِيرٌ ^(٤) وَهَاجِعٌ ^(٥)
 تَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَوْفِدِهَا ٥ ٥ إِذَا قَرَعَ الْأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ
 إِذَا سَأَلْتَ لَمْ يَرُدُّ اللَّهُ سُؤْلَهَا ٥ ٥ عَلَى أَهْلِهَا، وَاللَّهُ رَأَى وَسَامِعٌ ^(٦)



(١) الببيد - بوزن البيض - : جمع بيداء، وهي الصحراء الفاحشة.

(٢) الركاب: الإبل التي يسار عليها، ولا واحد لها من لفظها.

(٣) أناخ الجمل: أبركه.

(٤) سمير: ساهر.

(٥) هاجع: نائم.

(٦) «العقد الفريد» (٣/٢٢٧).

الْإِنْصَافُ



الإنصافُ خَصْلَةٌ شَرِيفَةٌ، وَخَلَّةٌ كَرِيمَةٌ، يَدُلُّ عَلَى نَفْسٍ مَطْمَئِنَّةٍ، وَأَفْقٍ
وَاسِعٍ، وَنَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ بَعِيدٍ.

وَيُعْرَفُ بِأَنَّهُ: اسْتِيفَاءُ الْحُقُوقِ لِأَرْبَابِهَا، وَاسْتِخْرَاجُهَا بِالْأَيْدِي الْعَادِلَةِ،
وَالسِّيَاسَةِ الْفَاضِلَةِ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي إِنْصَافِ النَّاسِ:

«أَنْ تُؤَدِّيَ حُقُوقَهُمْ، وَأَلَّا تُطَالِبَهُمْ بِمَا لَيْسَ لَكَ، وَأَلَّا تُحْمَلَهُمْ فَوْقَ
وُسْعِهِمْ، وَأَنْ تُعَامِلَهُمْ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، وَأَنْ تَعْفُوهُمْ مِمَّا تُحِبُّ أَنْ يَعْفُوكَ
مِنْهُ، وَأَنْ تَحْكُمَ لَهُمْ - أَوْ عَلَيْهِمْ - بِمَا تَحْكُمُ بِهِ لِنَفْسِكَ أَوْ عَلَيْهَا»^(١).

وَالْإِنْصَافُ وَالْعَدْلُ تَوْءَمَانٌ، نَتِيجَتُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ، وَبِرَاءَةُ الذِّمَّةِ بِاِكْتِسَابِ
الْفَضَائِلِ، وَاجْتِنَابِ الرِّذَائِلِ^(٢).

وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِالْإِنْصَافِ، وَنَهَى أَنْ يَحْمِلَنَا بُغْضُنَا
لِلْكَفَّارِ عَلَى عَدَمِ الْإِنْصَافِ، فَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ
لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: ٨).

(١) «زاد المعاد» (٤٠٧/٢) بتصرف.

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ٦٤).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«فَنَهَى أَنْ يَحْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَضِهِمْ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْبُغْضُ لِفَاسِقٍ، أَوْ مُبْتَدِعٍ، أَوْ مُتَأَوِّلٍ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ؟!، فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ الْأَلَّا يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى الْأَعْدَاءِ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا لَهُ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ:

«أَيُّ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَغْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ؛ فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فِي كُلِّ أَحَدٍ، فِي كُلِّ حَالٍ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَامَلْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ»^(٢).

وَقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ (سورة المائدة: ٢).

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَالضَّرَّاءُ: «أَيُّ لَا يُكْسِبَنَّكُمْ بَغْضُ قَوْمٍ أَنْ تَعْتَدُوا»^(٣) الْحَقُّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَالْعَدْلُ إِلَى الظُّلْمِ»^(٤).

فَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَتَحَلَّى الْمَرْءُ بِالْإِنْصَافِ!، فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِلَّا الْحَقَّ.

(١) «الاستقامة» (٣٨/١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/٢).

(٣) تعتدوا: تجاوزوا.

(٤) «تفسير القرطبي» (٤٥/٦).

قال ابن القيم . يرحمه الله .:

وَتَعَرُّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسُهُمَا ۝ ۝ يَلْقَى الرَّدَى بِمَذْمُومَةٍ وَهُوَ (١)
 ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ فَوْقَهُ ۝ ۝ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ، يَنْسَتِ الثُّوبَانِ
 وَتَحَلُّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرُ حَلَّةٍ ۝ ۝ زِينَتُهَا الْأَعْطَافُ (٢) وَالْكَتِفَانِ (٣)

وَمَنْ أَنْصَافَ الْعِبَادِ أَنْصَافُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْمَعَامَلَاتِ، وَالْحُجَجِ وَالْمَقَالَاتِ،
 وَقَدْ عَابَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الَّذِينَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَأَوْعَدَهُمْ
 بِالْخَسَارِ وَالْهَلَاكِ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا
 عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (سورة المطففين: ١-٣).

قال العلامة ابن سعدي - يرحمه الله -:

«دَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا يَأْخُذُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لَهُ، يَجِبُ
 عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ كُلَّ مَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَعَامَلَاتِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ هَذَا
 الْحُجَجِ وَالْمَقَالَاتِ، فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ الْمُنَاطِرِينَ قَدْ جَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 يَحْرِصُ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الْحُجَجِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ - أَيْضًا - أَنْ يُبَيِّنَ مَا لِحَصْمِهِ مِنَ
 الْحُجَجِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي أدَلَّةِ حَصْمِهِ كَمَا يَنْظُرُ فِي أدَلَّتِهِ هُوَ، وَفِي
 هَذَا الْمَوْضِعِ يُعْرَفُ أَنْصَافُ الْإِنْسَانِ مِنْ تَعَصُّبِهِ وَاعْتِسَافِهِ (٤)، وَتَوَاضَعِهِ مِنْ كِبَرِهِ،
 وَعَقْلِهِ مِنْ سَفَهِهِ» (٥).

(١) الهوان: الخزي والعار.

(٢) الأعطاف: جمع عطف، وهو جانب الإنسان من لدن رأسه إلى وركه.

(٣) «نونية ابن القيم» (١/٥٢).

(٤) الاعتساف: أشد الظلم.

(٥) «تفسير ابن سعدي» (ص ٩١٥).

وَمِنَ الْإِنصَافِ - أَيْضًا - قَبُولُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ مَنْ قَالَهُ، كَائِنًا مَنْ كَانَ، حَتَّى مِنْ الْمُتَبَدِّعِ بَلٍ وَمِنَ الْكَافِرِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ رَدَّ قَوْلَهُ فَقَدْ رَدَّ الْحَقَّ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَلَكَةَ سَبِيٍّ فِي حَالِ كَوْنِهَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ هِيَ وَقَوْمُهَا، لَمَّا قَالَتْ كَلَامًا حَقًّا صَدَّقَهَا اللَّهُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ كُفْرُهَا مَانِعًا مِنْ تَصْدِيقِهَا فِي الْحَقِّ الَّذِي قَالَتْهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهَا فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهَا: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«أَيُّ أَهَانُوا شُرَفَاءَهَا؛ لِتَسْتَقِيمَ لَهُمُ الْأُمُورُ، فَصَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَهَا: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هُنَا وَقَفَّ تَامٌ، فَقَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تَحْقِيقًا لِقَوْلِهَا: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١).

وَعَنْ قَبِيلَةِ بِنْتِ صَيْفِيٍّ الْجُهَيْنِيَّةِ قَالَتْ: أَتَى حَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، نِعَمَ الْقَوْمِ أَنْتُمْ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَشْرِكُونَ!». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا ذَلِكَ؟». قَالَ: «تَقُولُونَ - إِذَا حَلَفْتُمْ -: وَالْكَعْبَةَ!». قَالَتْ: فَامْهَلْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ قَالَ، فَمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ». قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، نِعَمَ الْقَوْمِ أَنْتُمْ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ نِدَاءً»^(٢). قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا ذَلِكَ؟».

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١٧٤).

(٢) الندُّ - بالعسر -: المثلُّ والنظيرُ، والجمعُ أندادٌ.

قال: «تقولون: ما شاء الله وشئت». قالت: فامهل رسول الله - ﷺ - شيئاً، ثم قال: «إنه قد قال، فمن قال: ما شاء الله، فليفصل بينهما ثم شئت»^(١).

وما أجمل قول الشاعر:

لا تحقِرَنَّ الرَّأْيَ وهو موافقٌ حُكْمُ الصُّوَابِ؛ إذا أتى من ناقصٍ
فالدُّرُّ - وهو أعزُّ شيءٍ يُقْتَنَى - ما حطَّ قيمته هوان الغائصِ

وجاء في قصة أبي هريرة مع الشيطان الذي أراد أن يسرق من طعام الزكاة، فأمسكه ثم أطلقه، ثم قال له في الثالثة: «لأرفعنك إلى رسول الله - ﷺ -، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود». قال: «دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها». قلت: «ما هن؟». قال: «إذا أويت إلى فراشك، فاقرا آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥). حتى تختم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح». قال أبو هريرة: فخليت سبيله، فأصبحت؛ فقال لي رسول الله - ﷺ -: «ما فعل أسيرك البارحة»^(٢). قلت: «يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله». قال: «ما هي؟». قلت: «قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرا آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح». وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب. تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليل، يا أبا هريرة؟». قال: «لا». قال: «ذاك شيطان»^(٣).

(١) رواه أحمد (٣٧١-٣٧٢)، والحاكم (٤/٢٩٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٦٢١٤)، و«الصحيح» (١٣٦).

(٢) البارحة: الليلة الماضية.

(٣) رواه البخاري (٢٣١١) و (٣٢٧٥) و (٥٠١٠).

وفي هذا الباب يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - :

«والله أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الرافضي - قولاً فيه حق - أن نتركه، أو نردّه كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق»^(١).

وما اجمل ما قاله الشاعر عبده محمد العماد - حفظه الله - :

أنصف وإن كنت ذا جاهٍ ومرتبَةٍ ٥ وعد إلى الحق مهماً كنت مقتديراً
فمن تكبر في حق أهين به ٥ ومن تواضع في حق فقد كبراً

وقال الآخر:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ٥ بين الرجال، وإن كانوا ذوي رحيم



(١) «منهج السنة النبوية» (٢/٣٤٢).

المُدَارَاةُ



المُدَارَاةُ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ الْعَقْلِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَتَانَةِ الدِّينِ، بِهَا يَنَالُ الْمَرْءُ سَبِيلَ الرِّاحَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْأَجْرَ وَالثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ لِاتِّقَاءِ شَرِّ الْأَشْرَارِ، وَدَوَامِ مُعَاشَرَةِ الْأَخْيَارِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُدَارَاةِ وَالْمُدَاهَنَةِ: أَنَّ الْمُدَارَاةَ بَدَلُ الدُّنْيَا لِصَلَاحِ الدُّنْيَا، أَوْ الدِّينِ، أَوْ هُمَا مَعًا، وَهِيَ مُبَاحَةٌ، وَرَبِّمَا اسْتَحَبَّتْ. وَالْمُدَاهَنَةُ تَرْكُ الدِّينِ لِصَلَاحِ الدُّنْيَا، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ.

فَالْمُدَارَاةُ - إِذَا - إِنَّمَا تَكُونُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَقَطْ.

وَتَعْرِفُ الْمُدَارَاةَ بِأَنَّهَا: الْمَلَايَنَةُ وَالْمُلَاطَفَةُ، وَأَصْلُهَا الْمُخَاتَلَةُ، وَمِنْهُ الدَّرَايَةُ، وَهُوَ الْعِلْمُ مَعَ تَكَلُّفٍ وَحِيلَةٍ^(١).

وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«الْمُدَارَاةُ: خَفْضُ الْجَنَاحِ لِلنَّاسِ، وَلِسِنُ الْكَلَامِ، وَتَرْكُ الْإِغْلَاطِ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ، وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ»^(٢).

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«الْمُدَارَاةُ: الدَّفْعُ بِرِفْقٍ»^(٣).

(١) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ٣٠١).

(٢) «فتح الباري» (١٠/٥٤٥).

(٣) المرجع السابق (١٠/٥٢٨).

والمُدَارَاةُ لَابْدُ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ لَهُمْ طَبَائِعٌ مُخْتَلِفَةٌ، هِيَ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِبَصْمَةِ الْيَدِ.

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«الوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُدَارِيَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجُلِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ الْجَارِي، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى عَشْرَةِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، كَدَّرَ عَلَى نَفْسِهِ عَيْشَهُ، وَلَمْ تَصْفُ لَهُ مَوَدَّتُهُ؛ لِأَنَّ وِدَادَ النَّاسِ لَا يُسْتَجَلَبُ إِلَّا بِمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَائِئِمًّا، فَإِذَا كَانَتْ حَالُهُ مَعْصِيَةً فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ، وَالْبَشْرُ قَدْ رُكِبَ فِيهِمْ أَهْوَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَطَبَائِعٌ مُتَبَايِنَةٌ، فَكَمَا يَشُقُّ عَلَيْكَ تَرْكُ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ يَشُقُّ عَلَى غَيْرِكَ مُجَانَبَةُ مِثْلِهِ، فَلَيْسَ إِلَى صَفْوِ وِدَادِهِمْ سَبِيلٌ إِلَّا بِمُعَاشَرَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ، وَالْإِغْضَاءُ^(١) عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، إِذْ أَنْ مَنْ لَمْ يُعَاشِرِ النَّاسَ عَلَى لُزُومِ الْإِغْضَاءِ عَمَّا يَأْتُونَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَتَرَكَ التَّوَقُّعَ لِمَا يَأْتُونَ مِنَ الْمَحْبُوبِ - كَانَ إِلَى تَكْدِيرِ عَيْشِهِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى صِفَائِهِ، وَإِلَى أَنْ يَدْفَعَهُ الْوَقْتُ إِلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبِغْضَاءِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى أَنْ يِنَالَ مِنْهُمْ الْوِدَادَ وَتَرَكَ الشَّحْنَاءَ، وَمَنْ لَمْ يُدَارِ صَدِيقَ السُّوءِ، كَمَا يُدَارِي صَدِيقَ الصُّدُقِ - لَيْسَ بِحَازِمٍ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:

تَجَنَّبْ صَدِيقَ السُّوءِ، وَاصْرَمْ^(٢) حِبَالَهُ □ □ □ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا^(٣) فَدَارِهِ

وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصُّدُقِ، وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ □ □ □ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَلِمًا رَأَى مِنْ أَحَدٍ زَلَّةً فَرَفَضَهُ لِزَلَّتْهُ، بَقِيَ وَحِيدًا لَا يَجِدُ

(١) الْإِغْضَاءُ: التَّنَافُلُ.

(٢) اصْرَمَ: اقْطَعُ.

(٣) مَحِيصًا: مَفْرَأً.

مَنْ يُعَاشِرُهُ، وَفَرِيدًا لَا يَجِدُ مَنْ يُخَادِنُ، بَلْ يُغْضِي عَلَى الْأَخِ الصَّادِقِ زَلَاتَهُ،
وَلَا يُنَاقِشُ الصَّدِيقَ السَّيِّئَ عَلَى عَثْرَاتِهِ، وَقَدْ قَالَ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكُرَيْزِيُّ:

أَغْمَضُ عَيْنِي عَنْ صَدِيقِي كَأَنِّي ◦ ◦ ◦ لَدَيْهِ بِمَا يَأْتِي مِنَ الْقُبْحِ جَاهِلُ
وَمَا بِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنْ خَلِيقَتِي ◦ ◦ ◦ تُطِيقُ احْتِمَالَ الْكُرْهِ فِيمَا أُحَاوِلُ
مَتَى مَا يَرِينِي ^(١) مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ ◦ ◦ ◦ بَقِيْتُ وَمَا لِي فِي نُهُوضِي مَفَاصِلُ
وَلَكِنْ أَدَارِيهِ، وَإِنْ صَحَّ شَدْنِي ◦ ◦ ◦ فَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلٌ ^{(٢)(٣)}

وَلِلَّهِ دَرٌّ بِشَارٍ بِنِ بَرْدٍ حِينَ قَالَ:

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا ◦ ◦ ◦ صَدِيقَكَ، لَمْ تَلُقْ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ◦ ◦ ◦ ظَمِنْتَ، وَآيُ النَّاسِ تَصْنَفُو مَشَارِيهَهُ ١٩
فَعِشْ وَاحِدًا، أَوْ صِلْ أَخَاكَ، فَإِنَّهُ ◦ ◦ ◦ مُقَارِفُ ذَنْبٍ ^(٤) مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ ^(٥)

فَالزَّمْ - أَخِي فِي اللَّهِ - غِرْزَ الْمُدَارَاةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: اسْتَأذَنَ عَلِيُّ النَّبِيُّ - ﷺ - رَجُلٌ، فَقَالَ: «أُذِنُوا لَهُ،
فَبَيْسَ ابْنِ الْعَشِيرَةِ» ^(٦) - أَوْ بَيْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ - . فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ:
«يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ ١٩». فَقَالَ: «أَيُّ عَائِشَةَ، إِنْ شَرَّ النَّاسُ
مَنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَعَهُ - النَّاسُ اتَّقَاءَ فُحْشِهِ» ^(٧).

(١) رَابَهُ الشَّيْءُ: رَأَى مِنْهُ مَا يَرِيهِ وَيَكْرَهُهُ.

(٢) التَّحَامُلُ: التَّكْلِيفُ بِمَا لَا يُطَاقُ.

(٣) «رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ» (ص ٧٢-٧٣) بِتَصْرُفٍ.

(٤) مُقَارِفُ: ذَنْبٌ: مُرْتَكِبُهُ.

(٥) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» (ص ١٧٨).

(٦) الْعَشِيرَةُ: الْقَبِيلَةُ، أَيِ بَيْسَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْهَا.

(٧) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٣٢) وَ (٦٠٥٤) وَ (٦١٣١)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٩١).

قَالَ ابْنُ بَطَالٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«المدارة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، فإن قال بعضهم: إنَّ المدارة هي المداهنة، وهذا غلط؛ لأنَّ المدارة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق بينهما أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر الشيء، ويستر باطنه، وقد فسرها (يعني المدارة) العلماء بأنها: معاشرة الفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تأليفه»^(١).

وقال الخطابي - يرحمه الله -:

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ ■■■ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَةِ
مَنْ يَدْرُدَارِي، وَمَنْ لَمْ يَدْرَسَوْفَ يَرَى ■■■ عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيمًا لِلنَّدَامَاتِ^(٢)
وعلى هذا الخلق العظيم سار سلفنا الصالح، فكانوا يدارون ما لا بد لهم من معاشرته، أو احتاجوا إلى تأليفه.

قال معاوية - رضي الله عنه -: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت». قيل: «وكيف؟!». قال: «لأنهم إن مدوها خليتها، وإن خلوا مددتها»^(٣).

وقال عبده محمد العماد:

تَدَارُوا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا سَاءَ حَالِكُمْ ■■■ وَشَاعَتْ خُصُومَاتُ أَتَتْ بِإِصَابِ
سَتَنْقَطِعُ الْأَسْبَابُ^(٤) - لَا شَكَّ حِينَهَا - ■■■ إِذَا شُدَّتِ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٤٥).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/١٠٠).

(٣) «روضة العقلاء» (ص ٧٢).

(٤) الأسباب: جمع سبب، وهو الخبل.

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِأُمِّ الدَّرْدَاءِ - رَضِيَتْ عَنْهَا - : «إِذَا غَضِبْتَ فَرَضِينِي، وَإِذَا غَضِبْتَ رَضِيْتُكَ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا، مَا أَسْرَعَ مَا نَفْتَرُقُ!»^(١).

وَقَالَ عَبْدُهُ مُحَمَّدُ الْعَمَادُ:

وَدَارِ أَخَاكَ بِالْحُسْنَى تَجِدُهُ ◻ ◻ ◻ يُحِبُّكَ دُونَ كُلِّ الْعَادِلِينَ
وَيَسْمَعُ مِنْكَ، إِنْ أَلْقَيْتَ نَصْحًا ◻ ◻ ◻ وَقَدْ أَعْيَا سِوَاكَ النَّاصِحِينَ

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَكَانُوا يَقُولُونَ: الْمُدَارَاةُ نِصْفُ الْعَقْلِ، وَأَنَا أَقُولُ: هِيَ الْعَقْلُ كُلُّهُ»^(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى^(٣) دَارَ غُرْبَةٍ ◻ ◻ ◻ إِذَا شِئْتُ لَأَقِيْتُ أَمْرًا لَا أَشَاكِلُهُ^(٤)
فَحَامَقْتُهُ^(٥) حَتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ^(٦) ◻ ◻ ◻ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ^{(٧) (٨)}

وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ:

خَلِيلِي، إِنْ الْعُسْرَ سَوْفَ يُضِيقُ ◻ ◻ ◻ وَإِنْ يَسَّارًا فِي غَدٍ لَخَلِيقُ
وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا ◻ ◻ ◻ صَحَوْتُ، وَإِنْ مَاقٍ^(٩) الزَّمَانُ أَمُوقٌ^(١٠)

(١) «روضة العقلاء» (ص ٧٢).

(٢) النوى: أراد به البعد عن العقلاء وأهل الدين إلى أهل الهزل والمجانة تصنعاً.

(٣) أشاكله: أشابهه وأماثله.

(٤) فحامقته: جاريته في حمقه.

(٥) السجية: الخلق والطبيعة، والجمع سجايا.

(٦) أعاقله: أجاربه في عقله.

(٧) الموق: الحمق في غباوة.

(٨) «عيون الأخبار» (٣ / ٣٠).

(٩) «عيون الأخبار» (٣ / ٣٠).

الصَّدْقُ



الصَّدْقُ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَسَجِيَّةٌ مَدْحُوحَةٌ، وَالصَّدْقُ: هُوَ أَنْ يَخْبَرَ الْإِنْسَانُ عَمَّا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، بِلَا وَكْثٍ^(١)، وَلَا شَطَطٍ^(٢)، وَلَيْسَ الْإِجْبَارُ - أَيْضًا - مَقْصُورًا عَلَى الْقَوْلِ فَحَسَبَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ: كَالِإِشَارَةِ بِالْيَدِ، أَوْ هَزِّ الرَّأْسِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالسُّكُوتِ.

وَالصَّادِقُ مَعَ اللَّهِ وَمَعَ النَّاسِ ظَاهِرُهُ كِبَاطِنُهُ؛ لِذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ الْمُنَافِقَ فِي الصُّورَةِ الْمَقَابِلَةِ لِلصَّادِقِ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٤).

وَالصَّدْقُ طَرِيقٌ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ طَرِيقٌ إِلَى النَّارِ.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الضُّجُورِ، وَإِنَّ الضُّجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(٣).

وَالصَّدْقُ طُمَآنِينَةٌ، وَصَاحِبُهُ كَرِيمٌ عَزِيزٌ، وَالْكَذِبُ رِيْبَةٌ، وَصَاحِبُهُ مَهِينٌ ذَلِيلٌ.

(١) الْوَكْثُ: النَّقْصُ، وَبَابُهُ وَعَدَّ.

(٢) الشَّطَطُ - بَفَتْحَتَيْنِ - : مُجَاوِزَةُ الْقَدْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٩٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٠٧).

عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «دَعُ مَا يَرِيْبُكَ»^(١) إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصَّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبُ رِيْبَةٌ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا قُلْتُ قَوْلًا كُنْتُ لِلْقَوْلِ فَاعِلًا وَكَانَ حَيَاتِي كَافِلِي وَضَمِينِي
تُبَشِّرُ عَنِّي بِالْوَفَاءِ بِشَاشَتِي وَيَنْطِقُ نُورُ الصَّدْقِ فَوْقَ جَبِينِي

وَالصَّدْقُ - أَيْضًا - سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْبَرَكَةِ فِي الْأَرْزَاقِ.

عَنْ أَبِي خَالِدٍ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(٣) ^(٤).

وَالصَّدْقُ مِنْ أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَتَفَرَّعُ عَنْهَا غَيْرُهَا.

قَالَ الْحَارِثُ الْمَحَاسِبِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«وَأَعْلَمَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ الصَّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ أَصْلُ كُلِّ حَالٍ، فَمِنَ الصَّدْقِ
يَتَشَعَّبُ الصَّبْرُ، وَالْقَنَاعَةُ، وَالزُّهْدُ، وَالرِّضَى، وَالْأَنْسُ.

وَعَنِ الْإِخْلَاصِ يَتَشَعَّبُ الْيَقِينُ، وَالْخَوْفُ، وَالْمَحَبَّةُ، وَالْإِجْلَالُ، وَالْحَيَاءُ، وَالتَّعْظِيمُ.

(١) مَا يَرِيْبُكَ: مَا تَشَكُّ فِي حِلِّهِ.

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٨)، وَرَوَى النَّسَائِيُّ شَطْرَهُ الْأَوَّلَ (٥٧١٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٣٧٨/١).

(٣) مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا: ذَهَبَتِ الْبَرَكَةُ، وَلَمْ يَخْصُلَا إِلَّا عَلَى التَّعَبِ.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٠٧٩) وَ (٢٠٨٢) وَ (٢١٠٩) وَ (٢٠١٠) وَ (٢١١٤)، وَمُسْلِمٌ (١٥٣٢).

فَالصِّدْقُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ: صِدْقُ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ تَحْقِيقًا، وَصِدْقُ
النِّيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ، وَصِدْقُ اللَّفْظِ فِي الْكَلَامِ»^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ صِدْقٌ وَكَذِبٌ ۝ ۝ وَوَلَدَى الْقَلْبِ سِرُّهُ الْمَكْنُونُ^(٢)

فَعَلَى الصِّدْقِ فِي الْعُيُونِ دَلِيلٌ ۝ ۝ وَعَلَى الْوَجْهِ شَاهِدٌ لَا يَمِينُ^(٣)

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«إِنَّ اللَّهَ - جَلٌّ وَعَلَا - فَضَّلَ اللِّسَانَ عَلَى سَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ، وَأَبَانَ
فَضِيلَتَهُ بِأَنْ أَنْطَقَهُ - مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ - بِتَوْحِيدِهِ، فَلَا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعُودَ
أَلَّهُ خَلَقَهَا اللَّهُ لِلنُّطْقِ بِتَوْحِيدِهِ بِالْكَذِبِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْمَدَاوِمَةُ بِرِعَايَتِهِ بِلُزُومِ
الصِّدْقِ، وَمَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ فِي دَارِيهِ؛ لِأَنَّ اللِّسَانَ يَقْتَضِي مَا عُوِّدَ: إِنْ صِدْقًا
فَصِدْقًا، وَإِنْ كَذِبًا فَكَذِبًا»^(٤).

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

عُوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحْظَبْ بِهِ ۝ ۝ إِنْ اللِّسَانَ لَمَّا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

مُوكَلٌّ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ ۝ ۝ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَانظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ^(٥)

(١) «هداية المسترشدين» (ص ١٧٠).

(٢) المكنون: المستور.

(٣) يمين: يكذب، يقال: مَانَ الرَّجُلُ مِينًا فَهُوَ مَائِنٌ وَمِيونٌ.

(٤) «روضة العقلاء» (ص ٥١).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٣).

وَقَالَ آخِرُ:

عَلَيْكَ بِالصُّدُقِ، وَلَوْ أَنَّهُ ۝ ۝ ۝ أَحْرَقَكَ الصُّدُقُ بِنَارِ الوَعِيدِ
وَأَبْغَرَضَى اللهُ، فَأَبْغَى^(١) الوَرَى^(٢) ۝ ۝ ۝ مَنْ أَسْخَطَ المَوْتَى، وَأَرْضَى العَبِيدَ^(٣)

وَقَالَ آخِرُ:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَرِيمٍ كَانَ ذَا شَرْفٍ ۝ ۝ ۝ قَدْ شَانَهُ الكَذِبُ وَسَطَّ الحَيُّ إِنْ عَمَدَا
وَأَخْرَكَ كَانَ صُعْلُوكًا^(٤)، فَشَرَّفَهُ ۝ ۝ ۝ صِدْقُ الحَدِيثِ، وَقَوْلُ جَانِبِ الفَنَدَا^(٥)
فَصَارَ هَذَا شَرِيفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ ۝ ۝ ۝ وَصَارَ هَذَا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدًا^(٦)



(١) أَبْغَى: أَظْلَمُ.

(٢) الوَرَى: الخلق والناس.

(٣) «جواهر الأدب» (ص ٢٤٣).

(٤) صُعْلُوكًا: فقيرًا، جمعه صَعَالِيك.

(٥) الفَنَدُ - بفتح الحين - الكَذِبُ.

(٦) «روضة العقلاء» (ص ٥٥).

حُسْنُ الظَّنِّ بِمَنْ ظَاهِرُهُ الْخَيْرُ وَعَدَمُ التَّجَسُّسِ عَلَيْهِ



الرَّجُلُ صَاحِبُ الْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ لَا يَظُنُّ بِإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا خَيْرًا، فَهُوَ يَمْتَثِلُ لِأَمْرِ اللَّهِ الْقَائِلِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ -تعالى-: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: هُوَ أَنْ تَظُنَّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ سُوءًا، فَأَمَّا أَهْلُ السُّوءِ وَالْفُسُوقِ فَلَنَا أَنْ نَظُنَّ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي ظَهَرَ لَنَا.

■ حُكْمُ سُوءِ الظَّنِّ:

عَدَّ الْإِمَامُ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْثِمِيُّ سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ مِنَ الْكِبَائِرِ الْبَاطِنَةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا (الكبيرة الحادية والثلاثون)، وَقَالَ:

«وَهَذِهِ الْكِبَائِرُ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا؛ لِيُعَالِجَ زَوَالَهَا؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ مِنْهَا لَمْ يَلْقَ اللَّهَ - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وَهَذِهِ الْكِبَائِرُ يُذَمُّ الْعَبْدُ عَلَيْهَا أَعْظَمَ مِمَّا يُذَمُّ عَلَى الزُّنَى، وَالسَّرِقَةِ، وَسُوءِ أَثَرِهَا وَدَوَامِهَا، إِذْ أَنَّ أَثَارَ هَذِهِ رَاسِخَةٌ فِي الْقَلْبِ، بِخِلَافِ أَثَارِ مَعَاصِي الْجَوَارِحِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ، تَزُولُ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ». وَنَقَلَ عَنِ ابْنِ النَّجَّارِ قَوْلَهُ: «مَنْ أَسَاءَ بِأَخِيهِ الظَّنَّ، فَقَدْ أَسَاءَ بِرَبِّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾»^(١).

■ أَقْسَامُ سُوءِ الظَّنِّ:

قَسَمَ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْثِمِيُّ - بِرَحْمَةِ اللَّهِ - سُوءَ الظَّنِّ إِلَى قَسْمَيْنِ، كِلَاهُمَا مِنَ الْكِبَائِرِ:

١. سوء الظن بالله:

قال: «وهذا أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط (وكلاهما كبيرة)؛ وذلك لأنه يأس وقنوط وزيادة لتجويزه على الله - سبحانه وتعالى - بما لا يليق بكرمه وجوده».

٢. سوء الظن بالمسلمين:

قال: «وهو - أيضاً - من الكبائر؛ وذلك أن من حكم بشر على غيره بمجرد الظن، حمّله الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه، وإطالة اللسان في عرضه، وكل هذه مهلكات، وكل من رأته سيئ الظن بالناس، طالباً لإظهار معائبهم - فاعلم أن ذلك لخبث باطنه، وسوء طويته، فإن المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه»^(١).

ولقد حذرنا نبينا - ﷺ - من الظن السيئ بمن ظاهره الخير من المسلمين، وبين لنا أن الظن أكذب الحديث.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث؛ ولا تجسسوا»^(٢)، ولا تحسسوا»^(٣)،^(٤).

(١) «الزواجر» (ص ١١٤).

(٢) التجسس المنهي عنه: هو البحث عن عيوب الناس، والاطلاع على عوراتهم، وهذا هو الذي نهى الله عنه، وحذر منه رسول الله - ﷺ - كما في حديث أبي هريرة هذا، وكما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: «من استمع إلى حديث قوم - وهم له كارهون، أو يفرعون منه - صب في أذنيه الآنك» - أي الرصاص المذاب - يوم القيامة. رواه البخاري (٧٠٤٢). وسنتي من التجسس التجسس على أهل الفساد والريب لمنع فسادهم، وكذلك الأعداء لقطع دابرهم، وكف شرهم. ومثله سوء الظن بمن بينك وبينه عداوة أو شحنة، ولا سيما بمكائده ومكره فقط؛ لئلا يمكر بك، ويصادفك على غرة - أي غفلة - منك.

(٣) الفرق بين التجسس والتجسس: أن التجسس يكون فيما يطلبه الإنسان لنفسه من عيوب المسلمين وعوراتهم، والتجسس أن يكون رسولا لغيره.

(٤) رواه البخاري (٥١٤٣) و (٦٠٦٣) و (٦٠٦٦) و (٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

قال الحافظ - يرحمه الله -:

«قال الخطابي - رحمه الله -: وهو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس؛ فإن ذلك لا يملك.»

ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه، ويستقر في قلبه، دون ما يعرض في القلب ولا يستقر؛ فإن هذا لا يكلف به كما سبق في حديث: «تجاوز الله - تعالى - عما تحدثت به الأمة، ما لم تتكلم أو تعمل،»^(١) وسبق تأويله على الخواطر التي لا تستقر، قاله النووي^(٢).

وقال القرطبي - يرحمه الله -:

«المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها: كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيه؛ ولذلك عطف عليه بقوله: ﴿ولا تجسسوا﴾. وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة، فيريد أن يتحقق، فيتجسس ويبحث ويستمع، فنهى عن ذلك، وهذا الحديث يوافق قوله - تعالى -: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان: أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿ولا تجسسوا﴾، فإن قال: تحققت من غير تجسس. قيل له: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾^(٣).

(١) رواه البخاري (٢٥٢٨) و (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٠١/١٦).

(٣) «فتح الباري» (٤٩٦/١٠).

تَجَنُّبُ الْغَضَبِ



الغَضَبُ: نَقِيضُ الرِّضَى، وَهُوَ تَغْيِيرٌ يَحْصُلُ عِنْدَ فَوْرَانِ دَمِ الْقَلْبِ، لِيَحْصَلَ عَنْهُ التَّشَقُّي فِي الصَّدْرِ^(١).

وَأَسْبَابُ الْغَضَبِ: الزَّهْوُ^(٢)، وَالْعُجْبُ، وَالْمَزْحُ، وَالْمُمَارَاةُ^(٣)، وَالْمُضَادَّةُ، وَالغَدْرُ، وَشِدَّةُ الْحِرْصِ عَلَى فُضُولِ^(٤) الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَهَذِهِ أَخْلَاقٌ رَدِيئَةٌ، مَذْمُومَةٌ شَرَعًا^(٥).

وَالْغَضَبُ مَدْخَلٌ عَظِيمٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ الْكُبْرَى؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَلْعَبُ بِالْغَضْبَانِ كَمَا يَلْعَبُ بِالْكُرَةِ الصَّبِيَانِ، وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ الْمَشَاهِدَةُ بِالْعِيَانِ.

قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«يَتَّصَعِدُ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ - مِنْ غَلْيَانِ دَمِ الْقَلْبِ - دُخَانٌ مُظْلِمٌ إِلَى الدِّمَاغِ، يَسْتَوْلِي عَلَى مَعَادِنِ الْفِكْرِ، وَرَبَّمَا يَتَّعَدِّي إِلَى مَعَادِنِ الْحِسِّ، فَتُظْلِمُ عَيْنُهُ حَتَّى لَا يَرَى بَعَيْنِهِ، وَتَسْوَدُّ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهِا، وَيَكُونُ دِمَاغُهُ عَلَى مِثَالِ كَهْفٍ اضْطَرَمَّتْ فِيهِ نَارٌ، فَاسْوَدَّ جَوْهُ، وَحَمِيَ مُسْتَقَرُّهُ، وَامْتَلَأَتْ بِالْدُّخَانِ جَوَانِبُهُ، وَرَبَّمَا تَقَوَّى نَارُ الْغَضَبِ، فَتَفْنَى الرُّطُوبَةُ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ، فَيَمُوتُ صَاحِبُهُ غِيْظًا.

(١) «التعريفات» (ص ١٧٨).

(٢) الزَّهْوُ: الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ.

(٣) الْمُمَارَاةُ: الْمَجَادَلَةُ.

(٤) فُضُولٌ: جَمْعُ فَضْلٍ، وَهُوَ مَا زَادَ عَنِ الْحَاجَةِ.

(٥) انظر «منهاج القاصدين» (ص ١٨٠).

وَمِنْ آثَارِ هَذَا الْغَضَبِ فِي الظَّاهِرِ تَغْيِيرُ اللَّوْنِ، وَشِدَّةُ الرَّعْدَةِ فِي الْأَطْرَافِ،
وَخُرُوجُ الْأَفْعَالِ عَنِ التَّرْتِيبِ وَالنُّظَامِ، وَأَضْطِرَابُ الْحَرَكَةِ وَالْكَلامِ، حَتَّى يَظْهَرَ
الزَّيْدُ^(١) عَلَى الْأَشْدَاقِ^(٢)، وَتَحْمَرُّ الْأَحْدَاقِ، وَتَقْلِبُ الْمَنَاخِرَ^(٣)، وَتَسْتَحِيلُ
الْخَلْقَةَ، وَلَوْ رَأَى الْغَضِبَانُ فِي حَالَةِ غَضَبِهِ قُبْحَ صُورَتِهِ، لَسَكَنَ غَضَبُهُ حَيَاءً مِنْ
قُبْحِ صُورَتِهِ، وَاسْتَحَالَةَ خَلْقَتِهِ، وَقُبْحُ بَاطِنِهِ أَعْظَمُ مِنْ قُبْحِ ظَاهِرِهِ؛ فَإِنَّ الظَّاهِرَ
عُنْوَانُ الْبَاطِنِ، فَهَذَا أَثَرُهُ فِي الْجَسَدِ.

وَأَمَّا أَثَرُهُ فِي اللِّسَانِ فَانْطِلَاقُهُ بِالشَّتْمِ وَالْفُحْشِ مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي يَسْتَحْيِي مِنْهُ
ذُو الْعَقْلِ، وَيَسْتَحْيِي مِنْهُ قَائِلُهُ عِنْدَ قُتُورِ الْغَضَبِ، وَذَلِكَ مَعَ تَخْبُطِ النَّظْمِ،
وَاضْطِرَابِ اللَّفْظِ.

وَأَمَّا أَثَرُهُ عَلَى الْأَعْضَاءِ فَالضَّرْبُ، وَالتَّهْجُمُ، وَالتَّمْزِيقُ، وَالْقَتْلُ، وَالْجَرْحُ
عِنْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ غَيْرِ مَبَالَاةٍ، فَإِنَّ هَرَبَ مَنْهُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، أَوْ قَاتَهُ بِسَبَبٍ وَعَجَزَ
عَنِ التَّشْفِيِّ - رَجَعَ الْغَضَبُ عَلَى صَاحِبِهِ، فَمَزَّقَ ثَوْبَ نَفْسِهِ، وَيَلْطَمُ نَفْسَهُ، وَقَدْ
يَضْرِبُ يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَرَبَّمَا يَضْرِبُ الْجَمَادَاتِ، وَيَتَعَاطَى أَفْعَالَ الْمَجَانِينِ.

أَمَّا أَثَرُهُ فِي الْقَلْبِ مَعَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ فَالْحِقْدُ، وَالْحَسَدُ، وَإِضْمَارُ السُّوءِ،
وَالشَّمَاتَةُ بِالمَسَاتِ، وَالْحُزْنُ بِالسُّرُورِ، وَالْعَزْمُ عَلَى إِفْشَاءِ السُّرِّ، وَهَتِكِ السُّتْرِ،
وَالاسْتِهْزَاءُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْقَبَائِحِ^(٤) اهـ ملخصاً.

(١) الزَّيْدُ: الرَّغْوَةُ.

(٢) الْأَشْدَاقُ: جَمْعُ شِدْقٍ، وَهُوَ زَاوِيَةُ الْفَمِ تَمَّا تَحْتَ الْحَدِّ.

(٣) الْمَنَاخِرُ: جَمْعُ مَنْخِرٍ - بَفَتْحِ الْمِيمِ وَقَدْ تَكْسَرُ إِتْبَاعًا لِكَسْرَةِ الْخَاءِ - وَهُوَ ثَقْبُ الْأَنْفِ.

(٤) «الإحياء» (٣/١٦٤).

وَكَلَّمَا فَتَرَ غَضَبُ الْإِنْسَانِ وَسَكَنَ، أَثَارَهُ الشَّيْطَانُ بِمَثَلِ قَوْلِهِ: هُوَ مُسْتَهْزِئٌ بِكَ، لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَقِمَ مِنْهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُثِيرُ الْغَضَبَ، وَيُوجِّعُ نَارَهُ، وَمِنْ هُنَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْأَرِيبِ^(١) الْحَازِمُ أَنْ يَغْلِبَ شَيْطَانَهُ، وَيَكْظِمَ غَيْظَهُ، وَيَلْتَمِسَ الْعُذْرَ لِأَخِيهِ.

عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرَّ على قوم يصطرعون، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: «فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه!». قال: «أفلا أدلكم على من هو أشدُّ منه؟ رجلٌ كلمه رجلٌ، فكظم غيظه، فغلبه وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه»^(٢).

وَالْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - : «أَوْصِنِي». قَالَ: «لَا تَغْضَبُ». فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ»^(٣).

زَادَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ: قَالَ الرَّجُلُ: «فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - مَا قَالَ، فَاذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»^(٤).

وَالْغَضَبُ - إِذَا كَانَ بِغَيْرِ حَقٍّ - مِنْ أَخْلَاقِ النَّاقِصِينَ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ضَبْطِ أَعْصَابِهِمْ تَجَاهَ انْفِعَالَتِهِمْ الْعَجُولَةِ.

قَالَ صَاحِبُ «الْإِحْيَاءِ»: «مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغَضَبَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاقِصِينَ أَنَّ الْمَرِيضَ أَسْرَعَ غَضَبًا مِنَ الصَّحِيحِ، وَالْمَرَأَةَ أَسْرَعَ غَضَبًا مِنَ الرَّجُلِ، وَالصَّبِيَّ أَسْرَعَ غَضَبًا مِنَ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ، وَالشَّيْخَ الضَّعِيفَ أَسْرَعَ غَضَبًا مِنَ الْكَهْلِ، وَذَا الْخُلُقِ

(١) الأريب: العاقل.

(٢) رواه البرزالي، وقال الحافظ في «الفتح» (٥١٩/١٠): سنده حسن.

(٣) رواه البخاري (٦١١٦).

(٤) «مسند أحمد» (٣٧٣/٥) بسند صحيح.

السِّيِّ وَالرَّذَائِلِ الْقَبِيحَةِ أَسْرَعُ غَضَبًا مِنْ صَاحِبِ الْفَضَائِلِ، فَالرَّذَلُ^(١) يَغْضَبُ لَشَهْوَتِهِ إِذَا فَاتَتْهُ اللَّقْمَةُ، وَلُبْخَلُهُ إِذَا فَاتَتْهُ الْحَبَّةُ، حَتَّى إِنَّهُ يَغْضَبُ عَلَى أَهْلِهِ، وَوَلَدِهِ، وَأَصْحَابِهِ، بَلِ الْقَوِيُّ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ^(٢).

■ علاج الغضب وتسكينه:

يُعَالَجُ الْغَضَبُ إِذَا هَاجَ بِأُمُورٍ ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ^(٣)، مِنْهَا:

١. أَنْ يَذْكَرَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى الْخَوْفِ مِنْهُ، وَيَبْعَثُهُ الْخَوْفُ مِنْهُ إِلَى الطَّاعَةِ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَزُولُ الْغَضَبُ.

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿وَأذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (سورة الكهف: ٢٤).

قَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي إِذَا غَضِبْتَ.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (سورة

الأعراف: ٢٠٠-٢٠١).

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾ أَي: يُغْضِبَنَّكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي:

أَنَّهُ سَمِيعٌ بِجَهْلٍ مِنْ جَهْلٍ، عَلِيمٌ بِمَا يَذْهَبُ عَنْكَ الْغَضَبُ.

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ -، فَجَعَلَ

أَحَدُهُمَا يَغْضَبُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهَهُ، وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ^(٤)، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ: «إِنِّي

(١) الرَّذَلُ: الدُّونُ الْحَسِيسُ، وَبَابُهُ ظَرْفٌ، وَالْجَمْعُ رَذُولٌ، وَأَرْدَالٌ، وَرَذَلَاءُ.

(٢) «الإحياء» (١٦٨/٣) بتصرف.

(٣) انظر «أدب الدنيا والدين» (٢٥٨ - ٢٦٠)، و«الإحياء» (١٦٩/٣ - ١٧٠)، و«مختصر منهاج

القاصدين» (ص ١٨٠ - ١٨١)، و«نظرة النعيم» (٥٠٧٨/١١).

(٤) الأوداج: جمع ودج - بفتحتين -، وهو عِرْقٌ فِي الْعُنُقِ، وَهُمَا وَدَجَانٍ.

لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجدُ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فقامَ إلى الرَّجُلِ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ النَّبِيَّ - ﷺ -، فقال: «هل تُدرِي ما قال رسولُ الله - ﷺ - أنفياً^(١)». قال: «لا». قال: «إني لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجدُ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». فقال الرَّجُلُ: «أمجنونُ تراني؟»^(٢).

وقوله: ﴿طَائِفٌ﴾ فسره بعضهم بالغضب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقابَ الله، وجزيلَ ثوابه ووعدُهُ.

روى أنَّ عبدَ الله بنَ مُسلمٍ بنَ محاربٍ قالَ لهارونَ الرَّشيدِ: «يا أميرَ المؤمنين، أسألكَ بالَّذي أنتَ بينَ يديهِ أدلُّ مِنِّي بينَ يديكَ، وبالَّذي هوَ أقدرُ على عقابِكَ مِنكَ على عقابي - لما عفوتَ عني» فعفاَ عنه لما ذكره قُدرةُ الله - تعالى - .
فيا أخي، قُدرةُ اللهَ أعظمُ من قُدرةِ عباده، فلوَ أمضيتَ غضبَكَ على أخيك، لمَ تأمنَ أن يمضي اللهُ - عزَّ وجلَّ - غضبَهُ عليكَ يومَ القيامةِ، فأنتَ أحوجُّ ما تكونُ إلى العفوِّ.

٢. أن يتحوَّلَ من الحالِ التي كانَ عليها، فإن كان قائماً جالساً، وإن كان جالساً اضْطَجَعَ.

عن أبي ذرٍّ - رضِيَ اللهُ عنه - قال: إنَّ رسولَ الله - ﷺ - قالَ لنا: «إذا غضبَ أحدُكمُ وهو قائمٌ فليجلسْ، فإن ذهبَ عنه الغضبُ، وإلا فليضطجع»^(٣).

٣. أن يتفكَّرَ في الأخبارِ الواردةِ في فضلِ كظمِ الغيظِ، والعفوِّ، والحلمِ، والاحتمالِ، فيرغبَ في ثوابِ ذلك، فتمنعه شدةُ الحرصِ على ثوابِ هذهِ الفضائلِ عن التشنُّفِ والانتقامِ، وينطفئَ عنه غيظُهُ.

(١) أنفياً؛ سالفًا.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٨٢) و (٦٠٤٨) و (٦١١٥)، ومسلمٌ (١٦١٠).

(٣) رواه أحمدُ (١٥٢/٥)، وأبو داودَ (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٦٩٤).

وقد سبق ذكر بعض تلك الأخبار في باب الحلم، وتذكر منها هنا الآتي:

قَالَ اللَّهُ - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (سورة الشورى: ٣٧).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ»^(١).

٤. ان يَسْكُتَ ؛ لِإِنَّهُ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَقْرَبَ إِلَى الْخَطَا، فَالْسُّكُوتُ أَسْلَمٌ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»^(٢).

٥. ان يَعْلَمَ أَنَّ الْقُوَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ التَّحَكُّمُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ الْغَضَبِ.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ

بِالصَّرْعَةِ^(٣)، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٤).

٦. ان يَعْلَمَ أَنَّ غَضَبَهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ جَرَى عَلَى وَفْقِ مُرَادِ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - لا

عَلَى وَفْقِ مُرَادِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُرَادُ نَفْسِهِ أَوْلَى مِنْ مُرَادِ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - ١٩.

٧. ان يَتَذَكَّرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الدَّافِعُ لَهُ، وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ.

أَسْمَعَ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَلَامًا، فَقَالَ عُمَرُ: «أَرَدْتُ أَنْ يَسْتَفْزِنِي

الشَّيْطَانُ لِعِزَّةِ السُّلْطَانِ، فَأَنَا مِنْكَ الْيَوْمَ مَا تَنَاثَهُ مِنِّي غَدًا، انصرف رَحِمَكَ اللَّهُ».

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وفي «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد في «المسند» عن ابن عباس، والبخاري في «الأدب المفرد» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٦٩٣)، و«الصحيح» (١٣٧٥).

(٣) الصرعة - بفتح الراء - : الذي يصرع الناس ويغلبهم. والصرعة - بسكون الراء - : الضعيف الذي يصرعه الناس ويغلبونه.

(٤) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

٨. أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم، ومدمة الانتقام، فإنه إن كان فيه رغبة العزة، لكنها لا تلبث حتى تفضي بصاحبها إلى ذل الاعتذار، كما قيل:

وإذا ما اعترتك في الغضب العز ٥ ٥ ٥ زة، فاذكر تذلل الاعتذار

٩. أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو من المصائب، وهذا ما يعرف بتسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه، إلا أن يكون خائفاً من أن يتغير عليه أمر عينه على الآخرة، فيتاب على ذلك.

١٠. أن يتذكر أن القلوب تنحرف عنه، وتحذر القرب منه، فيبتعد الخلق عنه، فيبقى وحيداً فريداً، فإن ذلك جدير بصرف الغضب عنه.

وحيداً من الخلان في كل بلدة ٥ ٥ ٥ إذا عظم المطلب قل المساعِد

١١. أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري^(١)، والسبع^(٢) العادي، وأنه أبعده ما يكون مجانية لأخلاق الأنبياء، والعلماء، والفضلاء في أخلاقهم.

١٢. أن يذكر انعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه، فلا يرى إضاعة ذلك بتفسير الناس منه، فيرغب في التألف وجميل الثناء، ويكف عن متابعة الغضب.

(١) الضاري: المتوحش المتورد على الصيد.

(٢) السبع - بضم الباء - : كل حيوان مفترس، والجمع سبع، وأسبع، وسبوع.

■ اقسامُ الغضب:

الغضبُ ضربان: غضبٌ للنفس، وغضبٌ لله - جلُّ وعلا - .

فأما الأولُ فهو مذمومٌ، وقد تقدّم بيانهُ، وأما الثاني فهو محمودٌ، بل مندوبٌ إليه .

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما أنتقم رسولُ الله - ﷺ - لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمةَ الله، فينتقم بها لله»^(١) .

فكان - ﷺ - إذا ما رأى مخالفةً شرعيةً غضب، واحمرَّ وجهه، ولم يسكت حتى يغيرها .

فعن عائشة - أيضاً - قالت: «قدم رسولُ الله - ﷺ - من سفرٍ، وقد سترت سهوة»^(٢)

لي بقرام^(٣) فيه تماثيل، فلما رآه رسولُ الله - ﷺ - هتكه^(٤)، وتلون وجهه، وقال: «يا عائشة، أشدُّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يظاهون^(٥) بخلق الله». قالت: «فقطعناه، فجعلنا منه سادة أو وسادتين»^(٦) .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «بينما النبي - ﷺ - يصلي، رأى في قبلة

المسجد نخامة، فحكها بيده، فتغيظ، ثم قال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله حيال^(٧) وجهه؛ فلا يتنخمن حيال وجهه في الصلاة»^(٨) .

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) و(٦١٢٦) و(٦٧٨٦) و(٦٨٥٣)، ومسلم (٢٣٢٧) .

(٢) سهوة: رقاً ذو طاقة .

(٣) القرام: ستار رقيق .

(٤) هتكه: خرقة وأفسد الصورة التي فيه، وبأبه ضرب .

(٥) يظاهون: يشابهون، ويشاكلون .

(٦) رواه البخاري (٢٤٧٩) و(٥٩٥٤) و(٥٩٥٥) و(٦١٠٩)، ومسلم (٢١٠٦) .

(٧) حيال: قبل .

(٨) رواه البخاري (٤٠٦) و(٧٥٣) و(١٢١٣) و(٦١١١)، ومسلم (٥٤٧) .

تجنب الحقد



الحقد: هو طلب الانتقام، وتحقيقه: أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشنفي في الحال، رجع إلى الباطن، واحتقن فيه، فصار حقدًا^(١).

وقيل: «هو سوء الظن في القلب على الخلائق لأجل العداوة»^(٢).

وقال الجاحظ: «الحقد: هو إضرار الشر للجاني، إذا لم يتمكن من الانتقام منه، فأخفى ذلك الاعتقاد إلى وقت إمكان الفرصة»^(٣).

■ سبب الحقد:

قال الغزالي - يرحمه الله -:

«إن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه بوجه من الوجوه - أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشنفي والانتقام، فإن عجز البغض عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان»^(٤).

(١) «التعريفات» (ص ٩٥).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٦).

(٣) «تهذيب الأخلاق» (ص ٣٣).

(٤) «الإحياء» (٣/١٨٩).

■ حُكْمُ الْحَقْدِ:

ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْثُمِيُّ الْحَقْدَ مَعَ كُلِّ مِّنَ الْغَضَبِ بِالْبَاطِلِ وَالْحَسَدِ، عَلَى أَنَّهَا جَمِيعًا مِنْ كِبَائِرِ الْبَاطِنِ، وَعَلَّلَ جَمْعَهُ لِهَذِهِ الْكِبَائِرِ الثَّلَاثِ بِقَوْلِهِ: «لَمَّا كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ خِصْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَذَمُّ كُلِّ يَسْتَلْزِمُ ذَمَّ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ الْفَرْعَ وَفَرْعَهُ يَسْتَلْزِمُ ذَمَّ الْأَصْلِ وَأَصْلِهِ، وَبِالْعَكْسِ»^(١).

وَسَلَامَةُ الصِّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ هِيَ الصِّفَةُ الْبَارِزَةُ فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ، وَالخَلَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي رَفَعَتْ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، فَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ - إِلَى أَحَدِ الصَّحَابَةِ - ثَلَاثًا - إِلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَبَاتَ عِنْدَهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ؛ كَيْ يَنْظُرَ مَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي بَلَغَ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، فَلَمَّ يَرُهُ فَعَلَ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَعَجِبَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ حَالِهِ، وَسَأَلَهُ: «مَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -؟!». .

فَقَالَ الرَّجُلُ: «مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ».

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «هَذَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا أُطِيقُ؟!»^(٢).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ دِينَارٍ لِأَبِي بَشِيرٍ (وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -): «أَخْبِرْنِي عَنْ أَعْمَالٍ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، قَالَ: «كَانُوا يَعْمَلُونَ يَسِيرًا، وَيُؤْجِرُونَ كَثِيرًا». فَقَالَ سُفْيَانُ: «وَلِمَ ذَلِكَ؟!»، قَالَ: «لِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ»^(٣).

(١) «الزَّوْجَرُ» (١/٥٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» بإسناد صحيح (٣/١٦٦).

(٣) رواه هناد في «الزُّهْدُ» (٢/٦٠٠).

قال المُنْعُ الكِنْدِيُّ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَيْرَةَ:

إِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ■■■ وبين بني عمي . لمختلفاً جيداً
 إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومَهُمْ ■■■ وَإِنْ هَتَكُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
 وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ ■■■ وليس رئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

وقال آخرُ:

إِنَّ فِي النَّفْسِ بَغْضَةً لِلنَّاسِ ■■■ أَصْلِحْنِي وَحَبِّبْنَهُمْ إِلَيَّا
 وَاغْسِلِ الْحِقْدَ وَالْهَوَى مِنْ فُؤَادِي ■■■ واجعلني لكلِّ حقٍّ وليًّا

وَالْحِقْدُ إِذَا لَمْ يُعَالَجْ قَدْ يُفْضِي إِلَى الْعَدَاوَةِ، مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ، كَمَا قِيلَ:

بَنِي عَمْنَا، إِنَّ الْعَدَاوَةَ شَأْنُهَا ■■■ ضَغَائِنٌ ^(١) تَبْقَى فِي نُفُوسِ الْأَقَارِبِ

■ عِلَاجُ الْحِقْدِ:

وَالْعِلَاجُ الْأَنْجَحُ يَسْتَلْزِمُ مِنَ الْمَحْقُودِ عَلَيْهِ - إِنْ كَانَ عَادِيًّا - أَنْ يُقْلَعَ عَنْ غِيِّهِ،
 وَيُصْلِحَ سِيرَتُهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُسْتَلَّ الْحِقْدُ مِنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا عَادَ عَلَيْهِ
 بِمَا يُظْمِنُهُ وَيُرْضِيهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِهِ، وَيُطِيبَ خَاطِرَهُ، وَعَلَى الطَّرْفِ
 الْآخَرِ أَنْ يَلِينَ وَيَسْمَعَ، وَيَتَقَبَّلَ الْعُذْرَ، وَبِهَذَا تَمُوتُ الْأَحْقَادُ، وَتَحِلُّ الْمَحَبَّةُ
 وَالْأُلْفَةُ ^(٢).

(١) ضَغَائِنٌ: جمعُ ضَغِينَةٍ، وَهِيَ الْحِقْدُ.

(٢) انظر «نظرة النعيم» (١٠/٤٤٣٢).

قَالَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ:

وَحْيٌ ذَوِي الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبِهِمْ ◻ ◻ ◻ تَحِيَّتُكَ الْقَرِيءُ، فَصَدُّ تَرْقَعُ النَّعْلُ
فَإِنْ دَحَسُوا^(١) بِالْكُرْهِ فَاعْفُ تَكْرُمًا ◻ ◻ ◻ وَإِنْ خَنَسُوا^(٢) عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ
فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ◻ ◻ ◻ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلْ^(٣)

وَالْحَقْدُ مَهْمًا بَلَغَ صَاحِبُهُ فِي إِخْفَائِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ؛ فَالْعِيُونَ - كَمَا قَالَ ابْنُ
الْقَيْمِ - مَغَارِيفُ الْقُلُوبِ، بِهَا يُعْرَفُ مَا فِي الْقُلُوبِ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ صَاحِبُهَا.
وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

إِنَّ الْعِيُونَ لَتُبْدِي فِي نَوَاطِرِهَا ◻ ◻ ◻ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْإِحْنِ^(٤)
وَقَالَ آخِرُ - وَأَحْسَنُ -:

الْعَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ◻ ◻ ◻ مِنَ الشَّنَاءَةِ^(٥)، أَوْ حُبِّ إِذَا كَانَا
إِنَّ الْبَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ يُصَدِّقُهَا ◻ ◻ ◻ لَا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الْقَلْبِ كِتْمَانًا
فَالْعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ ◻ ◻ ◻ حَتَّى تَرَى مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ تَبْيَانًا

وَكَمَا يَظْهَرُ عَلَى الْعِيُونَ، فَهُوَ يَظْهَرُ عَلَى صَفْحَاتِ الْوَجْهِ، وَفَلَتَاتِ اللَّسَانِ،
كَمَا قَالَ عُمَانُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «مَا أَسْرَأُ أَحَدُ سَرِيرَةٍ إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى
صَفْحَاتِ وَجْهِهِ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ»^(٦).

(٢) خَنَسُوا: أَخْفُوا.

(٤) الْإِحْنُ: جَمْعُ إِحْنَةٍ، وَهِيَ الْحَقْدُ.

(٦) «الْأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ» (١/١٣٦).

(١) دَحَسَ بَيْنَ الْقَوْمِ: أَفْشَى بَيْنَهُمْ.

(٣) «عِيُونَ الْأَخْبَارِ» (٢/٤١٥).

(٥) الشَّنَاءَةُ: الْكُرْهُ وَالْبَغْضُ.

وقال ابن عقيل - يرحمه الله - : «للإيمان روائح ولوائح لا تخفى على اطلاع مكلف، وذلك بالتلمح للمتفرس، وقل أن يضمير شيئاً إلا أظهرها الزمان على فلتات لسانه، وصفحات وجهه»^(١).

وما أجمل ما قاله عمرو بن كلثوم:

وإن الضغن^(٢) بعد الضغن يفشو ◻◻◻ عليك ويخرج الداء الدفين^(٣)

ولا يحمل الحقد إلا ذنيء الهمة، مهين النفس، ولن تجد عالي الهمة، عزيز النفس، كريم السجايا، عريق الأصل - يحمل الحقد في نفسه، حتى يعود اللبن في الضرع، وإذا وجدت حقوداً بهذه الصفات، فاعلم أنه لا ينبل ولا يسود.

قال شاعر الدنيا وشاغل الناس أبو الطيب المتنبي:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ◻◻◻ ولا ينال العلى من طبعه الغضب



(١) المرجع السابق.

(٢) الضغن - بالكسر - الحقد، وبأبه فرح، والجمع: أضغان.

(٣) تفسير القرطبي، (١٦/٢٥١).

تَجَنُّبُ الْحَسَدِ



الحسد: هو تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ، لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلِهَذَا قِيلَ: «مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ، وَلَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ، وَالكَرِيمَ يُخْفِيهِ»^(١).

وقيلَ لِلْحَسَنِ البَصْرِيِّ: «أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟». فَقَالَ: «مَا أَنَسَاكَ إِخْوَةَ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؟!، لَا أَبَا لَكَ، وَلَكِنْ عَمَّهُ فِي صَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، مَا لَمْ تَعُدْ بِهِ يَدًا ولسَانًا»^(٢).

والْحَسَدُ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، نَاهِيكَ بِهِ شَرًّا، فَهُوَ أَوَّلُ ذَنْبِ عُصِيَةِ اللَّهِ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبِ عُصِيَةِ اللَّهِ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فِي السَّمَاءِ حَسَدَ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسَ أَبَانَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَفِي الْأَرْضِ حَسَدَ ابْنِ آدَمَ قَابِيلَ أَخَاهُ هَابِيلَ حَتَّى قَتَلَهُ!

■ أسباب الحسد:

قال الماوردي - يرحمه الله -:

«واعلم أن دواعي الحسد ثلاثة:

أحدها - بغض المحسود، فيأسى عليه بفضيلة تظهر، أو منقبة^(٣) تُشكر، فيشيرُ حسداً قد خامرَ بغضاً.

وهذا النوع لا يكونُ عاماً - وإن كانَ أضرَّها -؛ لأنَّه ليسَ يبغضُ كُلَّ النَّاسِ.

(١) و (٢) مكارم الأخلاق، لابن تيمية (ص ٢٤٧).

(٣) منقبة: فضيلة، والجمع مناقب.

والثاني - أن يظهر من المحسودِ فضلٌ يعجزُ عنه، فيكرهُ تقدُّمه فيه، واختصاصه به، فيشيرُ ذلكَ حسداً، لولاهُ لكفَّ عنه.

وهذا أوسطها؛ لأنه لا يحسدُ الأكفَاءُ^(١) من دنا، وإنما يختصُّ بحسدٍ من علا، وقد يمتزجُ بهذا ضربٌ من المنافسة، ولكنها مع عجز؛ فلذلك صارت حسداً.

والثالث - أن يكونَ في الحاسدِ شحٌّ بالفضائلِ، ويُخلُّ بالنعم، وليست إليه فيمنع منها، ولا بيده فيدفع عنها، لأنها مواهبٌ قد منحها اللهُ من شاء، فيسخطُ على الله - عزَّ وجلَّ - في قضائه، ويحسدُ على ما منح من عطائه، وإن كانت نعمُ الله - عزَّ وجلَّ - عنده أكثر، ومنحه عليه أظهر.

وهذا النوعُ من الحسدِ أعمُّها وأخبثها، إذ ليسَ لصاحبه راحةٌ، ولا لرضاه غايةٌ، فإن اقترنَ بشرُّ وقُدرةً كان بُوراً وانتقاماً، وإن صادفَ عجزاً ومهانةً كان كمداً وسقاماً^(٢)، وقد قالَ عبدُ الحميدِ: الحسودُ من الهمِّ كساقِي السَّمِّ، فإن سرى سمُّه زالَ عنه غمُّه^(٣).

■ أقسامُ الحسدِ:

قسَمَ العلماءُ الحسدَ إلى قسَمينِ: حقيقيٍّ، ومجازيٍّ.

فالحقيقيُّ: تمني زوالِ النعمة عن صاحبها، وهذا حرامٌ بإجماعِ الأمة مع النصوصِ الصريحة.

(١) الأكفاء: جمعُ كُفٍّ، وهو المثلُ والنظيرُ.

(٢) السقام - بالفتح - : المرَضُ.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٧٠ - ٢٧١).

وأما المجازي فهو الغبطة؛ وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإذا كانت في أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة^(١).

وقال القرطبي - يرحمه الله -:

«الحسد نوعان: محمود، ومذموم.»

فالمذموم: أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت - مع ذلك - أن تعود إليك أولاً، وهذا النوع الذي ذمه الله في كتابه بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (سورة النساء: ٥٤).

وإنما كان مذموماً؛ لأن فيه تسفيه الحق - سبحانه - وأنه أنعم على من لا يستحق^(٢).

وقال الرازي: «إذا أنعم الله على أخيك بنعمة، فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد، وإن اشتهيت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة والمنافسة، وأما الأول فحرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر يستعين بها على الشر والفساد، فلا يضرك محبتك لزوالها؛ فإنك ما تحب زوالها من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها يتوسل بها إلى الفساد والشر والأذى»^(٣).

وقد نهى رسول الله - ﷺ - عن الحسد.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إياكم والظن؛ فإن

الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا

تباغضوا، ولا تدابروا»^(٤)، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٧١).

(١) «شرح مسلم» (٢/ ٤٦٤).

(٤) لا تدابروا؛ لا تقاطعوا ولا تعادوا.

(٣) «التفسير الكبير» (٣/ ٢٣٨).

(٥) تقدم تخريجه.

وعنه - أيضاً - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آثَاءً ^(١) اللَّيْلِ، وَآثَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَمَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَمَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ ^(٢) »، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَمَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَمَا يَعْمَلُ ^(٣) .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

«وَأَمَّا الْحَسَدُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ فَهُوَ الْغِبْطَةُ، وَأُطْلِقَ الْحَسَدَ عَلَيْهَا مَجَازًا، وَهِيَ أَنْ يَتَمَنَّى لَهْ مِثْلَ مَا لِغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ عَنْهُ، وَالْحِرْصُ عَلَى هَذَا يُسَمَّى مُنَافَسَةً، فَإِنْ كَانَ فِي الطَّاعَةِ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَمِنْهُ: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سُورَةُ الْمَطْفِينِ: ٢٦). وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَمِنْهُ: «وَلَا تَنَافَسُوا»، وَإِنْ كَانَ فِي الْجَائِزَاتِ فَهُوَ مُبَاحٌ ^(٤) .

قَالَ الشَّاعِرُ:

احْرِصْ عَلَيَّ جَمْعَ الْفَضَائِلِ وَاجْتَهِدْ ■ ■ ■ وَتَجَافَى عَنِ حَمْلِ الضَّغِينَةِ وَالْحَسَدِ
اصْبِرْ عَلَيَّ كَيْدِ الْحَسُودِ مُدَارِيًا ■ ■ ■ يَا صَاحِبَ ^(٥)، بَعْدَ الْمَوْتِ يَنْقَطِعُ الْحَسَدُ

وَالْحَسَدُ غَالِبًا مَا يُوجَدُ لِمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا التَّافَهُ الْمَسْكِينُ فَلَا

(١) الأثاء: الساعات، قَالَ الْأَخْفَشُ: وَاحِدُهَا إِنِّي. وَقِيلَ: وَاحِدُهَا إِنِّي، وَإِنُّو، يُقَالُ: مَضَى مِنَ اللَّيْلِ

إِنْيَانٌ وَإِنْوَانٌ.

(٢) أَي: يَنْفَقُهُ فِي الطَّاعَاتِ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٢٦) وَ(٧٢٣٢) وَ(٧٥٢٨).

(٤) فَتْحُ الْبَارِي (١/١٦٧).

(٥) صَاحِبُ: مُرَخِّمٌ صَاحِبٌ، وَهُوَ مُرَخِّمٌ تَرْخِيمًا غَيْرَ قِيَاسِيٍّ جَازٍ هُنَا لِلضَّرُورَةِ الشَّعْرِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ نَكْرَةٌ،

وَالْقِيَاسُ الْأَيْرَخِمُ مِمَّا لَيْسَ آخِرُهُ تَاءٌ إِلَّا الْعَلَمُ.

حُسَادَ لَهُ، ولهذا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَعَلَمُ الْأَعْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:
 «وَالْحَسَدُ فِي الْأَصْلِ إِنَّمَا يَقَعُ لَمَّا يَحْصُلُ لِلْغَيْرِ فِي السُّؤْدَدِ وَالرِّيَاسَةِ، وَإِلَّا فَالْعَامِلُ
 لَا يُحْسَدُ فِي الْعَادَةِ، وَلَوْ كَانَ تَنْعَمُهُ بِالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالنِّكَاحِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ،
 بِخِلَافِ هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ، فَإِنَّهُمَا يُحْسَدَانِ كَثِيرًا، وَلِهَذَا يُوجَدُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ
 لَهُمْ أَتْبَاعٌ مِنَ الْحَسَدِ مَا لَا يُوجَدُ فِيمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَكَذَلِكَ فِيمَنْ لَهُ أَتْبَاعٌ بِسَبَبِ
 إِنْفَاقِ مَالِهِ، فَهَذَا يَنْفَعُ النَّاسَ بِقُوتِ الْقُلُوبِ، وَهَذَا يَنْفَعُهُمْ بِقُوتِ الْأَبْدَانِ،
 وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ مِنْ هَذَا وَهَذَا»^(١).

وَمِنَ اللَّطَائِفِ أَنَّ الْإِمَامَ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْوَزِيرَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - شَكَا لِابْنِ
 عَمٍّ لَهُ كَثْرَةَ الْحُسَادِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَائِلًا:

وَشَكْوَتَ مِنْ ظَلَمِ الْوُشَاةِ، وَلَنْ تَجِدَ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
 لَا زَلْتَ - يَا سَيْطَ الْكِرَامِ - مُحْسَدًا ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
 وَالْتَأَفَهُ الْمَسْكِينُ غَيْرَ مُحْسَدٍ

وَقَالَ أَبُو الْجَوَيْرِيَّةِ الْعَبْدِيُّ:

فَمَا زَلْتَ تُعْطِينِي وَمَالِي حَاسِدٌ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
 مِنَ النَّاسِ، حَتَّى صِرْتُ أُرْجَى وَأُحْسَدُ

وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ:

دَعِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِي بِرِحْلَةٍ ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
 إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ:

وَأَلْبَسْتَنِي النُّعْمَى الَّتِي غَيَّرْتَ أَخِي ◻◻◻ ◻◻◻ ◻◻◻
 عَلَيَّ، فَأَضْحَى نَازِحٌ^(٣) الْوُدَّ أَجْنَبًا^(٤)

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية (ص ٢٤٢).

(٢) سَيْطَ: واحد الأسباط، وهم وُلْدُ الْوَلَدِ، وَيَغْلِبُ عَلَى إِطْلَاقِهِ وَكَلْدُ الْبِنْتِ، يُقَابِلُ الْحَفِيدَ وَلَدُ الْوَلَدِ.

(٣) نَازِحٌ: بَعِيدٌ.

(٤) الْأَجْنَبُ: الْأَجْنَبِيُّ.

وقال أبو الطيب مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم^(١) ◻◻◻ فانت الذي صيرتهم لي حسداً^(٢)

وكُلِّما ارتفع الإنسان في هذه الحياة، كَلِّما كثر حسَّاده، كما قيل:

وإذا الفتى بلغ السماء بمجده ◻◻◻ كانت كأعداد النجوم عداه^(٣)

وزمَّوه عن قوسٍ بكلِّ عزيمة ◻◻◻ لا يبلغون بما جنَّوه مَداهُ

وغالباً ما يكون الحسدُ سبباً في ازديادِ المحسودِ مِنَ الفضائلِ، وتخليهِ عَنِ الرذائلِ، كما قيل:

عداتي^(٤) لهم فضلٌ عليٍّ ومِنَّةٌ ◻◻◻ فلا أبعد الرحمنُ عني الأعداءِ

هم يحثوا عن سوءتي فاجتنبتها ◻◻◻ وهم نافسوني فاكْتَسَبْتُ المعالي

ويكونُ الحسدُ - أيضاً - سبباً في نشرِ فضائلِ المحسودِ، كما قال الطائيُّ:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ ◻◻◻ طويت، أتاح لها لسانَ حَسودٍ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتُ ◻◻◻ ما كان يُعرفُ طيبُ عَرَفِ^(٥) العودِ^(٦)

لولا التَّخوفُ للعواقبِ لم تزلُ ◻◻◻ للحاسدِ النُّعمى على المحسودِ^(٧)

(١) الكبتُ - بالفتح - : الصِّرفُ والإذلالُ، وبأبه ضربٌ.

(٢) يقول: أنت صيرتهم حاسدين لي بما أفضت علي من نعمتك، فاصرف شرَّ حسدِهم عني بإذلالهم.

(٣) العدى: الأعداء.

(٤) العداة - بالضم - : الأعداء.

(٥) العرف: الرائحة، وأكثر استعماله في الطيب منها.

(٦) العود: نوع من الطيب يُبخَّرُ به، ورائحته طيبة.

(٧) «عيون الأخبار» (٢/٤٠٥).

وأكثر ما يوجد الحسدُ بين الأقران^(١).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «وَهَكَذَا الْحَسَدُ يَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ الْمُتَشَارِكِينَ فِي رِئَاسَةِ أَوْ مَالٍ، إِذَا أَخَذَ بَعْضُهُمْ قِسْطًا مِنْ ذَلِكَ وَفَاتَ الْآخَرَ، وَيَكُونُ بَيْنَ النَّظَرَاءِ لِكِرَاهَةِ أَحَدِهِمَا أَنْ يَفْضَلَ الْآخَرَ عَلَيْهِ: كَحَسَدِ إِخْوَةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَكَحَسَدِ ابْنِي آدَمَ أَحَدَهُمَا لِأَخِيهِ، فَإِنَّ حَسَدَهُ لَكُونَ أَنَّ اللَّهَ تَقَبَّلَ قُرْبَانَهُ هَذَا، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ هَذَا، فَحَسَدَهُ عَلَى مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى - كَحَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ - وَقَتْلَهُ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي ■ ■ ■ أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَاءَتِ الْأَدَبُ؟
 أَسَاءَتَ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ؛ ■ ■ ■ لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
 فَأَخْزَاكَ رَبِّي بِأَنْ زَادَنِي ■ ■ ■ وَسَدَّ عَلَيْكَ وَجُوهَ الطَّلَبِ^(٣)

وقال ابن حبان - يرحمه الله :-

«الْعَاقِلُ إِذَا خَطَرَ بِيَالِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ لِأَخِيهِ أَبْلَغَ الْمَجْهُودَ فِي كِتْمَانِهِ، وَتَرَكَ إِبْدَاءَ مَا خَطَرَ بِيَالِهِ، وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الْحَسَدُ بَيْنَ الْأَقْرَانِ، أَوْ مِنْ تَقَارُبِ الشَّكْلِ^(٤)؛ لِأَنَّ الْكُتْبَةَ لَا يَحْسُدُهَا إِلَّا الْكُتْبَةُ، كَمَا أَنَّ الْحَجَبَةَ لَا يَحْسُدُهَا إِلَّا الْحَجَبَةُ، وَلَنْ يَبْلُغَ الْمَرْءُ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَجَدَ فِيهَا مَنْ يُغْضِبُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَحْسُدُهُ فِيهَا»^(٥).

(١) الأقران: جمع قرن - بالكسر -، وهو النظير في العلم، والشجاعة، وغيرهما.

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية (ص ٢٤٨).

(٣) «جواهر الأدب» (ص ٧٢١).

(٤) الشكل - بالفتح -: الشبه، والجمع أشكال، وشكول.

(٥) «روضة العقلاء» (ص ١٣٦).

قال الشاعر:

وَقَرَى اللَّيِّبَ مُحَسِّدًا لَمْ يَجْتَرَمْ ۝ شَتَمَ الرُّجَالَ، وَعَرَضَهُ مَشْتُومًا
حَسَدُوا الضُّعْفَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعِيَهُ ۝ فَالنَّاسُ أَعْدَاءُ لَهُ وَخُصُومُ
كُضْرَائِرٍ^(١) الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لَوَجْهَهَا ۝ - حَسَدًا وَظُلْمًا -: إِنَّهُ لَدَمِيمٌ^(٢)

■ أسباب رفع شر الحاسد عن المحسود:

يَنْدَفَعُ شَرُّ الْحَاسِدِ عَنِ الْمَحْسُودِ بِعَشْرَةِ سَبَابٍ:

أحدها - الاستعاذة من شر هذا الحاسد: كما أمر الله بذلك، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ

حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (سورة الفلق: ٥).

ثانيها - تقوى الله: فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ أَنْجَاهُ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَمْ

يَكِلْهُ إِلَى غَيْرِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ -تعالى-: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا﴾ (سورة الطلاق: ٢).

وقال الله -تعالى-: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠).

وقال النبي ﷺ - لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «يا غلام، إني أعلمك

كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...»^(٣) ^(٤)

ثالثها - التوكُّلُ على الله: فهو من أقوى الأسباب التي يدفعُ بها المحسودُ ما

لا يطيقُ من أذى الحاسد، وبغية وعدوانه، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ كَانَ

اللَّهُ كَافِيَهُ وَوَاقِيَهُ، فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوِّهِ.

(١) ضرائر: جمع ضرة - بفتح الضاد -، وضررة المرأة: امرأة زوجها.

(٢) «عيون الأخبار» (٢/٤٠٦).

(٣) تجاهك - بضم التاء وكسرهما -: أمامك، فأينما توجهت لكان معك بالحفظ والإحاطة، والتأييد والإعانة.

(٤) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٧٩٥٧).

يَقُولُ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ

جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (سورة الطلاق: ٣).

يقول العلامة ابن سعد في تفسير هذه الآية: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك. ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفاية الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له؛ فلهدأ قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه^(١).

رابعها. الصبر على الحاسد: فما نصر محسود على حسود بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، فعلى المحسود أن يصبر على مضمض^(٢) حاسده، وألاً يستطيل حسده؛ فإن حسده سهام يرميها من نفسه إلى نفسه وهو لا يشعر، ولو رأى المحسود ذلك لسره حسده له، لكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة الحسد دون آخره وماله.

قال معاوية - رضي الله عنه - : ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد

قبل أن يصل إلى المحسود،^(٣)

وقال ابن المعتز العباسي:

اصبر على كيد الحسو ◻◻◻ د؛ فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بغضها ◻◻◻ إن لم تجد ما تأكله^(٤)

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٨٧٠).

(٢) المضمض: وجع المصيبة.

(٣) و (٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٧٠).

وقال الطغرائي:

اصْبِرْ عَلَى غَيْظِ الْحَسُودِ؛ فَنَارُهُ ◻ ◻ ◻ قَرَمِي حَشَاهُ^(١) بِالْعَذَابِ الْخَالِدِ
أَوْ مَا رَأَيْتَ النَّارَ تَأْكُلُ نَفْسَهَا ◻ ◻ ◻ حَتَّى تَعُودَ إِلَى الرَّمَادِ الْهَامِدِ؛
تَضْفُو^(٢) عَلَى الْمَحْسُودِ نِعْمَةً رِيَهُ ◻ ◻ ◻ وَيَذُوبُ مِنْ كَمَدٍ^(٣) فَوَادٍ الْحَاسِدِ^(٤)

خامسها . فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد، والفكر فيه: فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يخطر بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، واشتغل بما هو أنفع له وأولى به .

قَالَ حَاتِمٌ:

وَكَلِمَةٌ حَاسِدٍ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ^(٥) ◻ ◻ ◻ سَمِعْتُ، فَقُلْتُ: مُرِّي فَأَنْفُذْنِي
وَعَابُوهَا عَلَيَّ، وَلَمْ تَعِيبْنِي ◻ ◻ ◻ وَلَمْ يَنْدُ^(٦) لَهَا أَبَدًا جَبِينِي

وَقَالَ آخَرُ:

دَعِ الْحَسُودَ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كَمَدٍ ◻ ◻ ◻ يَكْفِيكَ مِنْهُ لَهَيْبُ النَّارِ فِي كَبِيدِهِ
إِنْ لُمْتَ ذَا حَسَدٍ نَفْسَتْ كُرْبَتَهُ ◻ ◻ ◻ وَإِنْ سَكَتَ فَقَدْ عَذَّبْتَهُ بِيَدِهِ^(٧)

(١) الحشأ: ما انضمت عليه الضلوع، وأجمع أحشأ.

(٢) تضفو: تروبو وتكثر.

(٣) الكمد - بفتح الحاء - : الحزن الشديد المكتوم، وبأبه قرح.

(٤) «جواهر الأدب» (ص ٧٠٤).

(٥) جرم: ذنب، والجمع أجرام، وجروم، وبأبه ضرب.

(٦) لم يند: لم يعرق، ولم يتل، وبأبه صدي.

(٧) «جواهر الأدب» (ص ٧٢١).

سادسها- الإقبال على الله، والإخلاص له: فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ عَامرًا بِمَحَبَّةِ اللَّهِ
وَإِجْلَالِهِ، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَذَكَرَهُ كَمَا يَذْكُرُ الْمُحِبُّ التَّامَّ الْمَحَبَّةَ مَحْبُوبَهُ الْمَحْسَنَ
إِلَيْهِ - لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ مَتَسَعٌ لِلْفِكْرِ فِي حَاسِدِهِ، وَالطَّرِيقَ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ،
والتدبيرِ عَلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ - تعالى - فِي حَقِّ الصِّدِّيقِ يُوسُفَ - عليه السلام -: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٤).

سابعها - تجريد التوبة النصوح إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه حساده: فَإِنَّ
اللَّهَ - تعالى - يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠).

وَقَالَ خَيْرِ الْخَلْقِ - وَهُمْ أَصْحَابُ نَبِيِّهِ دُونَهُ - عليه السلام -: ﴿أَوْ لِمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ
قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

فَمَا سَلَطَ عَلَى الْعَبْدِ مُؤْذٍ إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أَوْ لَا يَعْلَمُهُ، وَمَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ
مِنْ ذُنُوبِهِ أضعافُ أضعافٍ ما يَعْلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَنْسَاهُ مِمَّا عَمِلَهُ أضعافُ مَا
يَذْكُرُهُ، فَإِذَا عُوْفِيَ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ عُوْفِيٍّ مِنْ مُوجِبَاتِهَا.

لَقِيَ بَعْضَ السَّلَفِ رَجُلٌ، فَأَغْلَظَ لَهُ، وَنَالَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: قَفْ حَتَّى أَدْخُلَ
الْبَيْتَ، ثُمَّ أَخْرَجُ إِلَيْكَ، فَدَخَلَ فَسَجَدَ لِلَّهِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، وَتَابَ وَأَنَابَ إِلَى
رَبِّهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعْتَ؟. فَقَالَ: تَبْتُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي
سَلَطَكَ بِهِ عَلَيَّ.

فعلى المحسود أن يعكس فكره ونظرة على نفسه وذنوبه، فيشتغل بإصلاحها،
وبالتوبة منها، حينها لن يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة
وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولا بد.

ثامنها - الصدقة والإحسان من المحسود إلى العباد ما أمكنه؛ فما حرس العبدُ
نعمة الله عليه من كل ما يكون سبباً لزوالها - بمثل شكرها، فالشكر - كما قال
العلماء - قيد للموجود، وصيد للمفقود.

عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء،
والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»^(١).

وحسد الحاسد من أقوى الأسباب لزوال النعم؛ فإنه لا يفتر ولا يني ولا
يرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، كما قال الطغرائي:

جاملٌ عدوك ما استطعت؛ فإنه ◻◻◻ بالرُفقِ يُطمعُ في صلاحِ الفاسدِ
واحدٌ حسودك ما استطعت؛ فإنه ◻◻◻ إن نمتَ عنه فليسَ عنك براقِدِ
إن الحَسُودَ - وإن أراك تودُّداً ◻◻◻ منه - أضرُّ منَ العدوِّ الحاقِدِ
ولربِّهما رضيَ العدوُّ إذا رأى ◻◻◻ منك الجميلَ، فصار غيرَ مُعانِدِ
ورضى الحَسُودُ زوالَ نِعْمَتِكَ التي ◻◻◻ أوتيتها من طارفٍ^(٢)، أو قالدٍ^(٣) ◻◻◻^(٤)

(١) رواه الحاكم في «مستدرکه»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٣٧٩٥)، و«الصَّحِيحَةُ»
(١٩٠٨).

(٢) طارف: الأحوال الجديدة.

(٣) قالد: الأحوال القديمة.

(٤) «جواهر الأدب» (ص ٧٠٤).

وقال محمودُ الوراقُ:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَى ۝ ۝ ۝ إِلَّا الْحَسُودَ، فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
مَا إِنْ لِي ذَنْبًا إِلَيْهِ عَلِمْتُهُ ۝ ۝ ۝ إِلَّا تَظَاهَرُ نِعْمَةَ الرَّحْمَنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيهِ إِلَّا ذِلَّتِي ۝ ۝ ۝ وَذَهَابُ أَمْوَالِي، وَقَطْعُ لِسَانِي^(١)

فَعَلَى الْمُحْسُودِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ؛ فَإِنَّ لَهَا أَثْرًا عَجِيبًا فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ،
وَشَرِّ الْحَاسِدِ، فَقَلَّمَا يَتَسَلَّطُ الْحَسَدُ عَلَى مُحْسِنٍ مُتَّصِدِّقٍ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ
ذَلِكَ، كَانَ مُعَامَلًا فِيهِ بِاللُّطْفِ وَالْمَعُونَةِ وَالتَّأْيِيدِ، وَكَانَتْ لَهُ فِيهِ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ.

تاسعها - عدم إخبار الحاسد بنعمة الله عليك: لأنَّ ظهورَ الفضلِ يُثيرُ الحسدَ،
وحدوثَ النِّعْمَةِ يُضَاعِفُ الكَمَدَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - «اسْتَعِينُوا عَلَى
إِنجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكَتْمَانِ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٌ»^(٢).

عاشرها - الإحسانُ إلى الحاسدِ؛ وَهُوَ مِنْ أَصْنَعِبِ الْأَسْبَابِ عَلَى النَّفْسِ وَأَشَقُّهَا
عَلَيْهَا، وَلَا يُوقَفُ لَهُ إِلَّا مَنْ عَظُمَ حَظُّهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ إِطْفَاءُ نَارِ الْحَاسِدِ بِالْإِحْسَانِ
إِلَيْهِ، فَكُلَّمَا ازدَادَ أذىً وَشراً، وَبَغياً وَحَسداً، ازدَدتْ إِلَيْهِ إِحْسَانًا، وَلَهُ نَصِيحَةٌ،
وَعَلَيْهِ شَفَقَةٌ.

وممَّا يَهْوَنُ هَذَا عَلَى نَفْسِ الْمُحْسُودِ، وَيُطَيِّبُهُ إِلَيْهَا، وَيَنْعَمُهَا بِهِ الْآتِي:

١ - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَنْ قَابَلَ إِسَاءَةَ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، قَابَلَ اللَّهُ إِسَاءَتَهُ
- وَكُلُّنَا ذُوو خَطِيئَةٍ - بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٧٤).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» عن معاذ بن جبل، وصححه الألباني في «صحيح
الجامع» (١/٢٩٤٣)، وهو في «الصحيحة» (١٤٥٣).

٢ - أن يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِحُصُولِهِ عَلَى نَصْرِ اللَّهِ، وَمَعِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - لِلَّذِي شَكَا إِلَيْهِ قَرَابَتَهُ، وَأَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ يُسِيئُونَ إِلَيْهِ -: «لا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك»^(١).

٣ - أن يَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ يَثْنُونَ عَلَى مَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ، وَيَصِيرُونَ كُلُّهُمْ مَعَهُ عَلَى خَصْمِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَ أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ، وَهُوَ مُسِيءٌ إِلَيْهِ - وَجَدَ قَلْبَهُ وَدُعَاءَهُ وَهَمَّتُهُ مَعَ الْمُحْسِنِ عَلَى الْمُسِيءِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ فَطْرِيٌّ فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ.

ولا بُدُّ لِلْمَحْسُودِ الْمُحْسِنِ مَعَ حَاسِدِهِ مِنْ إِحْدَى حَالَتَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَمْلِكَهُ بِإِحْسَانِهِ فَيَسْتَعْبِدُهُ، وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَذُلُّ لَهُ، وَيَبْقَى مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبُهُمْ ◦ ◦ ◦ فَطَلَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانٌ^(٢)
وَأَمَّا أَنْ يُفْتَتَّ كَبَدُهُ، وَيَقْطَعَ دَابِرُهُ، إِنْ أَقَامَ عَلَى إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُذِيقُهُ بِإِحْسَانِهِ أَضْعَافَ مَا يَنَالُ مِنْهُ بِانْتِقَامِهِ^(٣).



(١) تقدم تخريجه.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٧٠).

(٣) انظر «التفسير القيم» (ص ٥٨٥ - ٥٩٣)، فهذه الأسباب - ما عدا السبب التاسع - أخذتها منه، وقد دخلها هنا تغيير اقتضاه الإيجاز من تقديم وتأخير، وزيادة وحذف...

غَضُّ البَصْرِ



غَضُّ البَصْرِ مِنْ أَمِّ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْمُؤْمِنُ، فَالْبَصْرُ هُوَ الْبَابُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْقَلْبِ، وَأَعْمَرُ طَرُقِ الْخَوَاسِ إِلَيْهِ، وَيَحْسَبُ ذَلِكَ كَثْرَ السَّقُوطِ مِنْ جِهَتِهِ، وَوَجَبَ عَنْ جَمِيعِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَكُلُّ مَا يُخْشَى الْفِتْنَةَ مِنْ أَجْلِهِ^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظْرِ ۝ ۝ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْفَرِ الشَّرِّ^(٢)
كَمْ نَظْرَةٌ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ۝ ۝ فَتَكَ السُّهَامُ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتْرٍ

وَصِفَاتُهُ أَنْ يُغْمِضَ الْمُسْلِمَ بَصْرَهُ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَّا لَمَّا أُبِيحَ النَّظْرُ إِلَيْهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ - أَيْضًا - إِغْمَاضُ الْأَبْصَارِ عَنِ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصْرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصْرَهُ سَرِيعًا.
وَعَضُّ الْبَصْرِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

فَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ اضْمَنُوا لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثَمْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ»^(٣).

(١) «تفسير القرطبي» (١٤٨/٢).

(٢) الشرر - بفتحين - : ما يتطاير من النار، والمفرد شررة.

(٣) رواه أحمد - واللفظ له - (٣٢٣/٥)، والحاكم (٣٥٨/٤ - ٣٥٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»

(٣١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠١٨/١)، و«الصحيحة» (١٤٧٠).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ نَظَرِ الضَّجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرَفَ بَصْرِي،^(١)

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَا مَعْشَرَ النَّسَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبِئَاءَةَ^(٢) فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَنْغَضُ لِبَصْرِهِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ دَهْ وَجَاءُ^(٣) (٤).

فَعَلَيْكَ - أَخِي فِي اللَّهِ - أَنْ تَغْضُ بَصْرَكَ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ فَإِنَّ: حِفْظَ الْبَصَرِ أَشَدُّ مِنْ حِفْظِ اللِّسَانِ،^(٥) . كَمَا قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِذَا مَرَّتْ بِكَ امْرَأَةٌ، فَمَغْضُ عَيْنَيْكَ حَتَّى تَجَاوِزَكَ،^(٦) .

وَلَا بُدَّ مِنْ غَضِّ الْبَصَرِ عَنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ، حَتَّى وَكَلَوْ كَانَتْ الْمَنْظُورُ إِلَيْهَا فَتَاءً صَغِيرَةً.

قَالَ الزُّهْرِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي النَّظَرِ إِلَى الْآتِي لَمْ تَحْضُرْ مِنَ النِّسَاءِ: لَا يَصْلِحُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُنَّ مِمَّنْ يَشْتَبِهِي النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً،^(٧) .

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) البِئَاءَةُ: الزَّوْاجُ.

(٣) وَجَاءُ، جَنَّةٌ وَوَقَايَةٌ، وَأَصْلُهُ رَضُّ عُرُوقِ الْأَنْثِيِّينَ حَتَّى تَنْقَضِحَ، فَيَكُونُ شَبِيهًا بِالْحَصَاةِ.

(٤) رواه البخاري (١٩٠٥) و(٥٠٦٥) و(٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).

(٥) «الورع» (ص ٦٢).

(٦) المرجع السابق (ص ٦٦).

(٧) «فتح الباري» (٩/١١).

وَأَسْبَابُ غَضِّ الْبَصْرِ كَثِيرَةٌ^(١)، لَكِنْ أَعْظَمُ سَبَبٍ لِغَضِّ الْبَصْرِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «إِنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لِغَضِّ الْبَصْرِ، وَتَحْصِينِ الْفَرْجِ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَعَضُّ عَنِ الْمَحَارِمِ مِنْكَ طَرْفًا^(٣) طَمُوحًا، يَفْتِنُ الرَّجُلَ اللَّيْبِيَا
وَحَائِنَةُ الْعُيُونِ كَأَسَدٍ غَابٍ^(٤) إِذَا مَا أَهْمَلْتَ وَثَبْتَ وَثُوبَا
وَمَنْ يَغْضُضُ فُضُولَ الطَّرْفِ عَنْهَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ رُوحًا^(٥) وَطَيْبَا



(١) انظر كتابي «فتنة النظر»، فقد تكلمت فيه عن غَضِّ الْبَصْرِ بتوسع، وكذلك فوائد غَضِّ الْبَصْرِ.

(٢) «فتح الباري» (٩/١١).

(٣) الطَّرْفُ: البصر.

(٤) الْأَسَدُ - بضم فسكون - : جَمْعُ أَسَدٍ، وَيُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَى أَسَدٍ، وَأَسَادٍ، وَأَسْدٍ، وَأُسُودٍ، وَأَسْدَانٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السَّبَاعِ اللَّبُونِ الْمُفْتَرِسَةِ، وَيُلَقَّبُ الْأَسَدُ بِمَلِكِ الْوَحُوشِ، وَأُنْثَاهُ تُسَمَّى لَبْوَةً، وَاللَّبْوَةُ لَعْنَةٌ فِيهَا.

(٥) الْغَابُ: جَمْعُ غَابَةٍ، وَهِيَ الشَّجَرُ الْكَثِيفُ الْمُلتَفُّ.

(٦) رُوحًا: راحة.

الغَيْرَةُ



الغَيْرَةُ: هي مَا رَكَّبَهُ اللهُ فِي الْعَبْدِ مِنْ قُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ، تَحْمِي الْمَحَارِمَ وَالشَّرَفَ وَالْعَفَافَ، وَهِيَ - كَمَا عَرَّفَهَا ابْنُ حَجْرٍ - مُشْتَقَّةٌ مِنْ تَغْيِيرِ الْقَلْبِ، وَهِيَ جَانِبُ الْغَضَبِ بِسَبَبِ الْمَشَارَكَةِ فِيمَا بِهِ الْاِخْتِصَاصُ، وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ ذَلِكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ^(١).

وهي - مع ذلك - خُلُقٌ مَحْمُودٌ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ، تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الرَّجُولَةِ، وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَأَصَالَةِ الْأَخْلَاقِ، وَطِيبِ الْأَعْرَاقِ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَغَارُ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِهِ أَغْيَرُ مِنْهُ.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ» ^(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «الْمُؤْمِنُ يَغَارُ لِلْمُؤْمِنِ، وَاللَّهُ أَشَدُّ غَيْرًا» ^(٣).

وعنه - أَيْضًا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ» ^(٤).

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٢٠)، وانظر «التعريفات» (ص ١٦٣)، و«التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ٢٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٤) و(٤٦٣٧) و(٥٢٢٠) و(٧٤٠٣)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم - واللفظ له - (٢٧٦١).

وَعَنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لَو رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصَفَّحٍ»^(١) عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ»^(٢).

وَكَمَا تَكُونُ الْغَيْرَةُ فِي الرَّجَالِ، تَكُونُ فِي النِّسَاءِ، فَهِيَ غَرِيْزَةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ، بَلْ قَدْ تَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ أَشَدَّ.

فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أختُ خَدِيْجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيْجَةَ^(٣)، فَارْتَأَحَ لِدَلِكِ^(٤)، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». فَغَرَّتْ فَقُلْتُ: «وَمَا تَذَكَّرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشُّدُقِيِّنَ»^(٥)، خَمْشَاءِ السَّاقِيْنَ، هَلَكْتَ فِي الدَّهْرِ، فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(٦).

وَعَنْهَا - أَيْضًا - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتْ الْقِرْعَةُ عَلَى عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، فَخَرَجَتَا مَعَهُ جَمِيْعًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا كَانَ اللَّيْلُ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ، يَتَحَدَّثُ مَعَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: «أَلَا تَرَكِبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيْرِي، وَأُرَكِّبُ بَعِيْرَكَ، فَتَنْظُرِينَ وَأَنْظُرِي؟». قَالَتْ: «بَلَى». فَرَكِبَتْ عَائِشَةُ عَلَى بَعِيْرِ حَفْصَةَ،

(١) غير مصفح: أي: ضاربه بحد السيف، لا بصفحه، وصفح السيف: عرضه وجانبه، فالذي يضرب بالحد يقصد القتل بخلاف الذي يضرب بعرض السيف، فإنه يقصد التأديب.

(٢) رواه البخاري (٦٨٤٦) و(٧٤١٦)، ومسلم - واللفظ له - (١٤٩٩).

(٣) وذلك لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكر خديجة بذلك.

(٤) فارتاح لذلك: أي هس لمجيئها، وسر بها لتذكره بها خديجة وأيامها.

(٥) حمراء الشدقين: تعني أنها كبيرة في السن جدًا، قد تساقطت أسنانها.

(٦) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم - واللفظ له - (٢٤٣٧).

وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله - ﷺ - إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلينها بين الإذخِر^(١)، وتقول: «يا رب، سلط علي عقرباً أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً»^(٢).

وعنها - أيضاً - قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله - ﷺ -، وأقول: «أوتهب المرأة نفسها؟». فلما أنزل الله - عز وجل -: ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ (سورة الأحزاب: ٥١).
قالت: «قلت: «والله، ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك»^{(٣) (٤)}.

■ أقسام الغيرة:

تنقسم الغيرة إلى قسمين:

١. محمودة: وهي الغيرة في الريبة.

٢. مذمومة: وهي الغيرة في غير ريبة.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللَّهُ، فَمَا مَا يُحِبُّ اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَا مَا يَكْرَهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ»^(٥).

(١) الإذخِر: نبت معروف طيب الرائحة، توجد فيه الهوامُ غالباً في البرية، واحدهُ إِذخِرَةٌ.

(٢) رواه البخاري (٥٢١١)، ومسلم - واللفظ له - (٢٤٤٥).

(٣) يسارع لك في هواك: أي يخفف عنك، ويوسع عليك في الأمور، ولهذا خيرك.

(٤) رواه البخاري (٤٧٨٨) و (٥١١٣)، ومسلم - واللفظ له - (١٤٦٤).

(٥) رواه ابن ماجه (١٩٩٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٢٩٠٥).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -:

«فَالْغَيْرَةُ الْمَحْبُوبَةُ هِيَ مَا وَافَقَتْ غَيْرَةَ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَهَذِهِ الْغَيْرَةُ هِيَ أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَهِيَ أَنْ تُؤْتَى الْفَوَاحِشُ الْبَاطِنَةُ وَالظَّاهِرَةُ ، لَكِنْ غَيْرَةُ الْعَبْدِ الْخَاصَّةِ هِيَ مِنْ أَنْ يَشْرَكَهُ الْغَيْرُ فِي أَهْلِهِ ، فَغَيْرَتُهُ عَنْ فَاحِشَةِ أَهْلِهِ لَيْسَ كَغَيْرَتِهِ مِنْ زَنَى الْغَيْرِ ؛ لِأَنَّ هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ بَغْضِهِ لِمُبْغِضَةِ اللَّهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْغَيْرَةُ الْوَاجِبَةُ عَلَيْهِ هِيَ مِنْ غَيْرَتِهِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ أَمْرَاتُهُ ، ثُمَّ أَقَارِبِهِ ، وَمَنْ هُوَ تَحْتَ طَاعَتِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ لَهُ إِذَا زَنَتْ أَنْ يُبْلَاغَهَا ؛ لِمَا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ خِلَافَ مَا إِذَا زَنَى غَيْرَ أَمْرَاتِهِ .

ولهذا يُحَدِّثُ قَاذِفُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَمْ يَكْمُلْ عَقْلُهَا وَدِينُهَا ، إِذَا كَانَ زَوْجُهَا مُحْصَنًا فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ .

فَالْغَيْرَةُ الْوَاجِبَةُ مَا يَتَّضَمُّهُ عَنِ الْمُخْزِي ، وَالْغَيْرَةُ الْمُسْتَحَبَّةُ مَا أُوجِبَتْ الْمُسْتَحَبُّ مِنَ الصِّيَانَةِ .

وَأَمَّا الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ الرَّبِيبَةِ - وَهِيَ الْغَيْرَةُ فِي مُبَاحِ لَا رَبِيبَةَ فِيهِ - فَهِيَ مِمَّا لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ ، بَلْ يَنْهَى عَنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ تَرْكٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَيُؤْتِهِنَّ خَيْرَ لَهْنٍ» (١) ، (٢) .

(١) رواه مسلم (٤٤٢) ، عن ابن عمر .

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية (ص ١٥٦) .

وَضِدُّ الْغَيْرَةِ الدِّيَاثَةُ، وَضِدُّ الْغَيُورِ الدِّيُوثُ: وَهُوَ الَّذِي يُقْرِئُ السُّوءَ فِي أَهْلِهِ، وَيَسْمَحُ لِأَهْلِهِ بِالنَّظَرِ لِلرِّجَالِ الْعُرَاةِ فِي التَّلْفَازِ، وَهُمْ يُعَانِقُونَ النِّسَاءَ، أَوْ يَتَحَدَّثُونَ مَعَهُنَّ، وَلَا غَيْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ، فَالدِّيُوثُ مُنْحَطُّ الْقَدْرِ، ذَنِيءُ الْهَمَّةِ، عَدِيمُ الشَّرَفِ، لَا يَسُودُ قَوْمَهُ، بَلْ لَا يَسُودُ قَوْمَهُ إِلَّا غَيُورٌ عَلَى مَحَارِمِهِ.

والدياثة كبيرة من كبائر الذنوب.

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ

عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُ، وَالدِّيُوثُ الَّذِي يُقْرِئُ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ»^(١).



(١) رواه أحمد في «المسند»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٥٢/١).

عَدَمُ الْإِنْشِغَالِ بِعُيُوبِ النَّاسِ



العَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَنْشَغَلُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَرْتَاحَ لَهُ النَّفُوسُ، وَتَأْتِسُ بِقُرْبِهِ الْقُلُوبُ، فَهُوَ مَحْبُوبٌ أَيْنَمَا حَلَّ وَارْتَحَلَ.

ولا يَنْشَغَلُ بِعُيُوبِ النَّاسِ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ إِلَّا غَيْرُ الْوَائِقِ بِنَفْسِهِ، الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُغْطِي عُيُوبَهُ بِذَلِكَ الْأَسْلُوبِ الرَّخِيسِ، وَقَدْ سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا يَقَعُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: «قَدْ اسْتَدَلَّتْ عَلَيَّ عُيُوبُكَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكَ لِعُيُوبِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الطَّالِبَ لَهَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهَا مِنْهَا».

والإنسان - لنقصه - يتوصل إلى عيب أخيه مع خفائه، وينسى عيب نفسه مع ظهوره ظهوراً مستحكما لا خفاء به.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «يَبْصُرُ أَحَدُكُمْ الْقَدَى^(١) فِي عَيْنِ أَخِيهِ^(٢)، وَيَنْسَى الْجِدْعَ^(٣) فِي عَيْنِهِ^(٤)».

قَالَ الشَّاعِرُ:

قَبِيحٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَنْسَى عُيُوبَهُ وَيَذْكُرُ عَيْبًا فِي أَخِيهِ قَدْ اخْتَفَى
وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَمَّا عَبَّ غَيْرَهُ وَفِيهِ عُيُوبٌ لَوْرَاهَا قَدْ اكَتَفَى

(١) القَدَى: ما يقع في العين من ترابٍ أو سَخٍّ، والمُفْرَدُ قَدَاةٌ.

(٢) أي في الإسلام.

(٣) الجِدْعُ: واحد جُدُوعِ النَّخْلِ.

(٤) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٨٤٨)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحلية» (٩٩/٤)، وصححه الألباني في

«صحيح الجامع» (٨٠١٣/٢)، و«الصَّحِيحَةُ» (٣٣).

وقال الآخر:

إذا أنتِ عِبتِ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَرُوا ٥ عليك، وأبدوا مِنْكَ ما كان يُسْتَرُ
 وَهَدُ كَانِ فِي بَعْضِ الْأَقْوَالِ قَائِلٌ ٥ تَهُ مَنْطِقٌ فِيهِ كَلَامٌ مُحَبَّرٌ
 إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ ٥ فلا عَيْبَ إِلَّا ما دونَ ما مِنْكَ يُذْكَرُ
 وَإِنْ عِبتِ قَوْمًا بِالَّذِي لَيْسَ فِيهِمْ ٥ فَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ أَكْبَرُ
 وَإِنْ عِبتِ قَوْمًا بِالَّذِي فِيكَ مِثْلُهُ ٥ فَكَيْفَ يَعِيبُ الْعُورُ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ؟
 وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ مَنْ عِيبُ نَفْسِهِ ٥ أَشَدُّ - إِذَا عَدَّ الْعُيُوبَ - وَأَنْكَرُ؟
 مَتَى تَلْتَمِسُ لِلنَّاسِ عَيْبًا تَجِدُ لَهُمْ ٥ عُيُوبًا، وَلَكِنَّ الَّذِي فِيكَ أَكْثَرُ
 فَسَأَلَهُمْ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ ٥ يَعِينُكَ مِنْ عَيْنَيْكَ أَهْدَى وَأَبْصَرُ^(١)

ولابدَّ للمرءِ مِنَ الْوَرَعِ وَالْكَفِّ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، فَقَدْ تَكُونُ الْغَفْلَةُ عَنْ
 عُيُوبِ النَّفْسِ هِيَ السَّبَبُ، كَمَا قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «مَا أَحْسَبُ أَحَدًا تَفَرَّغَ
 لِعَيْبِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ غَفْلَةٍ غَفَلَهَا عَنْ نَفْسِهِ»^(٢).

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُوَكَّلًا بِعُيُوبِ النَّاسِ، نَاسِيًا لِعَيْبِهِ -
 فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مَكَّرَ بِهِ»^(٣).

وَلَقِيَ وَرِعٌ وَرِعًا، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَخِي، إِنِّي لِأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ». قَالَ الْآخَرُ: «لَوْ
 عَلِمْتُ مِنْكَ مَا تَعَلَّمُ مِنْ نَفْسِكَ، لَكَانَ لِي فِيمَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي شُغْلٌ عَنْ بُغْضِكَ»^(٤).

(١) «روضة العقلاء» (ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٢) «صفة الصَّفْوَةِ» (١٠١/٣).

(٣) المرجع السابق (٢٤٩/٣).

(٤) «عيون الأخبار» (٣٦٧/٦).

قَالَ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

الْمَرْءُ إِنْ كَانَ عَاقِلًا وَرِعًا ◻◻◻ أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ وَرَعَهُ
كَمَا الْعَلِيلُ السَّقِيمُ أَشْغَلَهُ ◻◻◻ عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهُ^(١)

وَلَا يَنْشَغِلُ بِعُيُوبِ النَّاسِ عَنْ عُيُوبِ نَفْسِهِ إِلَّا مَنْ سَفَلَتْ نَفْسُهُ، وَتَعَدَّتْ بِهِ
هَمَّتُهُ عَنْ نَيْلِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، بَلْ لَقَدْ عَدَّ الْإِمَامُ السَّخَاوِيُّ - يَرْحَمُهُ
اللَّهُ - الْأَنْشَغَالَ بِعُيُوبِ النَّاسِ مِنْ خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ^(٢).

وَمَنْ كَلَّفَ نَفْسَهُ الْبَحْثَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، بَحَثَ النَّاسُ عَنْ عُيُوبِهِ؛ فَالْجَزَاءُ
مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

قَالَ الْأَعْمَشُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ يَقُولَ: «إِنِّي لَأَرَى الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي
أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةٌ أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ»^(٣).

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «عَيَّرْتُ رَجُلًا، وَقَلْتُ: يَا مُفْلِسُ، فَأَفْلَسْتُ
بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(٤).

قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا ◻◻◻ فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكََا
وَإِذْكَرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَرُوا ◻◻◻ وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكََا^(٥)

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٧٩).

(٢) «فتح المغيث» (١/ ٢٩١).

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٦٧٧٥).

(٤) «صيد الخاطر» (ص ٤٠).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٦).

حِفْظُ اللِّسَانِ



مَنَحَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْإِنْسَانَ نِعْمًا عَظِيمَةً، وَمِنْ أَعْظَمِهَا - بَعْدَ نِعْمَةِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ - نِعْمَةُ اللِّسَانِ، وَمِنْ شُكْرَانِ هَذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ نَسْتُخْدِمَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْإِمْتِنَاعِ عَنِ النُّطْقِ بِمَا لَا يَسُوعُ شَرْعًا مِمَّا لَا حَاجَةَ لِمُتَكَلِّمٍ بِهِ^(١).

وَالْإِنْسَانُ مَسْئُولٌ عَمَّا قَالَهُ أَوْ تَلَفَّظَ بِهِ، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَلَا تَقْفُ^(٢) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء: ٣٦).

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ^(٣) عَتِيدٌ^(٤)﴾ (سورة ق: ١٨).

فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا هُوَ خَيْرٌ، وَإِلَّا فَالْسُكُوتُ عَنْهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٥).

(١) «فتح الباري» (٣٠٨/١١).

(٢) لا تقف: لا تتبع.

(٣) رقيب: ملك يرقبه.

(٤) عتيد: حاضر مهيب.

(٥) رواه البخاري (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٣٧٥)، ومسلم (٤٧).

قَالَ النَّوَوِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «وَهَذَا الْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا يَتَكَلَّمَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ خَيْرًا، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، وَمَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ الْمَصْلَحَةِ فَلَا يَتَكَلَّمُ»^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

الصَّمْتُ زَيْنٌ، وَالسُّكُوتُ سَلَامَةٌ ■ ■ ■ فَإِذَا نَطَقْتَ فَلَا تَكُنْ مِثْلَ مِثَارَا
فَإِذَا نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّةً ■ ■ ■ فَلَتَنْدَمَنَّ عَلَى الْكَلَامِ مِرَارًا^(٢)

وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْكَلَامِ بِأَهْلِهِ ■ ■ ■ حَسَنٌ، وَإِنْ كَثِيرُهُ مَمْقُوتٌ
مَا زِلَّ ذُو صَمْتٍ، وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ ■ ■ ■ إِلَّا يَزِلُّ، وَمَا يُعَابُ صَمُوتٌ^(٣)

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ:

وَاجْتَنِمِ رَكَعَتَيْنِ زُلْفَى^(٤) إِلَى اللَّهِ ■ ■ ■ إِذَا كُنْتَ فَارِغًا مُسْتَرِيحًا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالْمَنْطِقِ الْبَا ■ ■ ■ طَلِّ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحًا
إِنَّ بَعْضَ السُّكُوتِ خَيْرٌ مِنَ النُّطْ ■ ■ ■ قَرِّ وَإِنْ كُنْتَ بِالْكَلامِ فَصِيحًا

وَالْأَحَادِيثُ فِي بَيَانِ خَطَرِ اللِّسَانِ، وَشَرِّهِ عَلَى الْمَرْءِ - مَا لَمْ يَضْبِطْهُ - كَثِيرَةٌ، مِنْهَا حَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النُّجَاةُ؟» قَالَ: «أَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلا يَسْعَكَ بَيْتُكَ، وَأَبُكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(٥).

(١) «رياض الصالحين» (ص ٤٤٥).

(٢) و (٣) «جواهر الأدب» (ص ٧١٨).

(٤) الزُّلْفَى: الْقُرْبَةُ وَالْمَنْزَلَةُ.

(٥) رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/١٣٩٢)، و«الصحيحة» (٨٩٠).

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: «قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟. فَاخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»^(١).

وَلَمَّا دَلَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُعَاذًا عَلَى خِصَالِ الْخَيْرِ - الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالصَّدَقَةِ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالْجِهَادِ - قَالَ لَهُ: «إِلَّا أَخْبِرُكَ بِمَبْلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟». قَالَ: «بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ». فَاخَذَ بِلِسَانِهِ، وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟». فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أَمَّكَ^(٢) يَا مُعَاذًا، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ. أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ. إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تَكْفُرُ اللِّسَانَ^(٤)؛ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا»^(٥).

وَحَفِظُ اللِّسَانِ عَمَّا لَا خَيْرَ فِيهِ مِنْ أَعْظَمِ أَعْمَالِ ابْنِ آدَمَ.

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ^(٦)، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ^(٧)، أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٨).

(١) رواه الترمذي (٢٤١٠)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢).

(٢) تَكَلَّمْتَ أَمَّكَ: فَقَدْتِكَ.

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الالباني في «صحيح الجامع» (٥١٣٦/١).

(٤) تَكْفُرُ اللِّسَانَ: تَذَلُّ وَتَخَضَعُ لَهُ، أَوْ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ تَزِيلِ الْأَعْضَاءِ اللِّسَانَ مِثْلَ الْكَافِرِ بِالنَّعَمِ.

(٥) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الالباني في «صحيح الجامع» (٣٥١/١).

(٦) مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ: هُوَ اللِّسَانُ. وَاللَّحْيَانِ: هُمَا الْعِظْمَانِ اللَّذَانِ تَبَّتْ عَلَيْهِمَا الْأَسْنَانُ، وَجَمْعُ لَحْيٍ أَلْحَى عَلَى أَفْعَلٍ، وَلَحْيٌ عَلَى فُعُولٍ.

(٧) مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ: هُوَ الْفَرْجُ.

(٨) رواه البخاري (٦٤٧٤) و(٦٨٠٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ حَسُنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

وَعَالِبُ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ.

فَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرًا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَحَرِيٌّ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَزَلُّ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْهُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ»^(٣) مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٤).

وَعنه - أَيْضًا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بِالْأَلْفِ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بِالْأَلْفِ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٥).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «لَا يُلْقِي لَهَا بِالْأَلْفِ: أَيُّ لَا يَتَأَمَّلُهَا بِخَاطِرِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي عَاقِبَتِهَا، وَلَا يَظُنُّ أَنَّهَا تُؤَثِّرُ شَيْئًا»^(٦).

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الالباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١/٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، وحسنه الأرنؤوط في «جامع الأصول» (٧٣١/١١).

(٣) يتبين: يفكر أنها خير أم لا.

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم - واللفظ له - (٢٩٨٨).

(٥) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٦) «فتح الباري» (٣١١/١١).

وللهِ درُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حِينَ قَالَ: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ»^(١)،
وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتْ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

يُصَابُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةِ بِلْسَاتِهِ ۝ ۝ ۝ وَلَيْسَ يُصَابُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ
فَعَثْرَتُهُ فِي الْقَوْلِ تَذْهَبُ رَأْسَهُ ۝ ۝ ۝ وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجُلِ تَبْرَأُ^(٣) عَلَى مَهْلٍ^{(٤) (٥)}

وَقَالَ آخَرُ:

أَحْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ۝ ۝ ۝ لَا يَلْدَغَنَّكَ، إِنَّهُ تُغْبِيَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ ۝ ۝ ۝ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ^(٦)



(١) السَّقَطُ - بفتح السين - : الخطأ في الكلام.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٦١).

(٣) تَبْرَأُ: تُشْفَى، وَأَصْلُهَا تَبْرَأُ، فَحُدِفَتِ الْهَمْزَةُ تَسْهِلًا.

(٤) الْمَهْلُ: التُّؤَدَةُ وَالتَّأْيِي.

(٥) «شذرات الذهب» (٢/١٠٦).

(٦) «جواهر الأدب» (ص ٧١٨).

تَجَنَّبُ آفَاتِ اللِّسَانِ

الآفة الأولى

الغيبية



الغيبية من أخطر آفات اللسان، وهي مرضٌ خطيرٌ يفرق بين الأحباب، ومن أحسن تعاريفها: «ذكر العيب بظهر الغيب»^(١).

وأحسن من ذلك التعريف تعريف النبي - ﷺ - لها بأنها: ذكر أخاك بما يكرهه من خلفه.

فَعَنَ الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «الغيبية: أن تذكر الرجل بما فيه من خلفه»^(٢) ^(٣).

وَعَنَ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ». قِيلَ: «أَفَرَأَيْتَ (٤) إِنْ كَانَ

(١) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ٢٥٤).

(٢) قال الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٤٠): «اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسيه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه، وحتى في ثوبه، وداره، ودابته».

(٣) رواه الخرائطي في «مساوي الأخلاق»، ورواه مالك بمعناه مُرسلاً، وصححه الألباني في «صحيح

الجامع» (١/ ٤١٨٦)، و«الصحيح» (١٩٩٢).

(٤) أفرأيت: أخبرني.

في أخي ما أقول^(١)، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته^(٢).

■ أسباب الغيبة:

بواعث الغيبة كثيرة، منها:

- ١ - شفاء المعتاب غيظه بذكر مساوي من يغتابه.
- ٢ - مجاملة الأقران والرفاق، ومشاركتهم فيما يخوضون فيه من الغيبة.
- ٣ - ظنُّ المعتاب في غيره ظناً سيئاً مدعاةً إلى الغيبة.
- ٤ - أن يرى المعتاب نفسه من شيء، وينسبه إلى غيره، أو يذكر غيره بأنه مشارك له.
- ٥ - رفع النفس وتزكيتها بتنقيص الغير.
- ٦ - حسد من يثني عليه الناس، ويذكرونه بخير.
- ٧ - الاستهزاء والسخرية، وتحقير الآخرين^(٣).

■ حكم الغيبة:

الغيبة من كبائر الذنوب، وهي محرمة بإجماع المسلمين، تظاهرت على تحريمها أدلة الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة^(٤).

(١) بهته: افتريت عليه الكذب، يقال: بهته بهتاً وبهتاناً: أي قال عليه ما لم يفعل، وبأبه قطع.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩).

(٣) انظر «الإحياء» (٣/١٤٣ - ١٤٤) بتصرف بإفادة «نظرة النعيم» (١١/٥١٦٣).

(٤) «فتح الباري» (١٠/٤٧٣).

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فَالَّذِي يَذْمُ أَخَاهُ فِي غَيْبَتِهِ كَمَنْ يَنْهَشُهُ وَيَأْكُلُ لَحْمَهُ وَهُوَ مَيْتٌ، لَا يَحْسُ أَلَمَ النَّهْشِ وَالْأَكْلِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «أَيُّ كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا، فَأَكْرَهُهُ شَرْعًا؛ فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، وَهَذَا مِنَ التَّنْفِيرِ عَنْهَا، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا»^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ، يَخْمِشُونَ^(٢) وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «حَسْبُكَ» مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا^(٦) - قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ: تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَ بِهَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/٢٥٤).

(٢) يَخْمِشُونَ: يَجْرَحُونَ.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٥٢١٣)، و«الصحيح» (٥٣٣).

(٤) رواه أحمد (٤٢٠/٤ - ٤٢١) وأبو داود (٤٨٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٧٩٨٤).

(٥) حَسْبُكَ: كَافِيكَ.

(٦) استدل العلماء بهذا الحديث بأن الغيبة تقع بغير اللسان. قال النووي: «وكذا سائر ما يتوصل به إلى

فهم المقصود: كان يمشي مشيته فهو غيبته، بل هو أعظم من الغيبة» «الزواجر» (٢/١٧).

البحر لمزجته.. قالت: «حكيت له إنساناً»^(١)، فقال: «ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا»^(٢).

قال النووي - يرحمه الله -: «ومعنى مزجته: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه، أو ريحه لشدة ثنتها وقبحها، وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»^{(٤) (٥)}.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - خطب الناس يوم النحر، فقال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟» قالوا: «يوم حرام». قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: «بلد حرام». قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: «شهر حرام». قال: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه، فقال: «اللهم، هل بلغت؟»، اللهم، هل بلغت؟».

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «فوالذي نفسي بيده، إنها لو صيئت إلى أمته: «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٦).

(١) حكيت له إنساناً: أي حكيت له حركة إنسان يكرها، بمعنى: فعلت مثل فعله.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٥١٤٠ و٥٥١٥).

(٣) «رياض الصالحين» (ص ٤٤٨).

(٤) العرض - بالكسر -: الحسب.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٦) رواه البخاري (١٧٣٩).

إِنَّ لِلْغَيْبَةِ خَطْرًا عَظِيمًا، وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ مَنْ نَقَعَ فِيهِ يَرْتَعُ فِي حَسَنَاتِنَا.
 قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «وَاللَّهِ، لِلْغَيْبَةِ أَسْرَعُ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْأَكْلَةِ»^(١)
 فِي الْجَسَدِ»^(٢).

وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا قَدْ اغْتَابَكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رُطْبًا عَلَى طَبَقِي، وَقَالَ: «قَدْ بَلَغَنِي
 أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ حَسَنَاتِكَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْفَيْتَكَ عَلَيْهَا، فاعذُرْنِي فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ
 أَنْ أَكْفَيْتَكَ عَلَى التَّمَامِ»^(٣).

وَكَتَبَ أَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى رَجُلٍ كَانَ يَقَعُ فِيهِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعَنِي
 أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ أَنْ تَتَزَايِدَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ إِلَّا كَرَاهِيَةً أَنْ أُعِينِكَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ،
 وَاعْلَمْ أَنِّي أَرْتَعُ فِي حَسَنَاتِكَ كَمَا تَرَعَى الشَّاةُ الْخَضِرَ، وَالسَّلَامُ»^(٤).

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَّاضٍ: إِنَّ فُلَانًا يَغْتَابُنِي. قَالَ: «قَدْ جَلَبَ لَكَ الْخَيْرَ
 جَلْبًا»^(٥).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: «لَوْ لَا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ، تَمَنَيْتُ أَلَّا يَبْقَى
 فِي هَذَا الْمَصْرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَعَ فِيَّ وَأَغْتَابَنِي؛ فَأَيُّ شَيْءٍ أَهْنَأُ مِنْ حَسَنَةٍ يَجِدُهَا الرَّجُلُ
 فِي صَحِيفَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَمْ يَعْمَلْهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهَا»^(٦).

(١) الأكلة: داءٌ يَقَعُ فِي الْعُضْوِ، فَيَأْتِكِلُ مِنْهُ.

(٢) «الإحياء» (٣/١٤٠).

(٣) المرجع السابق (٣/١٥١).

(٤) «ترتيب المدارك» (١/٤٥٩).

(٥) «حلية الأولياء» (٤/١٠٤).

(٦) «صفة الصفوة» (٤/٥ - ٦).

قَالَ الشَّاعِرُ:

يُشَارِكُكَ الْمُغْتَابُ فِي حَسَنَاتِهِ ◻ ◻ ◻ وَيُعْطِيكَ أَجْرِي صَوْمِهِ وَصَلَاتِهِ
وَيَحْمِلُ وِزْرًا عَنْكَ ضَنْ بِحَمَلِهِ ◻ ◻ ◻ عَنِ النَّجْبِ ^(١) مِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ
فَلَا تَعْجَبُوا مِنْ جَاهِلٍ ضَرَّ نَفْسَهُ ◻ ◻ ◻ بِإِمْعَانِهِ، فِي نَفْعِ بَعْضِ عُدَاتِهِ
وَيَحْمِلُ مِنْ أَوْزَارِهِ وَذُنُوبِهِ ◻ ◻ ◻ وَيَهْلِكُ فِي تَخْلِيصِهِ وَنَجَاتِهِ ^(٢)

■ مَا مَوْقُفٌ مَنْ سَمِعَ الْغَيْبَةَ؟

على مَنْ سَمِعَ الْغَيْبَةَ أَنْ يَرُدَّهَا، وَيَنْصَحَ قَائِلَهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ الْمُغْتَابُ مِنْهُ
النَّصِيحَةَ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ
مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، وَإِنْ خَذَلَهُ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ.

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ - رضي الله عنهما - قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
- صلى الله عليه وسلم - : «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ
فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ. إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا
فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ - إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ
يُحِبُّ نَصْرَتَهُ» ^(٣).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ،
رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٤).

(١) النُّجْبُ: جَمْعُ نَجِيبٍ، وَهُوَ الْكَرِيمُ، وَبَابُهُ ظَرْفٌ.

(٢) «إرشاد العباد» (ص ١٠٤).

(٣) رواه أبو داود - واللفظ له - (٤٨٨٤)، وأحمد (٣٠ / ٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢ / ٥٦٩٠).

(٤) رواه الترمذي (١٩٣١)، وأحمد (٤٥٠ / ٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢ / ٦٢٦٢).

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية - رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «مَنْ ذَبَّ
عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وَعَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ - رضي الله عنه - فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ الْمَشْهُورِ قَالَ: قَامَ
النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يُصَلِّي، فَقَالُوا: «أَيْنَ مَالِكِ بْنِ الدُّخَيْشِينَ. أَوْ ابْنُ الدُّخَشْنِ». فَقَالَ
بَعْضُهُمْ: «ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ؛ إِلَّا
تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». قَالَ: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «فَإِنَّا
نَرَى وَجْهَهُ وَنُصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ
مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٢).

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ تَوْبَتِهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ
- صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟». قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ:
«يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بَرْدَاهُ، وَالنَّظْرُ فِي عِطْفِيهِ»^(٣). فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ - رضي الله عنه -: «يُنْسَ مَا
قُلْتُمْ، وَاللَّهِ. يَا رَسُولَ اللَّهِ. مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا». فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -،^{(٤)(٥)}

(١) رواه أحمد (٤٦١/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٢٢٤٠).

(٢) رواه البخاري (٤٢٥)، (١١٨٦) و (٥٤٠١) و (٦٩٣٨)، ومسلم (٣٣).

(٣) عِطْفِيهِ: جَانِبِيهِ. وَالْعِبَارَةُ كِنَايَةٌ عَنِ الْخِيَلَاءِ وَالْعُجْبِ وَالْكِبْرِ.

(٤) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم - وَاللَّفْظُ لَهُ - (٢٧٦٩).

(٥) قَالَ النَّوَوِيُّ - بِرَحْمَةِ اللَّهِ -: «يَبْتَغِي لِمَنْ سَمِعَ غِيْبَةً مُسْلِمٍ أَنْ يَرُدَّهَا، وَيَزْجُرَ قَائِلَهَا، فَإِنْ لَمْ يَزْجُرْهُ
بِالْكَلَامِ زَجْرُهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِالْيَدِ وَلَا بِاللِّسَانِ، فَارَقَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، فَإِنْ سَمِعَ غِيْبَةً شَيْخِهِ، أَوْ
غَيْرِهِ مِمَّنْ لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ - كَانَ الْاِعْتِنَاءُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَكْثَرَ». «الاذْكَارُ»
(ص ٢٩٤).

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْحَارِثِ الْهَاشِمِيُّ:

وَسَمِعَكَ صُنَّ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ ۝ ۝ مَكَصُونَ اللِّسَانَ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَبِإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ ۝ ۝ حِ شَرِيكَ لِقَائِهِ فَاَنْتَبِهَ (١)

■ مَا يُبَاحُ مِنَ الْغَيْبَةِ؟:

قَالَ النَّوَوِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «اعْلَمْ أَنَّ الْغَيْبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ، لَا
يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ سِتَّةُ أَسْبَابٍ:

الْأَوَّلُ - التَّظَلُّمُ: فَيَجُوزُ لِلْمَظْلُومِ أَنْ يَتَّظَلَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ، وَالْقَاضِي، وَغَيْرِهِمَا
مِمَّنْ لَهُ وِلَايَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فَيَقُولُ: ظَلَمَنِي فَلَانَ بِكَذَا.

الثَّانِي - الْاسْتِعَانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ: وَرَدُّ الْعَاصِي إِلَى الصَّوَابِ، فَيَقُولُ لِمَنْ
يَرْجُو قُدْرَتَهُ عَلَى إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ: فَلَانَ يَعْملُ كَذَا، فَازْجُرْهُ عَنْهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ،
وَيَكُونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلَ إِلَى إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ كَانَ حَرَامًا.

الثَّلَاثُ - الْاسْتِفْتَاءُ: فَيَقُولُ لِلْمُفْتِي: ظَلَمَنِي أَبِي - أَوْ أَخِي، أَوْ زَوْجِي، أَوْ
فُلَانٌ - بِكَذَا، فَهَلْ لَهُ ذَلِكَ؟، وَمَا طَرِيقِي فِي الْخَلَاصِ مِنْهُ، وَتَحْصِيلِ حَقِّي،
وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا جَائِزٌ لِلْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ الْأَحْوَطَ وَالْأَفْضَلَ أَنْ
يَقُولَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ - أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ - كَانَ مِنْ أَمْرِهِ كَذَا؟؛ فَإِنَّهُ
يَحْصُلُ بِهِ الْغَرَضُ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالتَّعْيِينُ جَائِزٌ.

الرَّابِعُ - تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الشَّرِّ وَنَصِيحَتُهُمْ: وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ:

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٨٤).

منها: جرحُ المجرُوحين من الرواة والشهود، وذلك جائزٌ بإجماع المسلمين، بل واجبٌ للحاجة.

ومنها: المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجبُ على المشاورِ ألا يخفي حاله، بل يذكرُ المساوي التي فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفكها يترددُ إلى مبتدع، أو فاسق، يأخذُ عنه العلم، وخاف أن يتضررَ المتفكهُ بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلطُ فيه، وقد يحملُ المتكلمُ بذلك الحسد، ويلبسُ الشيطانُ عليه ذلك، ويخيلُ إليه أنه نصيحة، فليتقنُ لذلك.

ومنها: أن يكونَ له ولايةٌ لا يقومُ بها على وجهها: إما بالألّا يكونَ صالحًا لها، وإما بأن يكونَ فاسقًا، أو مغفلًا، ونحو ذلك، فيجبُ ذكرُ ذلك لمن له عليه ولايةٌ عامة؛ ليزيله ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغترَّ به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة، أو يستبدل به.

الخامس - أن يكونَ مجاهرًا بفسقه، أو بدعته: كالمجاهرِ بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس^(١)، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوزُ ذكره بما يجاهرُ به، ويحرمُ ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكونَ لجوازه سببٌ آخر مما ذكرناه.

(١) المكس - بالفتح -: ما يؤخذُ من أموال الناس على هيئة ضريبة.

السَّادِسُ - التَّعْرِيفُ: فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَعْرُوفًا بِلَقَبٍ: كَالْأَعْمَشِ، وَالْأَعْرَجِ، وَالْأَصْمِّ، وَالْأَعْمَى، وَالْأَحْوَلِ، وَغَيْرِهِمْ - جَازَ تَعْرِيفُهُمْ بِذَلِكَ، وَيَحْرُمُ إِطْلَاقُهُ عَلَى جِهَةِ التَّنْقِيسِ، وَلَوْ أَمَكْنَ تَعْرِيفُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ أَوْلَى.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أَسْبَابٍ ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ، وَأَكْثَرُهَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلَائِلُهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَشْهُورَةٌ^(١). ثُمَّ سَاقَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - تِلْكَ الْأَدَلَّةَ.

■ قلتُ: هَذَا هُوَ الضَّابِطُ لِمَنْ تَوَافَرِ فِيهِ الْعِلْمُ وَالْقَصْدُ، وَقَدْ جَمَعَهَا النَّازِمُ بِقَوْلِهِ:

الْقَدْحُ لَيْسَ بِغَيْبَةٍ فِي سِتَّةٍ: ■ ■ ■ مُتَظَلِّمٌ، وَمُعَرِّفٌ، وَمُحَذِّرٌ
وَمُجَاهِرٌ فَسَقًا، وَمُسْتَفْتٍ، وَمَنْ ■ ■ ■ طَلَبَ الْإِعَانَةَ فِي إِزَالَةِ مُنْكَرٍ^(٢)



(١) «رياض الصالحين» (ص ٤٥ - ٥١).

(٢) «العقيدة الطَّحَاوِيَّةُ» (ص ٣٤).

الآفة الثانية النميمة



النَّمِيمَةُ مِنْ أخطرِ آفاتِ اللِّسَانِ، وتُتَلَقُّ فِي الغالبِ عَلَى قَوْلِ إنسانٍ فِي إنسانٍ، مثلُ أن يقولَ: قالَ فِيكَ فلانٌ كذاً وكذاً، وَلَيْسَتْ مخصصةً بِهَذَا، بَلْ حَدُّهَا كَشْفُ ما يُكرَهُ كَشْفُهُ، سِوَاءَ أَكانَ مِنَ الأَقْوالِ أَوْ الأَعْمالِ، حَتَّى لو رآه يَدْفِنُ ما لَأَ لِنَفْسِهِ فَذَكَرَهُ فَهُوَ نَمَّامٌ^(١).

وَعَدَّها بَعْضُهُم مِنَ أنواعِ السَّحْرِ؛ لِأنَّها تُشَارِكُ السَّحْرَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَغْيِيرِ قُلُوبِ المُتَحايِّينَ، وَتَلْقِيحِ الشُّرُورِ^(٢).

قالَ يحيى بنُ أَكْثَمَ: «النَّمَّامُ شرٌّ مِنَ السَّاحِرِ، وَيَعْمَلُ النَّمَّامُ فِي ساعَةٍ ما لا يَعمَلُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ»^(٣).

ويُقالُ: «عَمَلُ النَّمَّامِ أَضْرُّ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطانِ؛ لِأَنَّ عَمَلَ الشَّيْطانِ بِالخَيالِ وَالوَسْوَسةِ، وَعَمَلَ النَّمَّامِ بِالْمُواجَهَةِ وَالْمُعايِنَةِ»^(٤).

وإِليكَ - أَخِي فِي اللّهِ - قِصَّةٌ تَحكي شَرًّا مِنَ شُرُورِ النَّمِيمَةِ الكُبْرَى، وَأثراً مِنْ آثارِها السَّيِّئَةِ.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٧٤).

(٢) انظر «فتح المجيد» (ص ٣٢٥).

(٣) و (٤) «تنبيه الغافلين» (ص ٨٩).

رُوي عن حماد بن سلمة أنه قال: «باع رجل عبداً، وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: قد رضيت، فاشترأه، فمكث الغلام أياماً، ثم قال لزوجته مولاة: إن سيدي لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى^(١) عليك، فخذني موسى^(٢)، وأحلقني من شعر قفاه عند نومه شعرات؛ حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً، وتريد أن تقتلك، فتناوم لها^(٣)؛ حتى تعرف ذلك، فتناوم لها، فجاءت المرأة بالموسى، فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين^(٤)».

قال الشاعر:

فَمِنْ أَجْلِ وَاشِرٍ^(٥) كَاشِحٍ^(٦) بِنَمِيمَةٍ مَشَى بَيْنَنَا صَدَقْتَهُ لِمَ تَكْذِبُ
وَقَطَّعْتَ حَبْلَ الْوَصْلِ عَنَّا، وَمَنْ يُطْعُ بِنَدِي وَدُهُ قَوْلَ الْمُحْرَشِ^(٧) يُعْتَبُ

■ الباعث على النميمة:

يَبْعَثُ عَلَى النَّمِيمَةِ أُمُورٌ مِنْهَا:

١ - إِرَادَةُ السُّوءِ بِالْمَحْكِيِّ عَنْهُ.

(١) يَتَسَرَّى عَلَيْكَ: يَتَزَوَّجُ أُمَّةً يُرْهَأُ وَيَسْتَرْهَأُ عَنْكَ.

(٢) الْمَوْسَى: آلَةُ الْحَلْقِ.

(٣) تَنَاوَمَ لَهَا: تَطَاهَرَ لَهَا بِالنَّوْمِ.

(٤) «الإحياء» (٣/١٥٤).

(٥) وَاشِرٌ: الَّذِي يُزَيِّنُ الْحَدِيثَ بِالْكَذِبِ؛ لِيَسْمَعَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْإِفْسَادِ.

(٦) كَاشِحٌ: مُضْمِرُ الْعِدَاوَةِ، وَبَابُهُ قَطَعَ.

(٧) الْمُحْرَشُ: السَّاعِي بَيْنَ النَّاسِ بِالْإِفْسَادِ لِتَغْيِيرِ قُلُوبِهِمْ وَتَقَاطِعِهِمْ.

٢ - الحُبُّ للمحكي عنه (وهذا في ظاهر الأمر، وإلاَّ فإنَّ مَنْ يُحِبُّ إنساناً على الحقيقة فإنَّهُ لا يبلغُهُ ما يسوءُهُ).

٣ - الفَرَحُ بالخَوْضِ في الباطل^(١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَنَحُّ عَنِ النَّمِيمَةِ وَاجْتَنِبْهَا ■ ■ ■ فَإِنَّ النَّمَّ يُحْبِطُ كُلَّ أَجْرٍ
يُثِيرُ أَخُو النَّمِيمَةِ كُلَّ شَرٍّ ■ ■ ■ وَيَكْشِفُ لِلخَلَائِقِ كُلِّ سِرٍّ
وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ وَسِوَاهُ ظُلْمًا ■ ■ ■ وَلَيْسَ النَّمُّ مِنْ أَفْعَالِ حُرٍّ^(٢)

■ حُكْمُ النَّمِيمَةِ:

النَّمِيمَةُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى تَحْرِيمِهَا الدَّلَائِلُ الشَّرْعِيَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(٣).

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (سورة القلم: ١١).

ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (سورة القلم: ١٣).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ: «الزَّيْمُ: وَكَدُّ الزَّيْنِ الَّذِي لَا يَكْتُمُ الْحَدِيثَ، وَأَشَارَ بِهِ إِلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يَكْتُمِ الْحَدِيثَ، وَمَشَى بِالنَّمِيمَةِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ وَكَدُّ زَيْنٍ اسْتِنْبَاطًا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ»^(٤).

(١) انظر «الزَّوْاجِر» (ص ٣٩٦).

(٢) «مَوَارِدُ الظَّمَانِ» (٣/٣٨٥).

(٣) انظر «الذِّكْرَار» (ص ٢٨٩)، و«الكبائر» (ص ١٦٠)، و«الزَّوْاجِر» (ص ٣٩٥).

(٤) «مَكْشَفَةُ الْقُلُوبِ» (ص ٤٥٣).

وقال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَلٌ (١) لِكُلِّ هُمَزَةٍ (٢) لُمَزَةٌ (٣) ﴾ (سورة الهمزة: ١).

وقال أكثر المفسرين في قوله - تعالى - : ﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (سورة المد: ٤).

قَالُوا: إِنَّ الْحَطَبَ أَرَادَ بِهِ النَّمِيمَةَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ النَّمِيمَةُ حَطَبًا؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْقِتَالِ، فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ إِيقَادِ الْحَطَبِ (٤).

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ » (٥).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أَنَّهُ قَالَ: « مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ - عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ». ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ» (٦).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ - قَالَ: «أَلَا أُنبئُكُمْ مَا الْعِضَةُ؟ (٧)، هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ (٨) بَيْنَ النَّاسِ» (٩).

(١) وَيَلٌ: أَي وَعِيدٌ وَوِبَالٌ.

(٢) الهمّاز: هو الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالفعل والإشارة.

(٣) اللّمّاز: هو الذي يعيب الناس بقوله.

(٤) «تنبيه الغافلين» (ص ٨٩).

(٥) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم - واللفظ له - (١٠٥). وهنا فائدة مهمة حول هذا الحديث: قال ابن

حجر - يرحمه الله -: «أي: في أول وهلة كما في نظائره»، «الفتح» (١٠/٤٧٣).

قلنا: هذا مذهب أهل السنة والجماعة، فإنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بشيء من المعاصي ما لم يستحلّه، إلا ما خصّه الدليل.

(٦) رواه البخاري - واللفظ له - (٢١٦) و (٢١٨) و (١٣٦١) و (١٣٧٨) و (٦٠٥٢) و (٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢).

(٧) العِضَةُ - بِنَزِيَةِ الْوَجْهِ -: مَصْدَرُ عَضَّهَا عَضًّا: أَي رَمَاهُ بِالْعِضَةِ. وَرُويَ الْعِضَةُ: بِنَزِيَةِ الْعِدَّةِ، وَهِيَ الْكَذِبُ وَالْبُهْتَانُ، وَقَدْ أُطْلِقَتْ عَلَى النَّمِيمَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْفَكُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ غَالِبًا، وَجَمْعُ عِضَةٍ عِضُونَ.

(٨) القالة: كثرة القول، أو إيقاع الخصومة بين الناس.

(٩) رواه مسلم (٢٦٠٦).

وعن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - عليه السلام - : «إلا أخبركم بشرككم؟» . قالوا: «بلى» . قال: «المشأؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة،
الباغون للبراء والعنت» (١) .

قال قتادة - يرحمه الله - : «ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول» (٢) .

أخي، النمام ينبغي أن يبغض، ولا يوثق بقوله، ولا بصداقته؛ لأنه لا يخاف ربه - جلّ وعلا -، فديدته إيقاع العداوة والبغضاء، وإحلال التدابر والتفرق مكان المحبة والاجتماع.

قال الشاعر:

تمشيت فينا بالنميمة، وإنما تفرق بين الأضفياء النمام
ومازلت منسوبا إلى كل آفة وما زال منسوبا إليك الملائم
لأنك لم تندم لشرفعلته وما تأت من خير فإنك نادم (٣)

سعى رجلٌ بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل، وقال:

فأنت امرؤٌ إما ائتمنتك خاليا فحنت، وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم (٤)

(١) العنت - بفتحين - : الإثم، وبابه طرب.

(٢) رواه أحمد في «السند» .

(٣) «الإحياء» (٣/ ١٤٠) .

(٤) «روضة العقلاء» (ص ١٧٧) .

(٥) «الإحياء» (٣/ ١٥٤) .

وَمَنْ نَمَّ لَكَ الْيَوْمَ نَمَّ عَلَيْكَ غَدًا.

قال الحسن البصري - يرحمه الله -: «مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ»^(١).

قال الشاعر:

لَا تَقْبَلَنَّ نَمِيمَةً بُلُغْتَهَا ◻◻◻ وَتَحَفَظَنَّ مِنَ الَّذِي أَنْبَاكَهَا^(٢)

إِنَّ الَّذِي أَهْدَى إِلَيْكَ نَمِيمَةً ◻◻◻ سَيْنَمُ عَنْكَ بِمِثْلِهَا قَدْ حَاكَهَا^{(٣)(٤)}

وقال آخر:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمِنْ عَصَارِيهُ ◻◻◻ عَلَى الصَّدِيقِ، وَلَمْ تُؤْمِنْ أَفَاعِيهِ

كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ ◻◻◻ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ؟

فَالْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ، كَيْفَ يَنْقُضُهُ؟ ◻◻◻ وَالْوَيْلُ لِلوُدِّ مِنْهُ، كَيْفَ يُفْنِيهِ؟^(٥)

قال بعضهم: «لو صح ما نقله النمام إليك، لكان هو المجترى بالشم عليك،

والمُنقول عنه أولى بحلمك؛ لأنه لم يقابلك بشتمك»^(٦).

قال الشاعر:

دَعْ عَنْكَ ذِكْرَ فُلَانَةٍ وَفُلَانٍ ◻◻◻ وَاجْتَنِبْ لِمَا يُلْهِى عَنِ الرَّحْمَنِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً ◻◻◻ وَجَمِيعُ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ فَإِنَّ

فِي مَتَى تَلْهُو وَقَلْبُكَ غَافِلٌ ◻◻◻ عَنِ ذِكْرِ يَوْمِ الْحَشْرِ وَالْمِيزَانِ؟^(٧)

(٢) انباكها: أخبرك بها.

(٤) «موارد الظمان» (٣/٣٨٦).

(١) المرجع السابق (٣/١٥٣).

(٣) حاكها: نسجها، وبأبه قال.

(٥) «روضة العقلاء» (ص ١٧٧).

(٦) «الإحياء» (٣/١٥٤).

(٧) «شذرات الذهب» (٥/٤١٥).

■ كيف نتعامل مع النَّمَامِ؟

قال الإمام النووي: يرحمه الله: «وَكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إِلَيْهِ نَمِيمَةٌ، وَقِيلَ لَهُ: فُلَانٌ يَقُولُ فِيكَ كَذَا - عَلَيْهِ سِتَّةُ أُمُورٍ:

الأوَّل - أَلَّا يُصَدِّقَهُ؛ لِأَنَّ النَّمَامَ فَاسِقٌ.

الثَّانِي - أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ ذَلِكَ وَيَنْصَحَهُ، وَيُبَيِّنُ لَهُ فِعْلَهُ.

الثَّلَاث - أَنْ يُبْغِضَهُ فِي اللَّهِ - تَعَالَى - ؛ فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - .

الرَّابِع - أَلَّا يَظُنَّ بِأَخِيهِ الْغَائِبِ السُّوءَ.

الخَامِس - أَلَّا يَحْمِلَهُ مَا حَكِي لَهُ عَلَى التَّجَسُّسِ، وَالْبَحْثِ عَنِ ذَلِكَ.

السَّادِس - أَلَّا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا نَهَى النَّمَامَ عَنْهُ، فَلَا يَحْكِي نَمِيمَةً عَنْهُ، فيقول: فلانٌ حكى كذا، فيصير به نماماً، ويكون آتياً ما نهى عنه»^(١).

وقد ضرب لنا السلفُ أروعَ الأمثلةِ في تعاملهم مع النَّمَامِ، وإليك بعضاً منها:

روي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزُّهريُّ، فجاءه رجلٌ، فقال له سليمان: بلغني أنك وقعتَ فيَّ، وقلتَ كذا وكذا، فقال الرجلُ: ما فعلتُ ولا قلتُ. فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادقٌ. فقال له الزُّهريُّ: لا يكون النَّمَامُ صادقاً. فقال سليمان: صدقتَ، ثمَّ قال للرجلِ: اذهبْ بِسَلامٍ^(٢).

(١) «شرح مسلم» (١١٣/٢)، و«فتح الباري» (٤٧٣/١٠) نقلاً عن أبي حامد الغزاليِّ.

(٢) «الإحياء» (١٥٣/٣)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٧٤).

وروي عن عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله - أنه دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فانت من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (سورة الحجرات: ٦). وإن كنت صادقاً فانت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (سورة القلم: ١١). وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو - يا أمير المؤمنين - لا أعود إليه أبداً^(١).

وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن رجلاً سعى إليه برجل، فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مَقْتَنَّاكَ، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أفلنالك؟ فقال: أفلني يا أمير المؤمنين^(٢).

وقال رجل لعبد الله بن عمر - وكان أميراً - : بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أنني ذكرتُ بسوء. قال: قد كان ذلك. قال: فأخبرني بما قال لك؛ حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحبُّ أن أشتِمَ نفسي بلساني، وحسبي أنني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال^(٣).

وقال رجل لعمر بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرُك في قصصه بشر. فقال له عمرو: يا هذا، ما رعتَ حقَّ مُجَالَسَةِ الرَّجُلِ حَيْثُ نَقَلْتَ إِلَيْنَا حَدِيثَهُ، وَلَا أَدَيْتَ حَقِّي حِينَ أَعْلَمْتَنِي عَنْ أَخِي مَا أَكْرَهُ، وَلَكِنْ أَعْلَمُهُ أَنَّ الْمَوْتَ يَعْمَنُ، وَالْقَبْرَ يَضْمُنُ، وَالْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا، وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَحْكُمُ بَيْنَنَا، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ^(٤).



(١) و (٢) و (٣) الإحياء، (٣/١٦٦).

(٤) المرجع السابق (٣/١٦٧).

الآفة الثالثة

الكذب



الكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع، وليس الإخبار مقصوداً على القول، بل قد يكون بالفعل: كالإشارة باليد، أو هز الرأس، وقد يكون بالسكوت^(١).

وهو صفة ذميمة، وعمل مردول، فهو من خصال النفاق، ومن شعب الكفر، بل إن الكفر نوع من أنواعه، فالكذب جنس، والكفر نوع تحته^(٢).

والكذب محرم بإجماع الأمة.

قال النووي: يرحمه الله: «قد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، وإجماع الأمة منعقد على تحريمه مع النصوص المتظاهرة»^(٣).

قال النبي ﷺ - محذراً من الكذب: «وأيأكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما زال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٤).

(١) انظر «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٢).

(٢) انظر «الأخلاق والسير» (ص ١٤٦).

(٣) «الأذكار» (ص ٣٢٤).

(٤) تقدم تخريجه، واللفظ هنا لمسلم.

وعن معاوية بن حيدة قال سمعت النبي - ﷺ - يقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»^(١).

وعن أبي هريرة - رضِيَ اللهُ عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٢).

وعن سمرة بن جندب - رضِيَ اللهُ عنه - في حديث رؤيا النبي - ﷺ - أنه قال: «لكني رايت الليلة رجلين، أتياي فأخذنا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كلوب»^(٣) من حديد، يدخله في شذقه، حتى يبلغ قفاه^(٤)، ثم يفعل بشذقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شذقه هذا، فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟ قال: انطلق...، وفي آخر الحديث قال - ﷺ - للرجلين: «طوفتُماني الليلة، فأخبراني عما رأيت». قال: نعم، أما الذي رايتَه يشقُّ شذقه فكذاب، يحدث بالكذبة فتحملُ عنه، حتى تبلغ الآفاق^(٥)، فيصنعُ به ما رايتَ إلى يوم القيامة...»^(٦).

والكذابُ منزوعُ الثقة، كما قيل:

إذا عُرِفَ الإنسانُ بالكذبِ لم يزلْ ◻ ◻ ◻ لدى الناسِ كذاباً، ولو كان صادقاً
فإن قال لم تصنع له جلساؤه ◻ ◻ ◻ ولم يسمعوا منه، ولو كان ناطقاً^(٧)

(١) رواه أحمد (٣/٥)، وأبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٣٦/٢).

(٢) رواه البخاري (٣٣) و (٢٦٨٢) و (٢٧٤٩) و (٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩).

(٣) الكلوب: واحد الكلايب، وهو حديدة يعلقُ عليها اللحم، ويرسلُ في الثور.

(٤) القفا: مؤخر العنق، يذكر ويؤنث، والجمع قفي، وأقفاء، وأقفة.

(٥) الآفاق: التواحي، والفرد أفق - بضمين وقد تسكن الفاء -.

(٦) رواه البخاري (١٣٨٦) و (٦٠٩٦) و (٧٠٤٧).

(٧) «جواهر الأدب» (ص ٧١٣).

وقال آخر:

حَسْبُ الْكُذُوبِ مِنَ الْبَلِّ ۝ ۝ ۝ يَأْتِي بَعْضُ مَا يُحْكِي عَلَيْهِ
 مَهْمًا سَمِعْتَ بِكَذِبَةٍ ۝ ۝ ۝ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ ^(١)
 وَالْكَذَّابُ مَهِينُ النَّفْسِ، لَيْسَ لَهُ مَرْوَةٌ، وَلَا يَسُودُ وَلَا خَيْرَ فِيهِ، كَمَا قِيلَ:
 لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ ۝ ۝ ۝ أَوْ فِعْلِهِ السُّوءِ، أَوْ مِنْ قِلَّةِ الْأَدَبِ
 لِبَعْضِ جِيْفَةِ كَلْبٍ خَيْرٌ رَائِحَةً ۝ ۝ ۝ مِنْ كَذِبَةِ الْمَرْءِ فِي جِدِّ وَفِي لَعِبٍ ^(٢)

وقال آخر:

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهِ ۝ ۝ ۝ بِأَذْهَبَ لِلْمَرْوَةِ وَالْجَمَالِ
 مِنَ الْكُذْبِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ ۝ ۝ ۝ وَأَبْعَدَ بِالْبَهَاءِ مِنَ الرَّجَالِ ^(٣)

قال الماوردي - يرحمه الله -:

«وَالْكَذْبُ جَمَاعٌ كُلُّ شَرٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ ذِمٍّ لِسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَخَبَثُ نَتَائِجِهِ؛ لِأَنَّهُ
 يُتَّبِعُ النَّمِيمَةَ، وَالنَّمِيمَةُ تُتَّبِعُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تُتَّبِعُ إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ
 الْعَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ» ^(٤).

قال الشاعر:

نَعَمْ نَعَمْ إِنَّمَا النَّمَامُ ذُو ضَرَرٍ ۝ ۝ ۝ لَكِنَّمَا الْكَاذِبُ الْجَانِي أَشَدُّ ضَرَرٍ
 أَخُو النَّمِيمَةِ إِنْ يَسْمَعُ يَنْمٍ، وَمَنْ ۝ ۝ ۝ يَكْذِبُ يَقْلُ مَا يَشَاءُ قَوْلًا بَغِيرَ أَثَرٍ
 لِذَلِكَ لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْمٍ، وَمَا ۝ ۝ ۝ لِي حِيلَةٌ فِي كُذُوبِ مِلءٍ فِيهِ شَرٌّ ^(٥)

(١) «عيون الأخبار» (٢/٤٢٦).

(٢) المرجع السابق (ص ٧١٢).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦١).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٢).

(٥) «جواهر الأدب» (ص ٧١٢).

■ ما يجوز من الكذب:

قال النووي - يرحمه الله -:

«فكُلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكنُ تحصيلُهُ بغيرِ الكذبِ يحرمُ الكذبُ فيه، وإن لم يُمكنُ تحصيلُهُ إلا بالكذبِ جازَ الكذبُ، ثمَّ إن كانَ تحصيلُ ذلكَ المقصودِ مباحًا، كانَ الكذبُ مباحًا، وإن كانَ واجبًا كانَ الكذبُ واجبًا، فإذا اختلفَ مسلمٌ من ظالمٍ يريدُ قتله، أو أخذَ ماله، وسئِلَ إنسانٌ عنه - وجبَ الكذبُ بإخفائه، وكذا لو كانَ عندهُ ودِيعَةٌ، وأرادَ ظالمٌ أخذَها، وجبَ الكذبُ بإخفائها، والأحوطُ في هذا كُلُّهُ أن يُورِّيَ، ومعنى التورية: أن يقصدَ بعبارةٍ مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبةِ إليه، وإن كانَ كاذبًا في ظاهرِ اللفظِ، وبالنسبةِ إلى ما يفهمهُ المخاطبُ، ولو تركَ التوريةَ، وأطلقَ عبارةَ الكذبِ، فليسَ بحرامٍ في هذا الحالِ.

واستدلَّ العلماءُ بجوازِ الكذبِ في هذا الحالِ بحديثِ أمِّ كلثومٍ - رضي الله عنها - أنها سَمِعَتْ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وآله وسلم - يقولُ: «ليسَ الكذابُ الذي يصلحُ بينَ الناسِ، فينمي^(١) خيرًا، أو يقولُ خيرًا»^(٢).

زاد مسلمٌ في روايةٍ: «قالتُ أمُّ كلثومٍ: ولم أسمعهُ يرخصُ في شيءٍ مما يقولُ الناسُ إلا في ثلاثٍ، تعني: الحربَ، والإصلاحَ بينَ الناسِ، وحديثَ الرجلِ امرأتهُ، وحديثَ المرأةِ زوجها»^(٣).

(١) فينمي خيرًا: أي يبلغُ خيرًا فيه خيرٌ وصلاحٌ.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٣) «رياض الصالحين» (ص ٤٦٠).

فَالْكَذِبُ عَلَى طَرِيقِ التَّوْرِيَةِ وَالتَّعْرِيزِ جَائِزٌ لِلضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ، كَمَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَقَدْ تَطَرَّفَ بَرْدَاءُ، وَأَنْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «مِنْ مَاءٍ». فَوَرَى عَنِ الْإِخْبَارِ بِنَفْسِهِ بِأَمْرٍ يُحْتَمَلُ، فَظَنَّ السَّائِلُ أَنَّهُ عَنِ الْقَبِيلَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يُخْلَقُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ، فَبَلَغَ مَا أَحَبَّ مِنْ إِخْفَاءِ نَفْسِهِ، وَصَدَّقَ فِي خَبْرِهِ^(١).

وَكَالَّذِي حَكِيَ عَنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ هَاجَرَ مَعَهُ، فَتَلَقَّاهُ الْعَرَبُ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَلَا يَعْرِفُونَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَنْ هَذَا؟. فَيَقُولُ: هَادٍ يَهْدِينِي السَّبِيلَ. فَيُظَنُّونَ أَنَّهُ يَعْنِي هِدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ هِدَايَةَ سَبِيلِ الْخَيْرِ، فَيَصْدُقُ فِي قَوْلِهِ، وَيُورِي عَنْ مُرَادِهِ^(٢).

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ إِذَا طَلَبَهُ مِنْ يَكْرَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي الدَّارِ، قَالَ لِلجَّارِيَةِ: «قُولِي لَهُ: اطْلُبْهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَلَا تَقُولِي لَهُ: لَيْسَ هَا هُنَا»؛ كَيْ لَا يَكُونَ كَذَابًا^(٣).

وَكَانَ الشَّعْبِيُّ إِذَا طُلِبَ فِي الْمَنْزِلِ وَهُوَ يَكْرَهُهُ، خَطَّ دَائِرَةً، وَقَالَ لِلجَّارِيَةِ: «ضَعِي الْأَصْبَعَ فِيهَا، وَقُولِي: لَيْسَ هَا هُنَا»^(٤).

(١) و (٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٥).

(٣) و (٤) «الإحياء» (٣/ ١٣٧).

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» بِأَبَا: الْمَعَارِضُ مَنْدُوحَةٌ^(١) عَنِ الْكَذِبِ،
وَمَا أوردَ تَحْتَهُ حَدِيثَ أَنَسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: «مَاتَ ابْنُ لِأَبِي طَلْحَةَ، فَقَالَ: كَيْفَ
الْغُلَامُ؟. قَالَتْ أُمُّ سَلِيمٍ: هَدَاتُ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَرَّاحَ. وَظَنَّ أَنَّهَا
صَادِقَةٌ»^(٢).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ مَا يَكْفِي أَنْ يَعِفَّ الرَّجُلُ عَنِ
الْكَذِبِ»^(٣).

وَهَذَا كُلُّهُ فِي مَوْضِعِ الْحَاجَةِ، فَأَمَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الْحَاجَةِ فَلَا؛ لِأَنَّ هَذَا
تَفْهِيمٌ لِلْكَذِبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ كَذِبًا فَهُوَ مَكْرُوهٌ عَلَى الْجُمْلَةِ^(٤).

وَآخِرًا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ:

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَخْطَأَهُ ثَلَاثُ ۞ ۞ ۞ فَبِعِغْهُ وَلَوْ بَكَفًا مِنْ رَمَادٍ
سَلَامَةٌ صَدْرِهِ، وَالصُّدُقُ مِنْهُ ۞ ۞ ۞ وَكَيْتَمَانُ السُّرَائِرِ فِي الصُّوَادِ^(٥)



(١) مَنْدُوحَةٌ: سَعَةٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ، بَابِ (١١٦).

(٣) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ» (ص ٢٦٥).

(٤) «الْإِحْيَاءُ» (٣/١٤٩).

(٥) «رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ» (٥٣).

الآفة الرابعة اللَّعْنُ



اللَّعْنُ: هو الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ أَلَّا يَكُونَ لَعَّانًا، وَلَا طَعَّانًا، وَلَا فَاحِشًا، وَلَا بَدِيئًا، إِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ وَأَخْلَاقِ الْفُسَّاقِ نَاقِصِي الْإِيمَانِ^(١).

فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَالْبَدِيئِ»^(٢).

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِصَدِيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»^(٤).

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ»^(٥).

(١) «آفات اللسان» (ص ١٤٠).

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٨١/٢)، و«الصحيح» (٣٢٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧) و (٦١٠٥) و (٦٦٥٢)، ومسلم (١١٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٧).

(٥) رواه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٤٣/٢)، و«الصحيح» (٨٩٠).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلوات الله عليه - : «لَا يَكُونُ
اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتْ عَلَيْهِ
اللَّعْنَةُ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الْمَلْعُونُ الرِّيَّاحَ الْمُسَخَّرَةَ.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنه - : «إِنَّ رَجُلًا نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَلَعَنَهَا،
فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - : «لَا تَلْعَنُهَا؛ فَإِنَّهَا مَأمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتْ
اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ»^(٢).

وَاللَّعْنُ مَنهِيٌّ عَنْهُ حَتَّىٰ لِلْحَيَوَانَ.

فَعَنِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رضي الله عنه - قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ،
وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَىٰ نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -، فَقَالَ:
«خُدُّوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُّوْهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ». قَالَ عِمْرَانُ: «فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي
النَّاسِ، مَا يَعْضُ لَهَا أَحَدٌ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَىٰ نَاقَةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ
بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -، وَتَضَايِقَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَقَالَتْ: «حَلِّ^(٤) اللَّهُمَّ الْعَنْهَا». قَالَ: فَقَالَ
النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - : «لَا تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ». وَفِي رَوَايَةٍ: «لَا تُصَاحِبُنَا رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا
لَعْنَةٌ مِنَ اللَّهِ»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٤٧/٢).

والصَّحِيحَةُ (٥٢٧). (٣) رواه مسلم (٢٥٩٥).

(٤) حَلَّ: كَلِمَةُ زَجْرٍ لِلْإِبِلِ وَاسْتِحْثَاتٍ. (٥) رواه مسلم (٢٥٩٦).

الآفة الخامسة

السُّخْرِيَّةُ



السُّخْرِيَّةُ لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ مُمْتَلِيٍّ بِمَسَاوِيِّ الْأَخْلَاقِ، مُتَّصِفٍ بِكُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ، أَمَّا الرَّجُلُ الْمُتَخَلِّقُ بِجَمِيلِ الْأَخْلَاقِ، وَكَرَائِمِ الْخِصَالِ فَهُوَ بِمَنَآئِ عَنْ ذَلِكَ، وَكَيْفَ يَسْخَرُ مِنَ الْآخِرِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَهَى عَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (سورة الحجرات: ١١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: «يُنْهَى - تَعَالَى - عَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالنَّاسِ، وَهُوَ احْتِقَارُهُمُ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبْرُ: بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٢). وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ احْتِقَارُهُمْ وَاسْتِصْغَارُهُمْ، وَهَذَا حَرَامٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاحِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقَرُ لَهُ»^(٣).

وَبَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» بَابَ قَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) جاء تخصيصُ النساءِ في الآيةِ بالذكرِ تحذيراً من سُخْرِيَّةِ بَعْضِهِنَّ من بَعْضٍ؛ لَأَنَّ السُّخْرِيَّةَ شَانِعَةٌ فِيهِنَّ أَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/٢٠٥).

■ وأوردَ تحتَ هذا البابَ حديثين:

أحدهما - حديث عبد الله بن زَمْعَةَ - رضي الله عنه - قال: «نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنف»^(١).

والثاني - حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - بمنى: «فإن الله حرم عليكم دمَاءكم، وأموالكم، وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ : أي عسى أن يكون المسخور منه خيراً من السآخر كما هو الحال والواقع، فإن الله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات ١٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من أكرم الناس؟» قال: «أتقاهم لله»^(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أنه قال: مر رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال لرجلٍ عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: «رجلٌ من أشرف الناس، هذا - والله - حريٌّ إن خطبَ أن يُنكحَ، وإن شفعَ أن يُشفعَ». قال: فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ثم مرَّ رجلٌ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ما رأيك في هذا؟» فقال: «يا رسول الله، هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطبَ ألا يُنكحَ، وإن شفعَ ألا يُشفعَ، وإن قال ألا يُسمعَ لقوله». فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «هذا خيرٌ من مِلاءِ الأرضِ مثلَ هذا»^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٠٤٢)، وفي رواية: ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي الضَّرْطَةِ، فقال: لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُهُمْ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْهُ؟.

(٢) رواه البخاري (١٧٤٢) و(٤٤٠٣) و(٦٠٤٣) و(٦٧٨٥).

(٣) رواه البخاري (٣٣٥٣) و(٣٣٧٤) و(٣٣٨٣) و(٣٤٩٠) و(٤٦٨٩) و(٢٣٧٨).

(٤) رواه البخاري (٥٠٩١) و(٦٤٤٧). والحديث محمولٌ على أن هذا الفقير خيرٌ في دينه من هذا الرجل

الذي هو من أشرف الناس. انظر «الفتح» (٥٨/١٣).

الآفة السادسة

البداءة والتفحش في القول



الرَّجُلُ الْمُتَخَلِّقُ بِالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ يُنْزَهُ لِسَانُهُ مِنَ الْفَحْشِ، وَيُطَهِّرُهَا مِنَ الْبَدَاءَةِ، وَدَنِيءُ الْأَخْلَاقِ تَقَلَّتْ الْأَلْفَاظُ الْبَدِيئَةُ مِنْهُ غَيْرَ عَابِيٍّ بِمَوَاقِعِهَا وَأَثَارِهَا.

والتَّفَحُّشُ فِي الْكَلَامِ يَأْتِي عَلَى مَعَانٍ، فَقَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَقَوْلِ الْحَنَاءِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنه - قَالَ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - فَاَحْشًا، وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»^(١).

وقد يأتي بمعنى التعدي في القول والجواب، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ: «اتَى النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَسٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالُوا: «السَّامُ»^(٢) عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ!». قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ». قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: «بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ»^(٣). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «يَا عَائِشَةُ، لَا تَكُونِي فَاَحْشَةً». فَقَالَتْ: «مَا سَمِعْتُ مَا قَالُوا!». فَقَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟»، قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»^(٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) السَّامُ: الموتُ.

(٣) الذَّامُ: العيبُ.

(٤) رواه البخاري (٢٩٣٥) و (٦٠٢٤) و (٦٠٣٠) و (٦٢٥٦) و (٦٣٩٥) و (٦٤٠١) و (٦٩٢٧)، ومسلم - واللفظ له - (٢١٦٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِي، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»^(١).

ومعنى الحديث: أن المتشاكين الذين يسب كل منهما الآخر يكون إثمهما على الذي ابتداءً بالشتيم، ما لم يعتد المظلوم بأن سبه أكثر وأفحش منه، أما إذا اعتدى كان إثم ما اعتدى عليه، والباقي على البادي، والحاصل إذا سب كل واحد الآخر فإثم ما قالا على الذي بدأ بالسب، وهذا إذا لم يعتد ويتجاوز المظلوم الحد، والله أعلم^(٢).

والتفحش في القول منهي عنه حتى للحيوان.

فَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا تَسُبُّوا الدُّيُكَ؛ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ»^(٣).

قال الشاعر:

أَحْفَظُ لِسَانَكَ إِنْ لَقَيْتَ مُشَاتِمًا لَا تَجْرِينَ مَعَ اللَّئِيمِ إِذَا جَرَى
مَنْ يَشْتَرِي عِرْضَ اللَّئِيمِ بِعِرْضِهِ يَحْوِي النَّدَامَةَ حِينَ يَقْبِضُ مَا اشْتَرَى^(٤)

وعلى المرء ألاً يستسهل الألفاظ القبيحة؛ حتى لا يكون أهلاً لقت الله إياه، واستخفاف الناس بشخصه، والألفاظ القبيحة كثيرة^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٧).

(٢) انظر «عون المعبود» (٢٣٧/١٣).

(٣) رواه أبو داود (٥١٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣١٤/٢).

(٤) «روضة العقلاء» (ص ٢١١).

(٥) انظر «معجم المناهي اللفظية» فهو كتاب يطابق اسمه مسماه.

قال النووي - يرحمه الله -: «ومِنَ الألفاظِ المذمومةِ المستعملةِ في العادةِ قولُ الشخصِ لمن يُخاصمه: يا حمارُ، يا تيسٌ»^(١)، يا كلبُ، ونحوَ ذلك، فهذا قبيحٌ من وجهين: أحدهما أنه كذبٌ، والآخرُ أنه إيداءٌ»^(٢).

قال الشافعي:

أحبُّ مكارمِ الأخلاقِ جُهدي ◻◻◻ وأكْرهه أنْ أعيبَ، وأنْ أعابا
وأصْفحُ عن سبابِ الناسِ حلماً ◻◻◻ وشَرُّ الناسِ مَنْ يهوى السبابا
ومَنْ هابَ الرجالَ تهيبُوه ◻◻◻ ومَنْ حَقَرَ الرجالَ فلنْ يهابا^(٣)

وشريفُ النفسِ لا يُجاري أصحابَ الخِلاعةِ والبذاءةِ، ويحافظُ على مروءتهِ
صيانةً لنفسِه، فقد قيلَ: «احتمالُ السفيهِ خيرٌ من التحلِّي بصورتهِ، والإغضاءُ
عن الجاهلِ خيرٌ من مُساكنتِه»^(٤).

وقال ابنُ المقفع: «واعلمْ أنَّكَ سَتبَتَلِي من أقوامٍ بسفَهه^(٥)، وأنَّ سفَهَ السفيهِ
سيطْلِعُ له مِنْكَ حَقْدًا، فإنْ عارضتَه، أوْ كَافأتَه بالسفَهه، فكأنَّكَ قد رَضيتَ ما أتى
به، فأحببتَ أنْ تحتذيَ على مثاله، فإنْ كانَ ذلكَ عندكَ مذمومًا، فحَقَّقْ ذمَّكَ إياهُ
بتركِ معارضتِه، فأما أنْ تَدُمَّه وتَمْتثلَه»^(٦) فليسَ في ذلكَ لكِ سَدَادٌ»^(٧) (٨).

(٢) «الأذكار» (ص ٣١٤).

(٤) المرجع السابق (ص ٢٥٣).

(٦) تمتثلُه: تحتذيه وتسلك طريقه.

(١) التيس: من المعز، والجمع تيس، وأتيس.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥٢).

(٥) السفه - بفتحتين - : ضدُّ الحلم.

(٧) السداد: الصواب.

(٨) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص ١٢٣).

قال أبو الأسود الدؤلي:

فاتركُ مُجَاراةَ السَّفِيَةِ؛ فَإِنَّهَا ٥٥٥ نَدَمُ وَغِبٌ^(١) - بَعْدَ ذَاكَ - وَخَيْمُ
فَإِذَا جَرَيْتَ مَعَ السَّفِيَةِ كَمَا جَرَى ٥٥٥ فَكَلَاكُمَا فِي جَرِيهِ مَذْمُومٌ^(٢)

وقال آخر:

لَا تُرْجِعَنَّ إِلَى السَّفِيَةِ خِطَابَهُ ٥٥٥ إِلَّا جَوَابَ تَحِيَّةٍ حَيَّاكَهَا
فَمَتَى تُحَرِّكُهُ تُحَرِّكُ جِيْفَةً ٥٥٥ تَزْدَادُ نَتْنًا إِنْ أَرَدْتَ حَرَاكَهَا^(٣)



(١) الغيبُ - بالكسر - : العاقبة.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٦٣).

(٣) «الحلم» (ص ٣٢).

الآفة السابعة شهادة الزور



شهادة الزور أمانة على ضعة^(١) النفس، وحقارة الشان، وسقوط الهمة،
والقحة^(٢)، وسفه العقل، وحبث الطوية^(٣)، وسبب من أسباب قطع وشائج
المحبة، ونقض عرا الأخوة، وإيقاع العداوة والبغضاء، وإحلال التدابر
والتفرق مكان المحبة والاجتماع.

أبعد الصفاء ومحض الإخاء ■■■ يقيم الجفاء بنا يخطب؛

وقد كان مشربنا صافيا ■■■ زمانا، فهل كدر المشرب؛

والأصل في الزور تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، فهو كل باطل،
سواء كان ذلك شركا، أو غناء، أو كذبا، أو غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛
لأن الله عم في وصفه عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص
من ذلك شيئا إلا بحجة^(٤).

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٢).

(١) الضعة - بفتح الضاد وكسرهما - : الحقارة، وبابه ظرف.

(٢) القحة - بفتح القاف وكسرهما - : قلة الحياء، وبابه ظرف.

(٣) الطوية - بالفتح - : الضمير.

(٤) «جامع البيان» (٣١/١٩) بتصرف.

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ سَعْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِهَا: «أَيُّ لَا يَحْضُرُونَ الزُّورَ: أَيُّ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ الْمَحْرَمِ، فَيَجْتَنِبُونَ جَمِيعَ الْمَجَالِسِ الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى الْأَقْوَالِ الْمَحْرَمَةِ، أَوْ الْأَفْعَالِ الْمَحْرَمَةِ: كَالْحَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَالْجِدَالِ الْبَاطِلِ، وَالغَيْبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَالسَّبِّ، وَالْقَذْفِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَالغِنَاءِ الْمَحْرَمِ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَفُرْشِ الْحَرِيرِ، وَالصُّوْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى أَلَّا يَقُولُوهُ وَيَفْعَلُوهُ».

وَشَهَادَةُ الزُّورِ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِ الزُّورِ، تَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْأَوْلَوِيَّةِ^(١).

وَقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ

الزُّورِ ﴾ (سورة الحج: ٣٠).

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ : «أَيُّ: جَمِيعَ الْأَقْوَالِ الْمَحْرَمَاتِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الزُّورِ الَّذِي هُوَ الْكَذِبُ، وَمِنْ ذَلِكَ شَهَادَةُ الزُّورِ»^(٢).

وَشَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ.

فَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ

الْكِبَائِرِ؟» قُلْنَا: «بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: «الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدِينَ - وَكَانَ

مُتَّكِنًا، فَجَلَسَ فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ،

فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَا يَسْكُتُ»^(٣).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٨٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٥٣٨).

(٣) تقدم تخريجه، واللفظ للبخاري.

■ أضرار شهادة الزور:

لشهادة الزور أضرار كثيرة، فمنها:

١ - تَضْلِيلُ الْحَاكِمِ عَنِ الْحَقِّ، وَالسَّبَبُ فِي الْحُكْمِ بِالْبَاطِلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ»^(١) مِنْ بَعْضٍ، فاقضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ،^(٢).

٢ - الظُّلْمُ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ سَاقَ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِسَبَبِ شَهَادَةِ الزُّورِ، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، وَلِذَلِكَ قَالَ - ﷺ - : «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ؛ فَلَا يَأْخُذْهَا»^(٣).

٣ - الظُّلْمُ لِمَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ، فَيَتَعَرَّضُ الشَّاهِدُ لِدَعْوَةِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ظُلْمًا، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةً، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «ثَلَاثٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ ... - وذكر منهم - دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(٤).

(١) أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ: أَعْلَمُ وَأَفْظَنُ لَهَا، مِنَ اللَّحْنِ - بفتحين - وهو الفِطْنَةُ، وبأبهِ فَرِحَ.

(٢) رواه البخاري - واللفظ له - (٢٤٥٨) و(٢٦٨٠)، و(٦٩٦٧) و(٧١٦٩) و(٧١٨١) و(٧١٨٥)، ومسلم

(١٧١٣) عن أم سلمة.

(٣) التَّخْرِيجُ السَّابِقُ.

(٤) رواه أبو داود (٥٧٨/٥)، وانظر «جامع الأصول» (١٤٥/٤).

وقال آخر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدياً ۝ ۝ فالظلم أخيره يأتيك بالندم

تنام عينك والمظلوم منتبيه ۝ ۝ يدعو عليك، وعين الله لم تنم

٤ - قد يطلب منه اليمين على صحة شهادته، فيتعرض لغضب الله ومقته،

قال رسول الله - ﷺ - : «من اقتطع^(١) حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له

النار، وحرّم عليه الجنة». فقال له رجل: «وان كان شيئاً يسيراً، يا رسول الله؟». قال:

«وان كان قضيباً من أراك^(٢)» .^(٣)

٥ - تخليص المجرمين من عقوبة الجريمة.

٦ - تزكية المشهود له، وهو ليس أهلاً لذلك^(٤).



(١) اقتطع: أخذ.

(٢) الأراك: شجر معروف يستاك بأعواده، واحده أراكة.

(٣) رواه مسلم (١٣٧) عن أبي أمامة.

(٤) انظر «مجلة البحوث»، بحث قدمه الشيخ عبد الله القصير بتصرف..

الآفة الثامنة

إفشاء الأسرار



إفشاء الأسرار ضربٌ من ضروب الخيانة، وقيل أن تجد رجلاً وفيما يفشي أسرارَهُ، وأسرارَ الآخرين.

والسرُّ: هو ما يقع بينك وبين صاحبك، فلا يحلُّ لك أن تُبينه لأحد، سواءً قال لك: لا تُخبر به أحداً، أو التفت في حال حديثه خشيّة أن يكون أحدٌ يسمع، أو علمت أنه لا يحبُّ أن يطلع عليه أحدٌ غيرك، أو أخبرك بأمرٍ يستحي من ذكرها.

فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا حدثَ الرجلُ بالحديث، ثم التفت، فهو أمانة»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن من أشرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته^(٢)، وتفضي إليه، ثم ينشرُ سرها»^(٣).

(١) رواه أبوود داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣/٣٢٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٨٦/١)، و«الصحيح» (١٠٩٠).

(٢) يفضي إلى امرأته: من الإفشاء، وهو مباشرة البشارة، وهو هنا كناية عن الجماع.

(٣) ثم ينشر سرها: أي يذكر تفاصيل ما يقع حال الجماع، وقبله من مقدمات الجماع، وهو من الكبائر.

(٤) رواه مسلم (١٤٣٧).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ تَأَيَّمَتْ^(١) بِنْتُ حَفْصَةَ، قَالَ: «لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ؟ قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي. فَلَبِثْتُ لَيْالِي ثُمَّ لَقَيْتَنِي، فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ لِي الْأُتْرُوجُ يَوْمِي هَذَا. فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ؟ فَصَمَّتْ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا. فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدًا^(٢) مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيْالِي، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقَيْتَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلِيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأَفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقَبِلْتُهَا،^(٣)

وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «أَتَى عَلِيَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَا الْعَبُ مَعَ الْغُلَّامِ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحَدًا. قَالَ أَنَسٌ: «وَاللَّهِ، لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ»^(٤).

جَزَاهُمْ اللَّهُ عَنْ دِينِ الرَّسُولِ فَمَا ۝ ۝ أَحَلَّى مَا ثَرَهُمْ فِي سَالِفِ الْحَقَبِ !
لَوْلَا لَطَائِفُ صُنْعِ اللَّهِ مَا نَبَتَتْ ۝ ۝ تِلْكَ الْمَكَارِمُ فِي لَحْمٍ، وَلَا عَصَبٍ

(١) تَأَيَّمَتْ: أَي صَارَتْ بِلَا زَوَاجٍ.

(٢) أَوْجَدًا: أَشَدَّ غَضَبًا.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٠٠٥) وَ(٥١٢٢) وَ(٥١٢٩) وَ(٥١٤٥).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٤٨٢)، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩/١١) بِلَفْظٍ: «أَسْرَأَ إِلَيَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سِرًّا، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ

أَحَدًا بَعْدَهُ، وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ».

والحازم يستعينُ على إنجاح أعماله بالكتمانِ .

قال رسولُ الله - ﷺ - : «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمانِ؛ فإنَّ كلُّ ذي نعمةٍ محسودٌ» (١) .

قال ابنُ حبانَ - يرحمه الله - : «الحازمُ يجعلُ سرَّه في وعاءٍ، ويكتُمُه عن كلِّ مستودعٍ، فإنِ اضطرَّه الأمرُ وغلبه، أودعه العاقلُ النَّاصِحَ له؛ لأنَّ السرَّ أمانةٌ، وإفشاؤه خيانةٌ، والقلبُ له وعاءُه، فمن الأوعية ما يضيقُ بما يُودعُ، ومنها ما يتسعُ لما استودعُ» (٢) .

قال الشاعرُ:

عليك بكتّم السرِّ في كلِّ حالةٍ ٥ ٥ فقد جاء في الأخبارِ من ألفِ حجةٍ
إذا دخلَ اثنانِ الحديثَ فسِرُّه ٥ ٥ يشيعُ، وصمتُ المرءِ أعظمُ حكمةٍ (٣)

وقال آخرُ:

سأكتُمُه سرِّي، وأحفظُ سرَّه ٥ ٥ ولا غرني أني عليه كَرِيمُ
حليمٌ فينسى، أو جهولٌ يشيعُه ٥ ٥ وما الناسُ إلا جاهلٌ وحليمٌ (٤)

وكِرَامُ النَّاسِ يَقْضُونَ هَذَا الْحَقَّ، فَتَتَّسِعُ صُدُورُهُمْ لِأَسْرَارِهِمْ، وَأَسْرَارِ الْآخَرِينَ، كَمَا قِيلَ: «قُلُوبُ الْأَحْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ» .

(١) تقدّم تخريجه .

(٢) «روضة العقلاء» (ص ١٨٩) .

(٣) «جواهر الأدب» (ص ٧١٨) .

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٨٥) .

وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا يَكْتُمُ السُّرَّ إِلَّا مَنْ لَهُ شَرَفٌ ◻◻◻ وَالسُّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْتُومٌ
السُّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتِ لَهُ غَلَقٌ^(١) ◻◻◻ ضَلَّتْ^(٢) مَفَاتِيحُهُ، وَالْبَابُ مَخْتُومٌ^(٣)

وَمَنْ أَطْلَعَ النَّاسَ عَلَى أَسْرَارِهِ وَأَسْرَارِ غَيْرِهِ، هَانَ عَلَيْهِمْ وَأَذَاعُوهُ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا حَقِيرُ النَّفْسِ، وَالْحَازِمُ يَتَفَطَّنُ حَتَّى لِلطَّرِيقِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ بِهَا مَا عِنْدَهُ، وَهِيَ هَاتِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدَهُمْ بِأَرَبِهِ.

قَالَ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِيٍّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «كُنْ حَافِظًا لِلسُّرِّ، مَعْرُوفًا عِنْدَ النَّاسِ بِحِفْظِهِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوا مِنْكَ هَذِهِ الْحَالَ أَفْضُوا إِلَيْكَ بِأَسْرَارِهِمْ، وَعَذَرُواكَ إِذَا طَوَيْتَ عَنْهُمْ سِرًّا غَيْرِكَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مُشْفِقُونَ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ لَكَ اتِّصَالٌ بِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَعَادِينَ، فَإِنَّ الْوَسَائِلَ لِاسْتِخْرَاجِ مَا عِنْدَكَ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ مِنْ كُلِّ مِنَ الطَّرْفَيْنِ، فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَصْرِيحًا أَوْ تَعْرِيفًا، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ طُرُقًا دَقِيقَةً، وَمَسَالِكَ خَفِيَّةً، فَاجْعَلْ كُلَّ احْتِمَالٍ - وَإِنْ بَعْدَ - عَلَيَّ بِالْكَ، وَلَا تُؤْتِ مِنْ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْحَزْمِ، وَاجْزِمُ بِأَنَّكَ لَا تَتَدَمُّ عَلَى الْكَيْتَمَانِ، وَإِنَّمَا الضَّرُّ وَالنَّدَمُ فِي الْعَجَلَةِ وَالتَّسْرَعِ، وَالْوَثُوقِ بِالنَّاسِ ثِقَةً تَحْمِلُكَ عَلَى مَا يَضُرُّ»^(٤).

قَالَ مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

أُوَاخِي رَجَالًا لَسْتُ أَطْلَعُ بَعْضَهُمْ ◻◻◻ عَلَى سِرِّ بَعْضِ غَيْرَانِي جِمَاعُهَا
يَظْلُونَ شَتَى فِي الْبِلَادِ، وَسِرُّهُمْ ◻◻◻ إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرُّجَالَ انْصِدَاعُهَا^(٥)

(١) الغلق - بفتحين - : المغلاق، وهو ما يُغلقُ به الباب.

(٢) ضلَّتْ : ضاعت.

(٣) «روضه العقلاء» (ص ١٩١).

(٥) «عيون الأخبار» (١/٨١).

(٤) «الرياض الناضرة» (ص ٢١٠).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّقُ بِكُلِّ أَحَدٍ، فَيُفْضِي إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِهِ، فَإِذَا انْتَشَرَ الْخَبْرُ وَذَاعَ - وَكُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الْاِثْنَيْنِ شَاعَ - لَمْ يَنْ أَدَاعَهُ وَأَفْشَاهُ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - رضي الله عنه - : «مَا وَضَعْتُ سِرِّي عِنْدَ أَحَدٍ، فَلَمْتُهُ عَلَى أَنْ يُفْشِيَهُ؛ كَيْفَ أَلَوْمُهُ وَقَدْ ضَمَّتْ بِهِ»^(١).

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - :

إِذَا الْمَرْءُ أَفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ ■■■ وَلَا مَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ أَحْمَقُ

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنِ سِرِّ نَفْسِهِ ■■■ فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ اضْطِيقُ^(٢)

وَقَدْ يَكُونُ لِلْمَرْءِ صَدِيقٌ هُوَ مُسْتَوْدَعُ أَسْرَارِهِ، فَتَدْعُوهُ الْحَاجَةُ لِكْتَمِ السِّرِّ عَنْهُ خَوْفًا أَنْ يَنْتَقِلَ السِّرُّ إِلَى صَدِيقٍ آخَرَ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا كَتَمْتَ السَّرَّ عَمَّنْ أَوْدَهُ ■■■ تَوَهَّمْ أَنْ الْوُدَّ غَيْرُ حَقِيقِ

وَلَمْ أُخَفِ عَنْهُ السَّرَّ مِنْ ظَنَّةٍ^(٣) بِهِ ■■■ وَلَكِنِّي أَخْشَى صَدِيقَ صَدِيقِي^(٤)

وَالرَّجُلُ الْكَرِيمُ الْمُتَخَلِّقُ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَجَمِيلِ الْعَادَاتِ يَحْفَظُ أَسْرَارَ إِخْوَانِهِ، حَتَّى وَلَوْ تَصَرَّمَ حَبْلُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمَا، كَمَا قِيلَ:

لَيْسَ الْكَرِيمُ الَّذِي إِنْ زَلَّ صَاحِبُهُ ■■■ بَثَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَسْرَارِهِ عَلِيمًا

بَلِ الْكَرِيمُ الَّذِي تَبَقَى مَوَدَّتُهُ ■■■ وَيَحْفَظُ السِّرَّ، إِنْ صَافَى وَإِنْ صَرَمًا^(٥)

(١) «روضة العقلاء» (ص ١٨٨).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص ٩٢).

(٣) الظننة - بكسر الظاء - : التهمة - بفتح الهاء - .

(٤) «رسائل الإصلاح» (١٧/٢).

(٥) «عين الأدب والسياسة» (ص ٧٠).

الآفة التاسعة

المدح المذموم



المدح: نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء. وقيل: هو الوصف الجميل، وعدّ المآثر^(١).

وقيل: هو وصف المحاسن بكلام جميل^(٢).

والمذموم منه: هو ما انعدمت فيه ضوابط المدح المباح، فانعدم فيه الصدق، أو صاحبه النفاق، أو اتخذ مهنة للتكسب، وزاد المذموم بطراً، وتكبراً، وظلماً، ورثاءً.

وهذا النوع هو الذي عناه الرسول - ﷺ - في حديث أبي موسى الأشعري -
- رضي الله عنه - قال: سمع النبي - ﷺ - رجلاً يثنى على رجل، ويطريه في مدحه، فقال:
«أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل!»^(٣).

وعن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: أثنى رجل على رجل عند النبي - ﷺ -، فقال:
«ويلك، قطععت عنق صاحبك، قطععت عنق صاحبك!» مراراً ثم قال: «من كان منكم
مادحاً أخاد - لا محالة - فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أركي على الله أحداً،
أحسيبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»^(٤).

(١) «لسان العرب» (٥٨٩/٢ - ٥٩٠)، و«تاج العروس» (١١١/٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (ص ٣٠٨٥).

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٣) و(٦٠٦٠)، ومسلم (٣٠٠١).

(٤) رواه البخاري - واللفظ له - (٢٦٦٢) و(٦١٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «حَاصِلُ النَّهْيِ عَمَّنْ أَفْرَطَ فِي مَدْحِ آخَرَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَكَمْ يَأْمَنُ عَلَى الْمَمْدُوحِ الْعُجْبَ لَظَنَّهُ أَنَّهُ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، فَرُبَّمَا ضَيَّعَ الْعَمَلَ، وَالْأَزْدِيَادَ مِنَ الْخَيْرِ اتِّكَالًا عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ، وَكَذَلِكَ تَأَوَّلَ الْعُلَمَاءُ فِي الْحَدِيثِ: «اِحْتُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»^(١) أَنَّ الْمُرَادَ مَنْ يَمْدَحُ النَّاسَ فِي وُجُوهِهِمْ بِالْبَاطِلِ»^(٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا جَاهِلًا غَرَّهُ إِفْرَاطُ مَا دَجَّهِ لا يَغْلِبُنْ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمَكَ بِكَ
أَثْنَى وَقَالَ بِلَا عِلْمٍ أَحَاطَ بِهِ وانتَ أَعْلَمُ بِالْمَحْصُولِ مِنْ رَبِّكَ

وَمِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ عَرَفْنَا أَنَّ الْمَذْمُومَ مِنَ الْمَدْحِ هُوَ الَّذِي يَعُودُ بِالْفِتْنَةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ، أَوْ فِيهِ مُجَازَفَةٌ أَوْ إِفْرَاطٌ، أَمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ الْمَمْدُوحُ لَا يَزْدَادُ بِهِ إِلَّا كَمَالًا، أَوْ يَنْشَطُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَالْأَزْدِيَادِ مِنْهُ، أَوْ الدَّوَامِ عَلَيْهِ - فَهَذَا مَحْمُودٌ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، فَعِنْدَمَا قَصَّتْ حَفْصَةُ رُؤْيَا أَخِيهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - عَلَى النَّبِيِّ صلوات الله عليه - قَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ

اللَّيْلِ». قَالَ سَالِمٌ: «فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ - بَعْدَ ذَلِكَ - لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا»^(٣).

فَهَذَا الْمَدْحُ مِنَ النَّبِيِّ صلوات الله عليه - كَانَتْ ثَمَرَتُهُ عَظِيمَةً لِلْمَمْدُوحِ، حَيْثُ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا.

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢) عن المقداد.

(٢) فتح الباري (٤٧٧/١٠).

(٣) رواه البخاري (١١٢٢) و(١١٥٧) و(٣٧٣٩) و(٣٧٤١) و(٧٠١٦) و(٧٠٢٩) و(٧٠٣١)، ومسلم

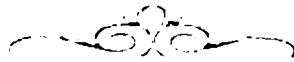
(٢٤٧٨)، (٢٤٧٩).

قَالَ النَّوَوِيُّ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ -: «قَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحِيحِينَ بِالْمَدْحِ فِي الْوَجْهِ، وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَهَا أَنَّ النَّهْيَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَجَازَفَةِ فِي الْمَدْحِ، وَالزِّيَادَةَ فِي الْأَوْصَافِ، أَوْ عَلَى مَنْ يُخَافُ عَلَى فِتْنَتِهِ مِنْ إِعْجَابٍ وَنَحْوِهِ، إِذَا سَمِعَ الْمَدْحَ.

وَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُ عَلَيْهِ لِكَمَالِ تَقْوَاهُ، وَرُسُوخِ عَقْلِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، فَلَا نَهْيَ فِي مَدْحِهِ فِي وَجْهِهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُجَازَفَةٌ، بَلْ إِذَا كَانَ يَحْصُلُ بِذَلِكَ مَصْلَحَةٌ: كَنَشْطِهِ لِلْخَيْرِ، وَالْإِزْدِيَادِ مِنْهُ، أَوْ الدَّوَامِ عَلَيْهِ، وَالْإِقْتِدَاءَ بِهِ - كَانَ مُسْتَحَبًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(١).

فَعَلَى الْمَادِحِ أَلَّا يَمْدَحَ أَيَّ شَخْصٍ بِأَكْثَرِ مِمَّا فِيهِ، فَقَدْ قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: «لَا تَمْدَحْ أَحَدًا بِأَكْثَرِ مِمَّا فِيهِ؛ فَيَكُونُ مَا زِدْتَهُ نَقْصًا لَكَ».

وَعَلَى الْمَمْدُوحِ أَنْ يَرِاقِبَ نَفْسَهُ مِنَ الْعُجْبِ، وَمَنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ، وَلِيَدْعُ بِهَذَا الدُّعَاءَ: «اللَّهُمَّ، اغْضُرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ»^(٢).



(١) «شرح مسلم» (١٢٦/١٨).

(٢) «فتح الباري» (٤٧٨/١٠) نقلاً عن البيهقي في «الشعب» (٢٢٨/٤) منسوبة لابي بكر الصديق، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٥).

الخاتمة



وَخَتَامًا فَإِنَّ الْكَمَالَ عَزِيزٌ، وَبَلُوغَهُ بَعِيدُ الْمَنَالِ، مُعْجِزُ الدَّرَكِ، فَمَنْ وَجَدَ
خَلَلًا أَوْ نَقْصًا، فَتَحَنُّنُ تَنَاشِدُهُ اللَّهَ فِي إِصْلَاحِهِ، وَأَدَاءُ حَقِّ النَّصِيحَةِ فِيهِ، وَغَفَرَ
اللَّهُ لِمَنْ تَجَاوَزَ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْهِنَاتِ، وَالتَّمَسَّ لِي الْعُذْرَ فِي النَّقْصِ وَالتَّقْصِيرِ.

إِنْ تَجِدَ عَيْبًا فَسُدِّ الْخَلَلَا ❧ ❧ ❧ جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

وَأَجِدُنِي مُضْطَّرًّا لِأَنَّ أَقُولَ مَا قَالَ مَنْ قَبْلِي: «هَذَا جُهْدُ الْمُقْلِ، وَحِيلَةُ
الْمُفْلِسِ، حَذَرٌ فِيهِ مِنَ الدَّاءِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ، وَوَصَفَ فِيهِ الدَّوَاءَ، وَإِنْ لَمْ
يَصْبِرْ عَلَى تَنَاوُلِهِ لظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ، وَهُوَ يَرْجُو أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْ
يَغْفِرَ لَهُ غِيَّهُ لِنَفْسِهِ بِنَصِيحَتِهِ لِعِبَادِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ».

فَإِنْ كُنْتَ - أَخِي الْقَارِي - مِمَّنْ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِحِفْظِ الْجَمِيلِ، فَأَقْلُ الْجَمِيلِ فِي حَقِّ
كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ «حَفِظَهُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ!»، أَوْ «رَحِمَهُ اللَّهُ، وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ!».

وَأَسْتَوْدِعُكَ - أَخِي - بِهَذَا الدُّعَاءِ:

بَقِيَتْ مَدَى الدَّهْرِ، وَعِلْمُكَ رَاسِخٌ ❧ ❧ ❧ وَخَيْرُكَ مَمْدُودٌ، وَتَلِيكَ عَامِرٌ

يُودُ سَنَاكَ الْبَدْرُ، وَالْبَدْرُ زَاهِرٌ ❧ ❧ ❧ وَيَقْفُو نَدَاكَ الْبَحْرُ، وَالْبَحْرُ غَامِرٌ

وَهُنْتُ أَيَّامًا تَوَالَى نَشَاطُهَا ❧ ❧ ❧ كَمَا تَتَوَالَى فِي الْعُقُودِ الْجَوَاهِرُ

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

مراجع البحث والفهرس

مراجع البحث



- القرآن الكريم.
- أبجد العلوم، لصديق حسن خان.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي.
- الأخلاق والسير، لابن حزم الأندلسي.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلي.
- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي.
- الأدب الصغير والأدب الكبير، لابن المقفع.
- الأدب المفرد، للبخاري.
- الأذكار، للنووي.
- إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، لعبد العزيز السلطان.
- إرواء الغليل، للألباني.
- الاستقامة، لابن تيمية.
- الإصابة، لابن حجر العسقلاني.
- آفات اللسان، للمقحطاني.
- إقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية.
- أقوال مأثورة، لمحمد لطفي الصبأغ.
- الألفية في الآداب الشرعية، لأبي عبد الله محمد بن عبد القوي.
- إنباه الرواة على أبناء النحاة، للقفطي.
- البداية والنهاية في التاريخ، لابن كثير الدمشقي.
- بذل الجهود، لخليل السهارنفوي، تعليق الكاندهلوي.
- بر الوالدين، للحنأوي.

- «هر الوالدین، للطرطوسی.
- «مصائر ذوی التمهیز، للفیروزآبادی.
- «بلوغ الأمانی».
- «بهجة المجالس وانیس المقیم والمسافر، لأبی عبد الله الأثری.
- «بهجة المجالس، لابن عبد البر.
- «البيان والتبيين، للجاحظ.
- «تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي.
- «تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.
- «تحفة الأحوذی، لأبی العلی عبد الرحمن المباركفوري.
- «تخریج الإحياء، للحافظ العراقي.
- «تخریج المشكاة، للألبانی.
- «ترتيب المدارك وتفریب المسالك لمعرفة اعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض.
- «تسلیة اهل المصائب، لأبی عبد الله النجفی.
- «التعريفات، للجرجاني.
- «تفسير البحر المحیط، لأبی حیآن الأندلسی.
- «تفسير الطبري».
- «تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي.
- «تفسير القرطبي».
- «التفسير القيم، لابن قيم الجوزية.
- «التفسير الكبير، للرازي.
- «تنبيه الغافلین، لأبی الیث السمرقندی.
- «تهذيب الأخلاق، للجاحظ.
- «تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانی.
- «تهذيب مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تهذيب عبد المنعم العزي.
- «التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي.

- «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعد بن سفيان».
- «جامع الأصول، لابن الأثير».
- «جامع البيان لابن جرير الطبري».
- «جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي».
- «الجرح والتعديل، لأبي محمد الرازي».
- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية».
- «جواهر الأدب، لأحمد الهاشمي».
- «كتاب الحلم، لابن أبي الدنيا».
- «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني».
- «حياة الحيوان، للجاحظ».
- «الداء والدواء، لابن قيم الجوزية».
- «دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني».
- «ديوان أبي الطيب المتنبي».
- «ديوان أبي فراس الحمداني».
- «ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري».
- «ديوان الإمام الشافعي، تحقيق البقاعي».
- «ديوان عبده محمد العماد، (مخطوط)».
- «ديوان المثاني، لعبد الوهاب عزّام».
- «الرحيق المختوم، لصفى الرحمن المباركفوري».
- «رسائل الإصلاح، لمحمد الخضر حسين».
- «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي».
- «رياض الصالحين، للنووي».
- «الرياض الناظرة والحدائق النيرة، لابن سعد بن سفيان».
- «زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية».
- «الزواجر، لابن حجر الهيتمي».

- «السُّسْلَةُ الصُّحِيحَةُ، لِلألباني.»
- «السُّسْلَةُ الضَّعِيفَةُ، لِلألباني.»
- «السُّنَنُ، لأبي داود السُّجِسْتَانِي.»
- «السُّنَنُ، لِلتُّرْمِذِي.»
- «السُّنَنُ، لِلنُّسَائِي.»
- «السُّنَنُ، لابن ماجة القزويني.»
- «السُّنَنُ، لأبي محمد الدَّارِمِي.»
- «سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ، لِلذَّهَبِيِّ.»
- «شَذَرَاتُ الذَّهَبِ فِي أَخْبَارِ مَنْ ذَهَبَ، لابن العماد الحَنْبَلِي.»
- «شرح حديث «ما ذئبان جائعان، لابن رجب الحَنْبَلِي.»
- «شرح حماسة أبي تمام، لِلتَّبْرِيذِي.»
- «شرح السُّنَّةِ، لِلبَغَوِيِّ.»
- «شرح سنن أبي داود معالم السُّنَنُ، لِلخَطَّابِيِّ.»
- «شرح العقيدة الطَّحَاوِيَّةِ، لابن أبي العز الحَنْفِي.»
- «شرح مسلم، لِلنَّوَوِيِّ.»
- «شرح المواهب اللدنيَّةِ، لِلزُّرْقَانِي.»
- «شُعَبُ الإِيمَانِ، لِلبِيهَقِيِّ.»
- «شفاء العليل، لابن قِيَمِ الجَوْزِيَّةِ.»
- «الشُّوْقِيَّاتُ، لأحمد شوقي.»
- «الصُّحَّاحُ، لأبي نصر الجوهري.»
- «صحيح البخاري» .
- «صحيح مسلم».
- «صحيح ابن حبان، لِلألباني.»
- صحيح الأدب المفرد، لِلألباني.»
- «صحيح التُّرْغِيبِ وَالتُّرْهيبِ، لِلألباني.»

- «صحيح الجامع، للألباني.
- «صحيح سنن ابن ماجه، للألباني.
- «صحيح سنن أبي داود، للألباني.
- «صحيح سنن الترمذي، للألباني.
- «صفة الصفوة، لابن الجوزي.
- «صيد الخاطر، لابن الجوزي.
- «العقد الفريد، لأحمد بن عبده ربه القرطبي.
- «كتاب الضعفاء، للعقيلي.
- «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية.
- «عشرون قصيدة في الزهد، جمع محمد سيد أحمد.
- «العقيدة الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي.
- «عمل اليوم والليلة، لابن السني.
- «عون المعبود شرح أبي داود، للعظيم آبادي.
- «عين الأدب والسياسة، لعلي بن هذيل.
- «عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري.
- «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني.
- «الغوامض والمبهمات، لابن بشكوال.
- «مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.
- «فتح الباري، لابن حجر العسقلاني.
- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.
- «فتح المغيب، للسخاوي.
- «فقه الأخلاق والمعاملات بين المؤمنين، لأبي عبد الله مصطفى العدوي.
- «كتاب الفنون، لابن عقيل الحنبلي.
- «الفوائد، لابن قيم الجوزية.
- «القاموس المحيط، للفيروزآبادي.

- قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا.
- الكبائر، للذهبي.
- كشف الأستار، للبراز.
- كشف الخفاء، للعجلوني.
- الكليات، للكفوي.
- لسان العرب، لابن منظور.
- مجلة البحوث.
- مجمع الزوائد، للهيثمي.
- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي.
- مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية.
- المدخل، لابن الحاج.
- المروءة الغائبة.
- المروءة وخوارمها، لمشهور بن حسن آل سليمان.
- مساوي الأخلاق، للخرائطي.
- المستدرک، للحاكم.
- المسند، للإمام أحمد.
- المصنّف، لابن أبي شيبة.
- المعجّم الأوسط، للطبراني.
- المعجّم الكبير، للطبراني.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس.
- مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية.
- مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا.
- مكارم الأخلاق، لابن تيمية، تحقيق وإعداد عبد الله بدران ومحمد عمر الحاجي.
- مكارم الأخلاق، لابن عثيمين، إعداد وترتيب خالد أبو صالح.
- مكارم الأخلاق، للخرائطي.

الإخلاق بين الطبع والنطق

- «مكارم الأخلاق، لسليم الهاللي».
- «مكاشفة القلوب، لأبي حامد الغزالي».
- «منظومة الأدب».
- «منهاج القاصدين، لابن الجوزي».
- «منهج السنة النبوية، لابن تيمية».
- «موارد الظمان لدروس الزمان، لعبد العزيز السلطان».
- «نظرة النعيم، لمجموعة علماء».
- «نضح الطيب، للمقري».
- «النونية، لابن القيم بشرح هرأس».
- «هداية المسترشدين، للحارث المحاسبي».
- «الهدية الإسلامية».
- «الهمة العالية، لمحمد بن إبراهيم الحمد».
- «كتاب الورع، لابن أبي الدنيا».
- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان».



فهرس



٣ مقدمة فضيلة العلامة محمد بن إسماعيل العمراني
٥ المَقْدَمَةُ
٧ تَعْرِيفُ الْأَخْلَاقِ
٩ الْأَخْلَاقُ بَيْنَ الطَّبْعِ وَالتَّطْبَعِ
١١ اهمية الأخلاق:
١٣	١ - أنها امثالٌ لأمر الله - سبحانه وتعالى -
١٣	٢ - أنها طاعةٌ لرسول الله ﷺ
١٣	٣ - أنها سببٌ لمحبة الله سبحانه وتعالى
١٣	٤ - أنها سببٌ لمحبة رسول الله ﷺ
١٤	٥ - أنها أعظمُ سببٍ لدخول الجنة بعد تقوى الله - تعالى -
١٤	٦ - أن كمال الدين - بعد التوحيد - في حُسن الخلق
١٤	٧ - أنها أثقلُ شيءٍ في الميزان
١٤	٨ - أنها عبادةٌ عظيمةٌ
١٥	٩ - حصولُ الخيرية
١٥	١٠ - أنها من خير أعمال العباد
١٥	١١ - أنها سببٌ لتعمير الديار، وزيادة الأعمار
١٦	١٢ - أنها من أعمال أهل الجنة
١٦	١٣ - أنها سببٌ في تأييد الله ونصره
١٩ أسباب اكتساب مكارم الأخلاق:
٢١	١ - الإخلاصُ
٢٣	٢ - العلم
٢٦	٣ - العقيدة الصحيحة
٣٢	٤ - النظر في كتاب الله - تعالى -

- ٥ - التَّاسِيَّ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - ٣٤
- ٦ - الدُّعَاءُ ٣٧
- ٧ - العَمَلُ الصَّالِحُ ٤٠
- ٨ - الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ ٤٤
- ٩ - المَحَاسِبَةُ ٥٣
- ١٠ - المَجَاهِدَةُ ٥٧
- ١١ - الاسْتِفَادَةُ مِنَ الْآخَرِينَ ٥٩
- ١٢ - عُلُوُّ الْهَمَّةِ ٦٢
- ١٣ - النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ سُوءِ الْخُلُقِ ٦٨
- صُورٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ: ٧١
- ١ - الْحَيَاءُ ٧٣
- ٢ - بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ٨٤
- ٣ - صَلَاةُ الرَّحِمِ ٩٥
- ٤ - حَسَنُ الْجَوَارِ ١٠٤
- ٥ - حَسَنُ السَّمْتِ ١١٠
- ٦ - الْوَقَارُ ١١٤
- ٧ - الرِّفْقُ ١١٦
- ٨ - الرَّحْمَةُ ١٢١
- ٩ - التَّوَاضُّعُ ١٢٦
- ١٠ - الْحِلْمُ ١٣٨
- ١١ - الْكَرَمُ ١٥٧
- ١٢ - إِكْرَامُ الضَّيْفِ ١٨٢
- أَدَبُ الضِّيَافَةِ ١٩٣
- ١٣ - الْمُرُوَّةُ ١٩٦
- ١٤ - الصَّبْرُ ٢٠٢
- ١٥ - الْإِنْتِصَارُ ٢٢٧

- ٢٣٥ ١٦ - الإنصافُ
- ٢٤١ ١٧ - المُدَارَاةُ
- ٢٤٦ ١٨ - الصَّدْقُ
- ٢٥٠ ١٩ - حُسْنُ الظَّنِّ
- ٢٥٣ ٢٠ - تَجَنَّبُ الغَضَبِ
- ٢٦١ ٢١ - تَجَنَّبُ الحَقْدَ
- ٢٦٦ ٢٢ - تَجَنَّبُ الحَسَدَ
- ٢٨٠ ٢٣ - غَضُّ البَصْرِ
- ٢٨٣ ٢٤ - الغَيْرَةُ
- ٢٨٨ ٢٥ - عَدَمُ الانشغالِ بعيوبِ النَّاسِ
- ٢٩١ ٢٦ - حَفْظُ اللِّسَانِ
- ٢٩٦ ٢٧ - تَجَنَّبُ آفَاتِ اللِّسَانِ، ومنها:
- ٢٩٦ (أ) الغِيْبَةُ
- ٣٠٦ (ب) النَّمِيمَةُ
- ٣١٤ (ج) الكَذِبُ
- ٣٢٠ (د) اللَّعْنُ
- ٣٢٢ (هـ) السُّخْرِيَةُ
- ٣٢٤ (و) البَدَاءَةُ والتَّفَحُّشُ فِي القَوْلِ
- ٣٢٨ (ز) شَهَادَةُ الزُّورِ
- ٣٣٢ (ح) إِفْشَاءُ الأَسْرَارِ
- ٣٣٧ (ظ) المَدْحُ المَذْمُومُ
- ٣٤٠ ■ الخَاتِمَةُ
- ٣٤١ ■ المَرَاجِعُ
- ٣٥٠ ■ الفِهْرِسُ



من إصداراتنا

للإمام محمد بن عبد الوهاب

- فن الحوار .
- طريقنا للقلوب .
- ملك القلوب .
- تسهيل البلاغة .
- كيف تنال محبة الله .
- منتنقى الأمثال .
- التاج المفقود .
- نعمة الأخوة .
- منتنقى الأشعار .
- منتنقى الفوائد ٢/١ .
- الخطاب البليغ في جماعة التبليغ .
- الصحيح من الأثر في خطب المنبر .
- حادي الصديق إلى بيت الله العتيق .
- الأخلاق بين الطبع والتطبع .
- المنتقى من الأحاديث القدسية .
- نزهة الأحاباب شرح منظومة الآداب .
- تحفة الخطيب (أسول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب) .
- رسالة إلى ولدي .. من تصاحب ؟ .
- صلاة المسلم فضائل وأحكام .
- تهذيب الآداب الشرعية .
- ظلمات الظلم .

التوزيع في القاهرة: دار الغنيمية للتوزيع خلف الجامع الأزهر

شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٠٢٠٢/٢٥١٢٠٦٢١

داركم المتميزة



0 001986 505169

دار الغنيمية

١٩، ١٧ شارع جليل النجاشي - مسقط رأسه - إسكندرية

دار الإيمانيات

ت: ٥٢٢٢٠٢ - ٥٤١١٩١

ت: ٥٤٥٧٦٦٩ - ٥٤٥٧٦٦٩

للتبليغ والشرع والتوزيع

E-mail: dar_aleman@hotmail.com